

أحمد محمد

الأعمال الكاملة



زقاق الحب للبطر

الطبعة الثانية

Amby

٢

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

۔ صالح ہرسی ۔

Amy

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

۔ زقاق السيد البلطي ۔

الى اجتماع أهل

نعمها من عمر البردانية

صالح مرس

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨٧ م ١٤٠٧ هـ

الناشر خارج الجمهورية مصر العربية



المدارس المستقلة بالبحر الأحمر

P.O. Box 8000 Nicosia - Cyprus

Tel: (02) 498698 - Tlx 5341

أيقوسيا - ٢٠٠٠

٩٩٨٦٨٨ - ٩٩٨٦٨٨

الناشر



للشعر والتوزيع

١٩ شارع الورصة - الدقيقية -

ص. ب. ٢٥١٥ القاهرة ت: ٧٤٢٢٢٤

عمارات أبو الفتح - عمارة ٣٩

شقة ٤ رقم ت: ٨٥٩٥٥٦

لم تمر أم حنفى منذ سنوات تلك الفترة التى يمر بها الناس عادة بين اليقظة والنوم ، كانت اذا وضعت رأسها فوق الوسادة ، راحت فى نوم عميق لا يوقظها منه طبل أو زمر ، ثم تصحو وكأن يدا تنتزع عن حواسها غلالة النوم على غير انتظار ، فيرتفع جفناها عن عينيها ، وتدبر فى الظلام بصرها الكليل متحسبة به جسد ولدها الراقد عند طرف الحجرة ، ثم تستدبر لتدثر ابنتها عائشة بالغطاء وهى تلومها حيناً ، وتلوم حنفى حيناً ، وتدللها حيناً وتدلله حيناً آخر فى غير تفريق بين لوم وتدلليل . . . وتسكن المعجوز بعد ذلك تماماً ، وترهف البسمع لذلك النداء الذى أصبح مع مضى الزمن ، وكأنه يخاطبها فى كل فجر من فوق مثذنة المرسى أبو العباس .

كانت المعجوز قد استيقظت فجأة فى فجر ذلك اليوم القارس من أيام ديسمبر عام ١٩٣١ ، وراحت تنتظر فى هدوء صوت المؤذن . . . ومضت لحظات قبل أن تتساءل هامسة - إذ كانت أم حنفى دائماً ما تعبر عن أفكارها

بصوت مسموع - ان كانت غفوة قد أخذتها فقاتها الأذان ، أم أنها لم تنم
كفأيتها في تلك الليلة ؟ ...

وانتهت لحظتها - بلا سبب معين - الى آلام ظهرها المتيسبب وتذكرت
نوبات الضعف التي أخذت تزورها في الأيام الأخيرة فتلزمها الفراش ...
ففتحت فيها لتتأوه متوجعة ، عندما ترمى الى أذنيها صوت المؤذن ساهباً في
سواء الحى ، فنهضت على الفور من رقتها وهي تلقى بشالها الممزق حول
كتفها ورأسها ، وتبجى لنفسها مكاناً عند حافة الفراش الذى أخذ يصر
صريراً حاداً مع كل حركة من حركاتها ، وتقتص في نفس الوقت بأذنيها تلك
الأصوات والتسبيحات والدعوات التي كانت تترامى إليها من حوارى الحى
وأزقة كالمص الحنون ... فرفعت كفها أمام وجهها ، وأخذت تقرأ الفاتحة
في خشوع ، طالبة للسيد البطلى السعادة حيث يعيش .

كان أكثر ما يثير شجنها في تلك اللحظات أنه ذهب دون أن يودعها ...
فيفيض قلبها بالمرارة والأسى ، وتغمصم بشفثها هامة :

« معاش يامسيد ، يمكن هى أحل منى ! »

وتجذبها على الفور ذكريات لم تفقد جذبتها رغم مرور عشرين عاماً كاملة ،
فنتسليم لرجفات قلبها وهي تتسامل في دهشة : « ترى ماشكها ١٩ ! ...
هل نصفها سمكة ونصفها إنسان ١٩ ، وكيف تعاشره إذن ١٩ ! ... هل
أنجب منها أولاداً ؟ ... وهل هانت عليه عشرتها وسبها له ؟ ... ألا يشتاق
لحنى وعائشة ؟ ... كم أوحشها وجهه العريض القوي بشاربه الكث الذى
يغطى صدغيه ... لماذا لم يتبني يوم أن استخطفت تلك الجنية الصارخة
الجمال ؟ ... هل ذهب معها برغبته ، أم ذهب مغلوباً على أمره ١٩ ! ...
وهل كان السيد ممن يغلبون على أمرهم ؟ ... يقولون عنها أنها كانت جميلة
كالبدن في ليلة تمامه ، لكن جمالها لم يشفع لها عند السيد ، فتركها وتزوج جنية

من جنات البحر ... وهى لم تصدقهم ، ولن تصدقهم ... فالسيد لم
يمت ، لم يبتلع البحر في جوفه ، فالبحر يخاف الرجال ... وكان زوجها
رجلاً ولا كل الرجال !

ودائماً ... دائماً كانت ما تنتزع أم حنى نفسها انتزاعاً من سيل
الذكريات المتدفق ، لتستدير نحو ولدها وتبدأ في إيقاظه بصوتها الناقب ،
وتدأها الرتيبة المنغمة ، وحديثها المتشعب ... تنفذ حينا ، وتمدح حينا ،
تبتسم مرة ، وتعييس مرة ، تحدث نفسها ، وتحدثه ، تسأل وتغضب ، تثور
وتهدأ دون أن تنتظر منه رداً أو جواباً ... وتتأدى بلا انقطاع :

« حنى ، حاننى ، حنوو ووفة ، ياواد ، لو ترحم نفسك من السهر ،
راجع بعد نص الليل وحاصصى ازى وش الفجر ؟ ... اسمع كلامى
يابنى ، اسمع كلامى وانجوز ... حاننى ، فين أبوك ييجى يشوف الحال
المسايل ؟ ... فكرك أنت حانجيهها البر ؟ ... بكرة تعمل زيه وحياة مقام
المرسى ... ياواد ، حاننى ! »

وقد صحا حنى ، وراح يتقلب في مكانه متبرهاً ، وأخذ يزوم في شجر ،
وينطق كلمات متقطعة غاضية معلناً بها عن صحبائه ، إلا أنها كانت تعلم
أنه لن يصحوا قبل أن يتعب قلبها ... فاستمرت تتأدى عليه غير عابئة بزجرة
وهى تدبر بصورها في أرجاء الحجرة ، متحسنة في الظلام مكان كل
شئ ... فمن يسارها يقع الباب الذى يصل بين حجرتها وحجرة المعلم
صادق ، زوج شقيقته المتوفاة ، وابنته زوية ، ويجواره باب حجرتها الذى
يفتح على الفناء ، وعن يسار الداخل يقوم الدولاب الصغير الذى اشتراه لها
السيد البطلى قبل ذهابه بأيام ... وتحت أقدام الدولاب يرقد حنى ، دأ
جسده حتى منتصف الحجرة ، وفوق رأسه منضدة مفككة المفصل ، ما بها

كانت عائشة تعلم أن حديث أمها عن زواج حنفي سيجد منه ذات يوم
أذنا صاغية . . . فلن ينتظرها شقيقها طيلة العمر ، ولن يستطيع مقاومة تلك
الفاجرة التي تسكن الحجرة المجاورة طويلاً . . . والأيام تمر ، وكل يوم
يضيف إلى قلبها هما فوق همومها . . . فتمشي ينتهي كل شيء ؟ . . . متى
تزوج أو تموت ؟ . . . وهل سيأتي ذلك اليوم الذي يطلبها فيه رجل ؟ !

قالت لها أمها مئات المرات أنها تزوجت وهي في الرابعة عشرة ، وأن فتاة
واحدة من عائلة البلطى لم تعشش في بيت والدها أكثر من خمسة عشر عاماً ،
وها هي ذى قد بلغت العشرين . . . فهل فات الأوان ؟ !

« عمرى لي اللمة يا زوية »

رفعت زوية رأسها ، وعلم وجهها تلك الابتسامة الزائفة التي لا تختفى ،
ماذا يجب حنفي في هذا الوجه المتعفن ؟

« طب قولي صباح الخير يا عيشة ! »

تسابعت عائشة وهي تمد يدها بالمصباح نحو ابنة خالتها ، وقالت وهي
تضع كلماتها وقطعا في استهانة :

« صبحك يا بخير يا اختي . . . »

تناولت زوية المصباح ، واستدارت نحو حجرها ، وثبتت عينا عائشة
تأملان في ضوء الفجر الشاحب جسدها الممتلئ ، وكثفها السميتين
المحشورتين في الثوب حشراً ، حتى بانث ثنيات اللحم واستدارة القوام ،
واختفت زوية داخل الحجرة ، وهبت نسمة باردة من باب الطريق المقترح ،
فارتجفت عائشة ، وضمت ذراعها إلى صدرها ، وتحسست بكفيها لحم
كثفها ، فاصطدمت بتواءم عظامها البارزة وتذكرت على الفور . . . في حيرة
شديدة . ما اشتدته من عوج وحلبة ووصفات ريت اللحم على أكتاف

الكثيرات ، لكنها لم تؤثر في جسدها الضامر . . . فهل يسكن جسدها شيطان
كما تقول أمها حقاً ؟ . . . وهل تسلط عليها ذلك الشيطان فامتص دماءها
ووضع بينها وبين الزواج حجبا كثيفة ؟ !

تقدم المصباح في يد زوية فغمر الفناء بضوئه المخفق وراء سواد الزجاج ،
وأخذت عائشة - على الرغم منها - تأمل تقاطيع زوية وشعرها المسترسل في
أعمال جعلها أشد فتنة عما تعودت أن تراها ، وارتجفت قلبها لمراى الأنف
الصغير كالنبقة ، والعينين الواسعتين الضاحكتين ، والوجنتين
المكتنزتين . . . لكنها ما لبثت أن تناولت المصباح عندما أطلت من عيني زوية
تلك النظرة المتسائلة الخيرة التي كثيرا ما أوقعتها في ارتباك شديد ، مخافة أن
تكشف زوية ما يعتمل في نفسها . . . وانفلتت بالمصباح مهرولة كمن تفر من
ذنب ارتكبته تاركة ابنة خالتها في الفناء وحيدة وعلى وجهها ابتسامة واسعة ،
وفي عينيها نظرة معفونة فاهمة !

وانتشر الضوء في حجرة أم حنفي ، وتعددت ظلال الأثاث القليل على غير
العادة . . . وأثار صمتها هذا مخاوف ابنتها ، فراحت تحتل النظر وتردده بين
أمها وشقيقها في رعب . . . أليكونان قد اتفقا على أمر ؟ . . . ماذا يدور في
رأس أمها ؟ . . . وماذا يدور في رأس حنفي ؟ ! . . . هل اقترب اليوم الذي
ستصبح فيه فلا تجد حنفي ممدداً على أرض الغرفة فوق حشيته ؟ . . .
هل . . .

« حنفي . . . ما تقوم يا ابني تتوكل على الله ، أعمل الشاى يايت »

كان حنفي غارقاً فيها يفرق فيه كل صباح . . . أحلام تراوده حيناً ثم
تقطع عنه لتعود من جديد عتيقة حادة هوجاء ، تسلب النوم من جفونه ليلاى

زبان. وتدفع النوم الى عييه في رفق ولدة لبالي أخرى وبالي. ويهبط عليه كال صبايح عندما يصل الى اذنيه صوت أمه ، ويسحب عنه النوم تاركاً مكانه ليقلقه شديدة ، وجواس مرهقة ، أشدها حساسية أذنان مدربتان على تسمع رجفات شبيب في الحجرة المجاورة ، أو في الفضاء .

ما الذي يستعنه حقاً من الزواج ؟ . . . هل هي عائشة ؟ . . . نعم عائشة ! . . . ولكن ، هب أن أحداً لم يتقدم لها ، أو أنها ظلت طوال عمرها بلا زواج ، فماذا هو فاعل ؟ . . . ثم ، ماذا لو تقدم أحد الرجال للزواج من زوية ، هل يستطيع الاعتراض ؟ !
تري ، هل تحبه زوية ؟ !

جئيل عندما راوده هذا الحائط . . . تخيل اليه أنه يعزى زوية من ملاسها ! ما هو الحب ؟ . . . الحب في رفاق السيد البلطى سلعة محرمة ، قد يرب الرجل زوجته وأولاده ، ولكن أن يحب فتاة لم يتزوجها بعد ، فهذا هو الضلال بعينه ، بما بالك وهذه الفتاة ابنة حالته ، وأنة ابن عم والده ، هناك من عائلة البلطى ، تجرى دعائه في عروقتها . . . ولو أن أحداً قال ذلك أمامه لما تردد في سحق رأسه ، ولكن ، لم الحرب ، وتصدده شريف . . . معها هرب وبها فر وبها خدع نفسه . . . فما في قلبه

« - بلعي ، قوم يا أخويا لتشطف ، أنية حاضرة ؟ »

هم رأسه فاصطدمت عيناه بوجه أخته الدميم الواجم ، وقد برزت شاميهه في ضوء الصباح فازداد قبحاً وغمامة . . . يقولون أن أباه كان جيلاً قوى سلاح ، وإن أمه كانت كاللدو . . . فلن خلقت أخته دميمة ، لمن هذا الأنف الكبير ، والعينان الضيقتان ، والفم الواسع ، والعظام الثلاثة ؟ . . . موجات غامرة من الحنان تتدافع في صدره ، فتكسر رأسه في

صمت ، وتهبط وراء أخته الى حيث كان الطست عند باب الخيام . « يا بصره فشم المكان في لحظة . . . لم تكن واقفة ، لابد أنها تجهز الفطور لأبيها . . . متى تصب الماء على كفيه بدل عائشة ؟ . . . متى تتزوج أخته ؟ . . . متى تكف المطارق التي تهشم رأسه ، وعائشة لا ذنب لها . . . أتركها ويكسر خاطرها وليس لها في الدنيا غيره ، أفتأخذ لعواطفه كالأعصار دون أن يتحمس طريقه فيسحق ما أمامه ولو بالخلل ؟ . . . لأن يتزوج وليحدث ما يحدث ، عائشة أولاً وقلبه ثانياً . . . ولكن ، هل هو صادق فيما يقول لأمه ، لقد هم بالأس أن يحدث المعلم صادق في المقهى ، وكاد منذ لحظات أن يتصلع الضيق من إلحاح أمه ويصبح فيها أن تختار له زوجة وترجمه من وجع الدماغ الذي يعيش فيه . . . لكنه تراجع اليوم كما تراجع بالأمس وأول أمس ومنذ شهور طويلة . . . تصده قوة قاهرة ، حب طاع لأخته لم يسلك إلا الاحساس به والاستسلام له . . . في أحيان كثيرة كان حبه هذا يفيض فيقبل عائشة ضارباً عرض الحائط بصيحات أمه التي تترى في القبلات مسخرة وقلة حياء !

« الشاى ياعيشة أحسن أبويا محمد زمانه اتوكل ! »

قال هذا ورفع اليها وجهها مبتسما وعينين يفيض منها الحنان ، وردت هي على ابتسامته بابتسامة . وهمت بصوت متفعل مرتعف !
« حاضري يا أخويا . . . حاضري »

واستدار . . . وخطأ نحو حجرته . . . وما كذا يدلف اليها حتى همت من وراءه رائحة ، وخفيف ، وزحف الشبيب في الفضاء . . . وصبر على أسنانه وهو يمسك لنفسه : « يعني لو بدرتى شوية ! »

ذرت كنفها بشالها ، ثم رفعت طرفه الى رأسها وأحاطته به ، وتقدمت خطوة نحو الطست القابع تحت أقدام المقعد بجوار الفراش . . . كان عليها أن تحمله بمياهه وصابونه الى الحمام الذى يتوسط الفناء ، عندما سمعت صوت حنفى يزجر متأففا من الحاح أمه ، وترددت برهة ، على أن ترددها لم يطل . . . راحت تمضغ في ذلك الوقت فكرة عابثة كثيراً ما راودتها ، الفكرة ناعمة وتدفع الدماء فى العروق وتصبغ الوجه باللون القانى وتتمل الأطراف ، لكنها ظلت على مر أيام طويلة تزحف فى بطء وتتمكن من نفسها يوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد أخرى ، حتى تمكنت منها تماماً . . . ومن ثم فقد تحولت زوية الى الباب الذى يفصل الحجرين وهى تلقى على الطست نظرة ذات معنى ، وجذبت بأصبع قدمها القروة العتيقة الرافدة فى منتصف الحجر حتى لاصقت الباب ، ثم قبعت فوقها واستكانت الى مجلسها الذى تعودته على مر الأيام ، وجاءها الأصوات أشد وضوحاً وأكثر صحباً . . .

« يا أبني اسمع كلامى . . . الجواز نص الدين ! »
« والنسب يا أمه ، قولى يافتاح يا عليم »

كانت زوية تعلم أن ما تفعله عيب لا يغتفر ، ولو علمت أن فلانة تحب فلاناً لشهقت وخبطت صدرها بكفها وصاحت فى استنكار :
« يا لحوى ! . . . ولو قالوا لها أن فلانة تسرق السمع من وراء الأبواب لقاتل على الفور فى نفور ودهشة : « يا مصيئى ! » . . . وكثيراً ما عذبتها هذه الخواطر ، لكنها كانت تجد نفسها مدفوعة رغياً عنها إلى ممارسة مشاعرها ورغباتها دون أن تبوح لأحد بكلمة ، وقد فاض بها الحال ذات يوم . . . وأحسّت بعيبه حبها يشغل قلبها . . . ولم تجد من تستطيع أن تحدثه فى الموضوع سوى مسمار !

فى البداية قالت عن نفسها أنها لا بد مجنونة ، فكيف تحب . . .

— ٢ —

بدأت زوية الساء فى ذلك الوقت المبكر رائحة تبهر البصر ، وسبحت قطع السحاب المتناثرة فى جماعات كعرائس أسطورية ترتدى غلالات شفافه . . . ودبت الحركة فى شوارع المدينة وحوايرها ، كما دبّت فى زقاق السيد البلطى ، وأخذت أبواب بيوته تنفجر بين الحين والحين عن رجل يسعل ويدب فوق الأرض بقدميه مسرعاً ، أو طفل يحمل وعاء يسرع به إلى بائع الفول الذى كان صوته يصل من بعيد متادياً على بضاعته بصوت أجش ، أو امرأة تطل رأسها متادية على « هم حسين » بائع الحليب .

غادر المعلم صادق ابنته زوية ككل صباح ، فوقفت وسط الحجرية وحيدة ، يصل إليها صوت خالتها من وراء الباب وهى تعيد موال كل يوم . . . ورغم أن المناقشة لم تكن جديدة فى شئ ، حتى فى كلماتها ، ورغم أن زوية كانت تعلم مقدماً نتائجها المحتومة . . . إلا أن الأمل فى أن يلين حنفى لم يفارقها .

مسباراً ١٩... ثم قالت أنها قليلة الحياء والتربية... ثم استكانت مع الأيام ، ونسيت الجنون وقلة الحياء والتربية... ولم تعد تمارس ذلك الزجر العنيف لنفسها ، والذي اعتادته منذ أن وعت ذات يوم - ولا تدرى متى وكيف أو لماذا ١٩ - فوجدت نفسها قد وقعت في حب حنفي دون كل رجال الزقاق .

كثيراً ما جلست في هذا المكان لتسمعه وهو يتحدث ويحكى لأمه وأخته عن الرزق الذي صادفه ، أو الرجال الذين تشاجروا ، أو الشبكة التي تمزقت وبليت ، والقارب الذي يحتاج إلى ترميم... وكانت تستطيع - دون حرج - أن تذهب وتجلس معهم وتسمع حكاياته وترقبه عن قرب ، لكن ذلك كان نبل أن يدب في قلبها ذلك الاحساس الذي كان يخطف روحها كلما التقت عيناها بعينه ، حتى أصبحت تفر من أمامه خشية أن يكشف هو سرها ، وهو بالذات ، فيما يقول عنها لو علم أنها تحبه ؟... وهل يتزوجها رجل يعرف أنها تمارس العيب وهي فتاة ؟!

واكتشفت ذلك المكان وراء الباب... ثم عثرت على ذلك المسبار الذي دفن نصفه في الجدار الرطب وبقي نصفه ممتدا في الفضاء... تعبت به أصابعها ، وتحدثت إليه هامة ، وبثته شكواها ولوعتها ، وتسأله المشورة وتتمنى لو أجابها بكلمة .

كان حنفي صلب الرأي... ما من مرة حدثته أمه في الأمر إلا وقال لها : « لما تتجوز عيشة ! »... وتلع أمه ، وتعلق عائشة بكلمة أو كلمتين... فبصمت ، وترقب زوية رده بقلب واجف ونفس متطيرة .

خيل إليها في أحيان كثيرة أنه سيقول : « على بركة الله... أطلبى في زوية يا أمه » . لكنه لم يقلها أبداً . بل كان يندفع في صوت باتر ولهجة جادة لاتدع مجالاً لاستمرار المناقشة : « لا... لا... قلت لا... لما عيشة تروح بيت

حوزها ، خلاص ! »... كانت وقتها تحس بطعم المر في فمها ، وتشعر بأن قلبها يلفظ آخر نبضاته في خفقات سريعة مضطربة... وعندئذ ، تمتد أصابعها إلى المسبار لتحسسه في اضطراب وهي تهمس بصوت حزين : « شايف... مش بيحبنى ! »

أفاقت زوية في ذلك الصباح من غواطرها على صوت عائشة وهي تقول :

« جرى أبه ياخويا ، هو أنا حاروح فين ، دانا حا أفضل جنبك ، والنبي أمي معاها حق ، حانفضل عازب لامي ، حق ما لكش حق ياسي حنفي »
لم يكن يهمها أن تكون عائشة كاذبة أو غائلة ، لا يعنيها من الأمر شيء ، بل هي لا تفكر فيه ولا تريد ، كل ما يهمها في تلك اللحظات أن تسمع صوته ، ولو كانت كلماته في ذلك الوقت حكماً يصدره عليها بالأعدام لتقبلته راضية ، فيكفيها أن تسمعه ، وتتذوق رجفة القلب وتخففته الموجهة... وقد سمعته يزجر شقيقته :

« بس يابت بلاش كلام فاضى ! »
وصاحت أم حنفي :

« والنبي حاموت ، حاموت من غير ما أفرح بيكم ، ياواد اعقل بقى ، ربيع قلبي يا ابنى ربنا يربح قلبك » .
« يا أمه قلب لك ألف مرة مش حانتجوز قبل ما تتجوز عيشة... لزومه أيه التت والعجن بقى ! »

قال هذا بحدته وهو يلقي بكوب الشاي إلى الأرض بجواره فيتحطم... واضطربت زوية وقد تملكته تلك الفكرة المجنونة... لكنها لم تتردد لحظة .

تري . . . ماذا يحدث لو تزوجا ١٩
واتسالت المياه من جانب الطست لتغرق طرف ثوبها ، وتسيل على
الأرض !

ألقى على المسار نظرة سريعة ، ثم خفضت كمن أهدبها لسان من النار ،
وقفزت الى حيث كان الطست فاحتفظته واندفعت الى الخارج . . . وحدث
ما توقعت . . . اصطدم بها حنفي في الدفاعة خارجاً من حجرته ، فنهائلت ،
ونجايل الطست في يديها ، وكادت مياهه أن تندلق . . . لولا كفاه !

كيف حدث هذا ، يقولون أن كفى السيد البلعللى كانتا ككفى عملاق
هائل ، ولكنهما قطعاً ليستا ككفى ابنه ، ولم تكن أصابعه بأية حال من
الأحوال كتلك الأصابع القوية الصلبة التي انغرس في لحم ذراعيها . . .
ماذا لو طالت هذه اللحظات فامتدت الى أن تموت ، أو تغرق ، أو تحطفا
جنية وتحنقها . . . أو يحدث لها أى شيء . . . فقط ، يبقى في وقفته ، وجهه
الكبير يطل عليها من أعلى . . . وأنفاسه الدافئة تغرق وجهها وتلتف حول
كفالة عطره ، ثم تنبط الى صدرها . . . وتستكين في دوامة رائعة بين
تهدبها !

« صباح الخير يا زوسة ! »

لماذا نطق . . . ؟ لماذا تكلم . . . ؟ إن أعظم أحلامها جوحاً لم تكن لها لذة
كتلك اللذة الرائعة التي كادت أن تفقدها الوعي . وليس هناك مفر . فلا بد
من رد تحيته !

« صباحك بالنور ياسى حنفي »

وانفرجت الأصابع ، وانفلت الحبيب من جوارها الى الباب ، واحتفى !

أى جنة تلك التي يمدنا الله بها ١٩ . . . هل سيفسار جهاها جمال ذلك
القضاء الرطب ذى الأرض اللزجة والجدوان المتأكلة ؟ . . . ليقولوا ما يحلو
لهم ، لكن قليلة الحياء . . . ولتكن حتى فاجرة إن كان الفجر أن يمسه
حنفي كل يوم ، ويضمها بنظراته ، ويفرقها بأنفاسه .

« الدور يا عطيات ، لدورا »

ردت عطيات بلهجة قلقة وهي تحاول جهد استطاعتها أن تحمي ما انتابها من قلق :

« يا حويا خليها على الله ، بس انت ماتحدثش في بالك . . »

وامتدت يدها بكون الحليب الساخن ، فتاوله منها ورفعته الى شففيه ، لكن القصة الشرسة كانت قد فطكت من صدره ، والشمع يسرى في جسده ، وسجابه المجهول تعطى عيبه فتغيبان ، مشفق ، وهز الكوب في يده ، وقامت المراثيات أمام عيبه وتداخلت ، فسعل ثم شفق مرة أخرى ، واقرت من عطيات وتاولت كوب الحليب من يده ، وحملت عيها في تلك الزرقة انتى أهدت تزحف فوق صفحة وجهه ، وذلك البيض الذي كسا عيبه . . . وقال حمودة وهو يقاوم في استناته :

« العيال يارب . . . لعيال ، العيال يا عطيات ! »

انفجرت الكلمات في صدر المرأة كبير حادة ، اقرت منه ووصعت كعها فوق كتفه وهي تتمتم بالدعاء ، وتطلب لرحمة في رجده . لكن تقاطع حمودة كانت ترداء تخلصا ، وأصابع يمينه انثت كمخالب ، وأجذت تحفر في لحم رقبته طريقا للهواء ، وشهقاته تنتعج في لغة ، فصاحت بصوت مصطوب

« سي حمودة . . . حمودة ! ! »

كان عقل حمودة لا يزال يبحث عن مخرج من ذلك الظلام الذي راح يحجب عنه الوعي تدريجيا ، وأحس ببرودة لادعة تعرق جسده كالمطوفون ، وجبات كتبه تروح في ذممه وتحمي كأطراف مطموسة الملامح ، القارب الذي ينهزه فوق السريفي خاليا ، ولشبكة المعلقة على السباح تعث بها الريح ،

— ٣ —

أيقن حمود البطي في ذلك الصباح أنه لا محالة واقع بين أنياب المرض . . . أحس نبشة القاسى عندما فتح عيبه على صوت زوجته وهي تناديه ، صدره متقبض ، أعماه منقطعة ، والهواء شحيح . قال باسم الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم استعان بالمرسى أبو عباس ، وأحد يتبع بعيبه عطيات وهي تسفل في أرجاء العرفة رائحة عادية ، تجهز له الإفطار ، وتندثر الصغار الراقدين فوق الحشية بجوار الباب ، قد تعرت أطرافهم ، وتكوم العطاء بين أحسادهم مسجرا عن ساقى هذا ، معطيا وجه تلك ، وأبعاسهم منتظمة هادئة ، وأعماه منقطعة محتقة ، فسعل محاولا انزعاع تلك لسحابات الخافقة التي قللا صدره وحلقه ، فتمنع عنها الهواء . . . ثم سعل مرة أخرى وزام وقال : « يا سائر ! » . . . ورفعت عطيات رأسها اليه ، وجهت عيها عليه وهي تسأله عن حاله . . . فقال وهو يلتقي بساقه في الهواء ويدليها من فوق المراش :

والررقى ، والرحال دوو السواعد القوية يذمعون بها المحاذيف الى جوف المياه ، والأجساد الخمسة الممددة فوق الحشية من يعولهم من بعده ١٩ والبدوء الذى ما يكاد يبعد حتى يشتري غيره ، والإبر التى تعرس كل يوم فى حمة ، والطبيب ، والسيد اهدى الناشترجى لابد ان يأتى الآب ، يجب ان يقول لعطيات ، لكن اهواء صبي ، شحيح .. هواء ! . سمعة ! سمعة ترد إليه الروح الضلال يكثف ، والأطياب تدوب فيه ، ورأسه ثقيل ، بجوى الى قرار سحق ، العيال ، لقد حفر رأسه واحد يتطايير وتكاثفت السمك فسدت الطريق الى صدره ، سمعة ! .. هواء ! .. قطرة من رحمة ! .. ظلام ! .. أمطار ! .. ع... ط... يا

وانطلقت صرخة عطيات لتثقب كل أذن فى الرقاق ، واندفعت تصم الجسد الذى عباوى بين ذراعيها ...

« الحقونى يا اخوتى ... الحقونى ... الرحال واح من ايدى ! »

فتحت البوابة ، وأطلت منها الرؤوس ، وهزولت الأقدام ، وقال أكثر من صوت : « حمودة ! » ، واستيقظ العيال ، وتسمروا فى أماكنهم ، ثم تلاصقوا وهم يمتحنون بعضهم البعض ، ويكوا فرعون ، واندفعت عائشة الى الحجرة ورأت حائلها ممد ، يتقلص جسده ثم يعمر فى حركات حادة سريعة ، مرزت عروق رقته وبعرت ، واعتجق همه فى استعانة ، وشهقاته تتلاحق ، وأصابع يديه تثشبان بكل شيء وأنى شيء ، دموع عطيات ، وتزاح العيال وصوت أم حننى يأتى من الخارج وهى تتعثر فى الطريق وحدها :

« ياخويا ، ياخويا ، إن شاء الله أنا ياحمودة ! »

وسرعان ما اكتظمت الحجرة بنساء الرقاق وصاحت احداهن :

« السيد هدى الباشترجى ياخوتى الحقونى بالسيد اهدى ! »
وسلا رعى ، امتدت يد عائشة فحذبت الشال من فوق كتفى زوب واندفعت الى الطريق لا تلوى على شيء !



كان حننى يوسع الحظ وهو فى طريقه الى الشاطئ يربط هواء وجهه الملتهم ، وندفع من أمه سحبته من لصب مقطعة كامامه كان الصعف والتزاحع هما الذى ما يتوق اليه فى تلك اللحظات ، لارالت آثار أماس زوية تحت شعيرات صدره العارى ، وعيابه تلحظن بلا مبالاة أرض الطريق المله ، ويقع المياه المائرة كالبحيرات الصغيرة تعكس على صفحتها تنف السحاب المثورة فى السماء ... والطريق أمامه حاد ، ليس سوى صباد هنا ، وصباد هناك ... يلقى بالتحية على الناس فى اقتصاب وجهه عائب فى دوامة لا متناهية ، ينثنى الى اليمين حينا وإلى اليسار حينا دون أن يدرى وكان قدميه عتقتان تعرفان الطريق ، عامل يسير على مهل وفى تكاسل ، لارال أمامه وقت فلشمس بالكاد تصعد فوق حافة الأفق ، مقهى أبو عى الكيلامى يفتح أبوابه ، عم حامد نانح المطير يدع عربته أمامه ويصيح بصوته لجمل : « الحمد لله ... ياغى ! » ، فيردد ورده : « لا إله إلا الله » ، لابد أن المعلم محمد يقف الآن فى انتظاره ، وعى فوجده فى مقام أبيه فاداه كما يناديه الجميع ، يابا محمد ، رباه وربى عائشة ، شب عن الطوق ليحد منه فى قاربه يتعلم منه طرح الشبكة وجذبا ، ثمأ كحمود بن عمه ... كانا اخوين واثما وإن اختلف فى كل شيء ، ترى لو عاش أبوه ، أكان قد أحبه قدر حبه للمعلم محمد ؟ ... كم يتوق لأن يستقل بقارب وحده ، وإن فعل ... فلن يترك عمه ؟ ... ان محمود كعنده تماماً ، يعمل يوما ويقضى يومين فى البوطة بين الصباح ، لا يكاد

يعيق من سكره أو مسئلة ؟! ولنس أحكام ، فرغم بنية عمه القوية إلا أنه لا يكاد يصنع شيئا ، سبعون عاما وهو يكندح في مهمة لا ترحم شيخوخة ولا ضمعا . هل يظل ملازواع حتى يولي العمر ١٩ ؟ ان روية ترداد جمالا يوماً بعد يوم ، ومار قلبه ترداد اضطرابا ساعة بعد أخرى . والسباه اليوم صافية ، والرزق يرسد الله بحساب وكأنه يدحر للأولاد والأحفاد ما يكفيهم ؟!

أمه محقة وهو يعلم ذلك ، وعائشة ليست دميمة ، في هذا الحد ، ورجل لا بد سيطلب الزواج منها ذات يوم ويقول على بركة الله ، ثم يهرع في نفس اليوم ، لا ، بل في نفس الساعة ، إلى المعلم صادق ويطلب منه زوية ، سيهمس في أذنه بالأمر كله لقد أدرح ما يكفي لشراء قارب ، سيكون له عذرة ولن يناع عمه ، ذراع قوة والحمد لله وتستطيع أن تجدي شبكة تحمل طبا من الأسماك ثم إن زوية يا صابو لن تنتقل من البيت ، ستظل بجوارك وتخدمك وكأنها لم ترح غرفتك ، ستعبر القناء فقط إلى حجرة حمودة التي خلعت بعد زواجه من عطيات ، والحجرة على يسار دورة المياه وبسبب وبسبها حطوتان ، سيميم فرحا لم يشهد الرقاق مثله من قبل ، ولم يعمره الصبايون صد أيام السيد البطل . ترى هل يشبه أباه حقاً كما يقولون ؟! كيف ابتلعت الأمواج جسده اهائل العليم ؟ لماذا لم يسبح ؟! لماذا لم يظهر بجنته أثر ؟! وجدوا قاربه في عرض البحر خاليا تركه وحيدا وعمره عامان وعائشة انة ثلاثة أسابيع ، لم يكن الرجال يخافون من أبيه ؟! هل من لعدل الا يبحث الرجال عن رزق والأرض أرض الله والمياه مياه الله ؟! وهل كان أبوه على حق فيما كان يفعل ؟! طامنا قصصا عليه القصص فتعجب ألم تكن هناك حكومة ؟! ألم يكن هناك سلطان على النشاط ؟! سوى سلطان السيد

البطل ؟! ان هذا بغمرة بالزهر ولمخر والغسطة عل أن احساس ما ظل كامنا في أعماقه ، احساسا لم يستطيع تفسيره ، بل انه لم يجرؤ على معاناة أحد فيه ، أي سؤل وأى حديث حول السيد البطل يدور في غير مقدس كفر لا يعتفر

حكى له خاله حمودة ذات مرة كيف هزم السيد دسنة من الرجل عدما حاولو لاقتراب من شاطئ البطل مسكين حمودة ، صاحب أولاد ومرضى إنه ينفق كل ماله على الدواء وأفاق حتى عن صوت ياديه :

« سى حنى ياسى حنى يا حوى »

كان قد اشنى لى شارع البحرية وسار بجوار سور لمبى الكالح ، واستدار الى الوراء وقد تمكنته الدهشة ، صدمه صوت عائشة المنهف ، ورؤعه منظر جسدها الذى كان يتهايل وهي تحجل على ساق واحدة ، فهمس فى قلق : « يا فتاح يا عليم ! » ، ثم اطلق عائدا إليها

اقترب منها وعيناه لا تمارقان وجهه المتقلص بالألم والبكاء ، وقد تهدلت عن جنبها الفصيص شعيرات لم تستطع أن تحميها من اللمعة ، فاندفع يقول .

« حيسر يا عيشة ! »

« خالى بخلى حمودة جماله اندور يا حوى ! »

« وعاملة فى نفسك كده ليه ؟! »

« أما حايعة ياسى حنى لسور المرة دى جامد قوى ! »

أبأنه دسوعها بما جعل فيه ينقص ، وكان يعرف ماذا عليه أن يفعل ، فقام بلا تردد :

« روى انتى ، وأنا رايح للسيد أهدى الشترحى »

تركها مبهورة الأساس ، راد يكاؤها من دمايتها ، واحمر طرف أنفها ، وكست الزرقعة وجنتيها ، وصدرها يعلو ويهبط فى افعال حد .. كانت تتحسس بين الحين والحين قدمها التى التوت أثناء عدوها ، واحساس دفين فى أعماقها يستعذب ددع الدمع وتقلصات الوجع وامعاجازات الألم الكامن ، فأحدثت تمس :

« يا حبيبى يا حلى .. يادو العيال يا غلى ! »

لكن هائشة لو وقعت لحظة أمام مشاعرها الحقيقية ، .. لكانت أول الدهشين بسبب بكائها الشديد ، ودمعها الغرير !

— ٤ —

كثيراً ما تمكك العصب نفس المعلم محمد اللطى أثناء تنظيره لحفى صباح كل يوم . . . على أن أمر ولده محمود فى ثلث الأيام ما كان يهجم فى كثير أو قليل ، أو هذا ما كان يحول التنظير به ، فرغم محاولات كثيرة ، ورغم الزجر الذى مارسه معه حينه ، واللين الذى حاول أن يعزوه به نفسه حيناً آخر ، إلا أن ولده كان يعود دائماً الى سيرته وحياته انتى يجيها فى الموحير ومع الغورى والساقطات من بنات كوم بكير !

ولا يدرى المعلم محمد اللطى متى انحرف ولده مع هذا التيار ، ولم يكن يصيه أن يحدد الزمن ، فليس هد من طبيعه ، كل ما يعلمه أن محمود لم يعد يظهر على الشاطئ إلا لما ، حتى جاء وقت أنكر فيه أن ولده يمكن أن يكون صياداً . وقد حر فى نفسه هذا الأمر وأدنى قلبه وأرقه ليأى طويده لم يذق فيها طعم النوم ، إلا أنه أستطاع أن يستعيد هدوه نفسه بعد حين - وان لم يستطع أن يمحو لمرارة التى لوت حياته دلونها الأصغر الكتيب - ووضع فى حفى كل ألمه .

كان المعلم محمد - ككل صياد يعثر بمهته ويفاجر بها - لا يستطيع إلا أن يدهق مكانه من المياه قبل أن تشرق الشمس ، لذلك ، فقد كان أكثر ما يصبقه ويعصبه ، أن يتأخر حنفي عن الموعد أو يتلذذ في اللحاق به .

وكثيراً ما تأخر حنفي عن موعد الرحيل . . . ينتشر الصياد ، ويظهر في الأفق قرص الشمس ، وتفرح القوارب فاراً وراء الآخر ، ويعمل الرصيف إلا من قاربه . . . ينتز ويتهامل فوق صفحة المياه في انتظار ساعدي حنفي لقويته . ودائماً ما يأتي حنفي مهزولاً ، وما أن يراه عمه حتى يتجر عصبه ، وتدوب الكلمات التي كانت قد تجمعت على طرف لسانه وترواحمت في انتظاره حتى تهال عليه لوماً وبغريماً . ويجد المعجوز صورته غادية حانياً من كل معدل

« اتأخرت ليه يا حنفي ؟ »

« والله يدا محمد ، أصل الـ . . »

ويمصغ حنفي الكلمات الناقية فلا يبين لها معنى ، ويتسم المعلم محمد وهو يقفز إلى القارب ، ويبدأ عمله وكان شيئاً لم يحدث .

على أن الأمر لم يكن شيئاً يمثل تلك البساطة ، فكثيراً ما تحدث المعلم محمد مع حنفي وهم جالسان في القارب وسط المياه عن ميرة التنكير في الحضور . كان الرجل يؤمن دائماً أن صيد البكارى تركة . وأن الصياد الماهر هو من يعود بحملة قبل الصبح فيلتاحطفه التجار وهو حتى يلعب . . . والناس معززون بالمسك الخي ، يدفعون قرشاً أكثر في مقابل سمكة تنوى ، ولو وضعها وسط أكرم من الأسماك التي صيدت في انعام الماصي !

ولم يكن حنفي يرد عن عمه أو يناقشه في حديث ، إنما هو يصغى صامتاً لصوته الهاديء الوقور ، ويبرز رأسه بين الحين والحين مؤثراً ، ويهبط لجذب

حلاً أو يعدل من وضع شكة ، أو يطرح أخرى على اجباب الآخر ، ولا يكتم عن العمل لحظة .

وقد حمد له المعجوز ذلك التأدب الذي لم يجد سبيله إلى نفس ولده وفي مثل تلك الأوقات التي يطول فيها الصمت ولترقب ، كان المعلم محمد يترك نفسه العبد ليكر في أمر محمود ، أو يتحدث فيه مع حمى فيستعد من جديد - دون أن يمل من ترويد سؤاله - بمن يشبه محمود ؟ . . . وهل سيظل طوال عمره متسكعاً بين خدات والغرر ؟ . . . ما لم يذخر وسعاً في تربيته حتى أصبح صياداً يحسده رجال الشاطئ على مهارته ، فلماذا لا يتبدى بالله ؟ . . . كم من مرة تشاجرا سوياً ، وكم من مرات طرده من البيت . . . بل إنه أعمن ذات صباح حالك فوق الرصيف وأمام كل رجل الشاطئ - وكان هذا حدثاً رهيباً اهتزت له عائلة السطى - أنه يرى من ولده . . . لكن محمود لم يهتم ، غادر الرصيف وعاد الرقاق أياماً . . . ثم طهر ذات صباح مستقلاً فلوكة ذات شراع يوصل بها الناس لقاء البحر . .

وكانت هذه هي السطامة ، واجتمع رجال البطل وشبابه في بيت المعلم محمد ، وقرروا بالإجماع أن يعود محمود إلى بيت أبيه ، وأن يعتبر ، وأن يعد بالأجل بعد اليوم عمله . . . وقد عاد محمود ، واعتذر ، وقبل بد أبيه ورأسه ، وأقسم ألا يميل بعد ذلك عمله . . . ومضى يوم ويوم ، ومضت أيام عاد بعدها محمود إلى سابق عهده . . . يسهر حتى لصباح ، ويعود مع بزوغ الفجر حطاماً ، محمر العينين ، شاحب الوجه مترنحاً .

غادرت الشمس حافة الأفق وأخذت تتسلق صفحة لسيه ، وألفت بشماعتها اللدنية ونورها الواهن فمهر كل شيء . . . ولم يظهر حنفي !

وكان هذا أكثر مما يطيق المعلم محمد أو يحتمل !

ماذا دهى حنى هو الآخر ١٩ . . . أتراه يصعب ما صنعه محمود ؟

أيهذا أن لا يستطيع أن يخرج بالقرب وحده ١٩ . . . لماذا تأخر ؟ . ولماذا أصبح يتأخر هذه الأيام كثيراً ١٩ . . . أين يقضى لياليه هو الآخر ١٩ . . . هل عرف الطريق إلى الحرم ومجال الموطلة ؟ هل يصحب معه رجلاً ويترك حنى ومحمود ليصمما ما شاء في عيشها ؟ أليكون هذا نهاية الطريق التي شقها السيد البلطى ١٩ . . .

أين أنت ياسيد لترى العائلة وما حل بها ١٩ . . . تركنا شاطئنا بعد موتك وحشاً في امساء ، لم يعد فيما من يستطيع الخروج إلى الشاطئ المفتوح وعمره ما تعرضت له أنت ، الرجال كثيرون متناثرون فوق الرصيف ، منهم يعمرون متسكعين بلفوف تحة تقول أمى حذمة يؤذي لقاء أجر ١٩ .

علاوة وأصحاب عيال ربع الصيد للرجل الذي يقوم بالعمل كله أشياء كثيرة تغيرت وتبدلت منذ احتفائك ياسيد . . . وجوه جديدة رحفت على الشاطئ تبحت عن الرزق ، ومهن جديدة حققها الرجال حلقاً ليعثروا بها على لقمة العيش . . . سنوات طويلة مرت وأنا رب العائلة . . . بلغت لسبعين ولا زلت أخرج كل صباح بالقرب ، ترى هل أستطيع الآن أن أجدب الشبكة وهي عملة ١٩ . . . مرت سنوات طويلة دون أن أمارس لعمل ، ولذلك حنى زين الرجال حقاً ، ووبدى وصمة عار لم أستطع أن أحوها لكسي لازلت عمياً ، لازلت بي قوة تستطيع أن تطرح الشبكة وتغسها ، كثيراً ما تذكرتك وأحسست بالصباع والوحدة ١٩ . . . أن لا أذكر أبى أو أمى ، فقد كنت أبى وأمى وأخى . . . كيف مت ١٩ . . . وهل أنت ميت حقاً ، أم أنك لازلت تعيش في قاع البحر مع جنية حساء ١٩

سدارى ورومة وحسين وزينهم يتغامزون وهم في جلستهم بجوار السور ،

لاند أهم يتشاورون ، وسيأتى إلى أحدهم عارضاً خدماته . . . لماذا تأخر حنى ١٩ . . . هل يظل أن حياتي معلقة به ١٩ . . . أظن أنى سأقف كل يوم عن الرصيف حتى تصعد الشمس إلى منتصف السماء في انتظاره ؟ . . . نعم الله عليه وعلى أمه . . . لعنة الله على العائلة بأكملها . . . سبعون عاماً بكى أستطيع أن أخرج وحدى ، وسأخرج وحدى وأرسم وحتى لو جاء حنى - قسماً بالله - من أسمع له أن يها القارب . . . من يظن نفسه هذا الكلب ؟ . . . هيه ١٩ ؟

« صباح الخير يا محمد »

« صباح الخير يا رومة »

« لن أصحب أحد . . . ليرزقنى الله بحمل واحد وأعود ! »

« أمان فىن حنى ، أتاخر ليه النهاردة دنيا ؟ »

« مش جاي ، عيان ، مات ، الله يلعن أبوكم ! »

عاد رومة إلى رفاته الخالسين بجوار لسور بعد ما لقيه من نعم محمد اللطى ، ويقاى ابتسامة لازلت عالقة بشفتيه ، غير عابىء بسباب الشبح وشتائمه ، ثم قال مشيراً بظرف أصبعه إلى حيث كان القارب يتعدى مسرعاً :

« ذا باين عليه اتخافق مع حنى ! »

وسرعان ما ألقى بعينه إلى جوار زملائه . . . ثم فس بين شفتيه سيجارة أشعلها وهو يستشعر لدنة الكليل ، ويمصص عيبيه لشعاع انشعشع ، يدافى الذى يحول لرجال الشاطئ أن يتعزفوا فيه في الأيام لشائنة . .

رن الصمت على الرجال وهم يلاحظون الحياة التي أخذت تدب على الرصيف تدريجياً ، وباول رومة سيجارته المشتعلة حذره ، وأسدت السيجارة

دورتها على الرجال ، تنتقل من شفتين الى شفتين ، وكل منهم حريص على أنفاسها القليلة . وتساءل أحدهم بلا مبالاة عن سر عيبات حمى ، وألقى آخر جواباً فائزاً ، التقطه ثالث وعلق عليه .

ثم قلب الحديث بهم ، واتخذ من حلقة الى حلقة حتى وصل الى السيد البلطى ، حيث لا تعقد الحكايات عنه جدتها مهما قُبلت أو أعيدت !



قبل ثلاثين عاماً ، لم تكن المياه قد أصبحت على ما كانت عليه في تلك الأيام . . . فلا أسوار ، ولا مباني ، ولا حراس . . . بل ساحل رملي يمتد من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، تقوم في وسطه صحرة رأس التين الشاهقة بقصرها اهنال . . . ويمتد الساحل عن يسار الصحرة متحياً نحو الغرب حتى ساحل المنكس . . . هناك في أقصى المدينة أو بعد ذلك نقبل . أما تلك المساحة التي تمتد عن يمين رأس التين شرقاً حتى نهاية شاطئ الأنفوشي وبداية المياه الشرقي ، فكانت وقفاً على عائلة البلطى . . . حرم السيد على رجال الشاطئ أن يرتادوها أو يطرحوا فيها شاكهم . كما حرم على رجال البلطى ان يطرحوا شاكهم أو يرتادوا مكانا اخر غير مكانهم . ورغم أن هذا المكان لم يكن أكثر الأماكن أماناً ، بل كان أشدهم خطراً لتعرضه للرياح والأمواج ، ولامتلائه بالصخور والأعشاب . إلا أنه كان - في ذلك الوقت - أحصن الأماكن وأكثرها عى بالأصمك !

وقد تعددت الأساطير عن السيد البلطى وتكاثرت حوله الحكايات مد وهاته . . . كانت سيرته - رغم مرور ذلك الزمن الطويل - لا تزال تجد من رجال الشاطئ ونسائه وعياله أذناً صاغية ، بل كان الحديث عنه هو أحب

الاحاديث الى نفوسهم ، وأدسمها مادة وأعزها تفاصيلاً . . . يحكى الناس به الحكايات ، ويسمعون عنه حكايات أخرى ، في التقاهى وعلى عتبات البيوت في أرقعة حتى الأنفوشي المعتمة ، وفي لغز وبغال لبوطة ، عندما يصبح حديث الرجال شعراً وحبلاً وأسطير تلهب مشاعرهم وتحف بهم وتجسد لهم آمالاً يصبون اليها ويتحنونها .

ولو تبه الذين عاصروه - من غير أهل البلطى - لما كانوا يحكوه بالستهم ، لدهشوا أشد الدهشة لذلك التحريف لذي أدخلوه - رغيبين - على تلك الشخصية التي حكمت الشاطئ يوماً بقصة من حديد ، غير عانة بسطة أو سلطان ، وفرضت على لرجال حكماً جاداً لا مرر له ولا مسطو يسده . حكى أصبحوا يصربون به الأمثال في العدل والشهامة والرجولة ، لكنه كن - في أيام السيد - ظلياً يحملوه صاعرين أمام ذلك الجبار الذي ترح اليهم من قف البلاد ، ولا يدرون من أين ؟!

جاء الى الشاطئ أول الأمر وحيداً ، فوجد الرزق موقوراً ومكت بصمة شهر ، ثم احتفى أياماً عاد بعدها بعائلته كلها . . . لا يدري أحد ما هي صلات القرى بينهم ، إن كانوا أحوة أو أولاد عم أو أخال ، كل ما عرفه الناس عنهم أهمهم « البلطية » . . . كانوا فقراء يرتدون أسبلاً مخرقة ، صفر الوجوه ، هريز الأجساد . . . وكان لسيد هوراس لعائلة تطاع كلمته بلا تردد ولا مناقشة - فأحدهم بالشدة ، وجميعهم في حجرتين استأجرهما في الرقاق ، حيث كانوا يجتمعون كل ليلة ليقتسموا ما أتاهم من رزق . . . لا يريد نصيب فرد عن فرد ، ولا يقل نصيب فرد عن آخر . . . وقد شغبه أمر العائلة في البداية محرم عن نفسه الزواج ، وحرم عليهم الإحتلاط بأحد ، واحتفظوا بتقاليدهم وعزلتهم ، لم يجلس أحدهم على مقهى ، ولم يعيش أحدهم غرة . . . وماليت عدوهم أن تكاثر عاستأجروا حجرة ثالثة ، ثم

رابعة . . . ثم اشتروا بيوت الرقاق كله . . . وسعى الرقاق بعد ذلك باسم السيد البطل . . . ولا يجرؤ غريب على الخطو داخله ، أو استطاع ما به .

وتزوج السيد قبل وفاته بثلاثة أعوام ، وكانت ليلة زواجه أسطورة ، دخل الناس الرقاق فيها لأول مرة ، أكلوا وشربوا ، وقرعوا في الخمر ، وطلع عليهم السيد في صباح اليوم التالي رجلاً آخر . . . يحادث الناس ويحياهم ويناقشهم ويسمر معهم ، وإن كان قد احتفظ بشاطئه لعائلة لا يقربه رجل !

وقد مرت الأعوام ، فأبششت المباني والأسوار ، وزحف العمران عن تلك المساحة الرملية التي يقع عند طرفها قصر رأس التين فوق صحرته ، ومن ورائه يمتد ذلك للسان الصخري الى قلب البحر . . . وتغيرت الحال ، وأصبحت غير الحال . . . احتفى السيد للبطل ذات صباح تجهت فيه الطبيعة وثارت ، عصرت الساء في ذلك اليوم سحبها عصراً ، وأغرقت الشاطئ بسيل الأمطار ، وأريد سطح المياه وعلت أمواج البحر حتى رجعت الى ساحة القصر وما وراءها من أراض خالية ، ودمت العاصفة الكثيرين ، لكنهم استطاعوا الهبة لغريم من الشاطئ ، ، بينما كان السيد البطل قد توغل - كما تدته - برناد البحر بقدر هرب ، ويترع الرزق تراعاً غير عابى بهج أمواج أو أمطار ساء . . . ومرت الساعات دون أن يعود ، ثم مر الليل والعاصفة لا تهدأ ولا تستريح ، وعندما لاح فجر اليوم لثاني اتلع البحر أمواجه ، وامتص الكون رياحه ، وزاد على الطبيعة سكوب حزين ، وأطلقت القوارب تجوب الساحل من أقصى شرقه الى أقصى غربه بحثاً عن السيد . . . لكنهم لم يعثروا عليه . . . وانغمست الحقيقة في قلوب الجميع فادمتها ، حتى الذين كانوا يصمرون له كرهاً ، أمسوا يومها ليجدوا أنفسهم وقد فقدوا رجلاً دمت الخفق ، حازم الرأى ، عادل الحكم . . . ويكاه

الجميع لينها ، ثم بكوه بعد أيام عندما دخلت المياه إحدى سفن الاحدير وهي تسبح وراءها قارب . . . وظل الناس يتحدثون عنه ، وكلوا غمدوا ، كتبوا اكتشفوا فيه شيئاً ، يلهب عواطفهم . . . تذكرو يوم اختلاف الصيادون مع تجار الخلقة ، وكيف وقف السيد يقوم اسيطرة على الأسعد منتصر للصيادين حتى هزم التجار وأصبحت الكلمة كمنهم . . . وتذكرو يوم اختلاف أثنان من الرجال حول نصيب كل منها ، وكان السيد هو الحكم الذي قبل الرجلان حكمه . . . ويوم أن هبت العاصفة وكادت أمواج البحر تتلع سعة من الرجال بقواربهم ، فإن بالسيد يطلق وحده بقارب شرعى لينقذ الرجال وقواربهم وشباكهم . . . وتذكرو شارب بوظة لايشق له غبار ، وحشاشا صلب الرأس مفتوح العينين ، وقائل شعر وجليس أنس ومعنى مواويل عند تصفو الليالي ويتوفر الرزق ويحل المال الجيوب . . . ويصبحون وهم في قمة الشوة :

« كل ده كان محبى فين ؟ ! »

فيرد عليهم بانسامة الوثق المنتصر :

« حكم الزمان على الرجال بإرجال ! »

ولم يكف الناس عن الحديث . . . حتى أصبحوا يوماً فوجدوا في السيد أملاً يصبو اليه كل منهم . . . رأس كراس حوت ، وكف شهاب الرجل ، وقائمة مرد ، وعينا سر لاحتفان ، وطل يغاوى حبات البحر ويكثر في صدره الأسرار ، وفي بيته الجواهر والأموال . . . وأصبح السيد البطل أسطورة !

فمن ذا يصدق أنه يموت ؟ !

قلوا أنه تزوج ابنة أحد مدوك الجان ، وقد أقامت له زوجته قصرأ - لا يزال

قائماً - تحت صحرة رأس البحر ، وانه أحب منها اثني عشر اوند - ليست فيهم
أشي واحدة ! . . . وهو سر يعلمه كل فرد في عائلة البلطى ، يتوارثونه في
الرفاق ايسا عن أب دون أن يجوز أحدهم على النوح به ، والا حدث له
ماحدث للسيد . . . وكانت بداية النهاية عندما احتلف السيد مع زوجته
الحية ، واشتد الخلاف بينهما فتخاصما ، وقرر السيد اعاطها فتزوج أم
حنى . . . كانت يتيمة لا أب لها ولا أم ، جاءت مع العائلة طفلة صغيرة ،
ونبت في العز الذي أعرق العائلة بعد تزوجها الى الشاطئ . . . وانقسمت
النجية أن تحطف السيد وتسجنه ، ولولا خوفها منه ومن نطفه ، لمعلت ذلك
مد اليوم الأول لرواجه . . . لكنها طلت تنتظر وتنتظر حتى هبت لعاصفة ،
شعل السيد عن نفسه بالشككة والعارب ، ونهمك في العمل غير شاعر
بالخطر المحقق به . . . فنبضت عذبة من الخلف - ولم تكن لتجاوزف
بمواجهته - وقيدته بالسلاسل ، ثم سحنته وغاصت به في أعماق البحر !!

لم يكن فيما قاله الرجال في ذلك الصباح عن السيد جديد . . . وتدرجاً
تسرب العتور اليهم ، فتعت الحديث ، ثم تلاشي . . . وغرقوا في
السكون

مالبث أحدهم أن رفع رأسه الى قرص الشمس المعلق في الفضاء ، وهبط
عذبة الى سطح المياه وقد ناثرت فوقه القوارب ، فابتلع نعايه بمرارة وقال
سيرة يائسة :

« سمعتم الى حصل لينة امسارح في كهوة سلومه ؟ »

« لا . . . حصل ايه ؟ »

« واحد من رجدة عبد الموجود حمد ن ، قال انه خلاصني اتفق على مركب
لصيد جديدة ! »

« يقولو ياجدع انها مركب توسق ميت حن سملك ! »

« حقه رجعت المركب دى ياجدعان ، قون بارحى يرحيم عن
لصيادين ! »

وامنجر الطبيب فحاة والانفعال يكاد يقتلع جسده المحين من فوق الأرض :

« وليه » سافرش لحد دلوقت ؟ ... انتوا بهيم ؟ ... آمال عامل تومرجى ايه وزلت ايه ؟ ! »
« ماهو ياسعادة اليه »

« بلا سعادة لييه بلا رفت ، فهم يايبى دم ، الراجل ده عيان ، عنده ربو ، والحالة متقدمة ، وحشة يعنى ، فاهم ياسيد ؟ ... حالته وحشة ، لارم يروح مصر ، يروح حنوا ، يروح فى داهية بس ميقعدش ها ! »

- ٥ -

هزول السيد عبد الرحمن بجسده السمين المزهل وراء الطبيب وهو يعادر فراش حمودة فى أدب شديد بين صعين من الأسرة ، يكاد كرشه أن يجتنى داخل انحصاة حسنة ، ويكاد الدم أن يطفر من وجتيه امعالا . حتى اذا انتهى منها السير فى باب العبر الكبير ، ولاح للنظر فناء المستشفى العسيع وقد تآثر فيه المرضى والمرصون والمرصات وبعض الأطباء ، توقف الطبيب عن السير ، واستدار نحوه السيد قائلاً فى تحهم :

« مش بتقول انه قريبك ياسيد ؟ »

« أيوه ياسعادة اليه »

فاها السيد فى برة مسكينة مترفة ، وهو يضم كفيه السمينتين أمام صدره فى تعلق شديد ، بينما راح الطبيب يتمحصه فى ابعاد وقد بدا على وجهه أثر التكبر العميق ، ثم قال فى شيء من الحدة :

« أنا مش قلت لك قبل كدة أنه لازم يروح مكان هواه جاف ؟ ! »

« حصل ياسعادة اليه ... حصل ! »

تلجج السيد عبد الرحمن وانكمش فى نفسه أمام هذه لشوة ، وكبت حمة الخجل ووجهه الأبيض حتى تحول الى قطعة من اللحم لاجر العانى وأحنى رأسه فى أدب شديد وهو يتنمتم :

« ماهو أكل عيشه ياسعادة اليه ... »

وقاطعه انطبيب :

« شوف يايبى ... »

وصمت وهو يكبت أنفعاكه ... وزعم أنه كان يصغر لسيد عبد الرحمن بسنوات لاتقل عن العشر ، إلا أن هذه لم يلق بالآلى كلمة « يايبى » هذه التى تعودها من حضرات الأطباء ... وفى رآيه - وليسيد أفندى لباشتمرجى له آره فى الحياة مهمة جداً - أن الأباء ليسوا بالنسن ، ولا بالدم ... وانها بالعلم ، لذلك صمت فى أدب الأبناء أمام صمت لطبيب الشاب اندى أمسك بالقلم وأحد يكذب على ورقة فى يده علاج غريض حمودة لنعفى كات يده تجرى بالقلم فى سرعة ، ويخطف من القلم حروف لكديات خطفا

يطمس محلها ، وما أن انتهى من الكتابة حتى دفع الورقة الى السيد عبد الرحمن وهو يبرطم مكملاً حديثه ، وقد لانت هجته في شيء من العطف المرير :

« شوف يا ابني ... الرجل ده حالته خطوره ، لازم يروح مكان جاف ، مفيش علاج غير كده ، فاهم ؟ ... تبقى تدي له الدواء ده ! »

وعسى الطبيب مسرعاً دون أن يفتي بالألا الى كلمات الشكر التي انهمرت من فم السيد أمدي ، وما لبث أن احتفى في أحد الممرات ، فتنفس السيد أمدي الباشتمرحى ملء صدره ، وسرعان ما استقام ظهره ، وبرر كرشه في رهو ولاحت امارات الاهتمام على ملامحه وهو يدفع مسرعاً ليهبط سداً صغيراً يوصله الى الفناء .

كان حنفي لا يزال في وقفته في أحد أركان الفناء الواسع ، وقد بدا القلق على وجهه عندما انقضت عليه كلمات السيد أمدي بلا مقدمات :

« جانيكم كلامي ياسى حنفي ؟ »

« حير ياسيد أمندي ... »

« بلا سيد أمدي بلا زوت ... أفهم ياسى آدم ، الرجل عيان ، عنده ربو ، والحالة متقدمة ... »

وتوقف عن الحديث ريثما يرى أثر كلماته في حنفي ابدى بان عليه العرع وهو يتسادل في دهشة :

« متقدمة يعنى ايه ياسيد أمدي ؟ ... »

« أيوه ياسيدي متقدمة ، يعنى وحشة ، فاهم يا حنفي ، الحالة وحشة ، لازم يروح مكان هواه جاف رى ماقلت لكم قبل كدة ، عارف يعنى ايه

جاف ؟ يعنى مصر ، حلول ... في أى داهيه بس ميقعدش هنا جنب الميه والرتوبة ! »

ورغم حلاوة اللسان لشي كان يتمتع بها لسيد أمدي ، ورغم أن حنفي ابداً لم يكن يتطر من هذه اللهجة - خاصة ولثورة العبيمة ، إلا أن ذلك لم يكن يعنى سوى أن حاله مريض ، وأن مرضه لابد خطير ... لذلك لم يقضب ولم يثر ... حقاً لم يسبق للسيد أمدي - ولا غير السيد أمدي - أن أطال لسانه على أى من رجال لرقاق ، إلا أنه لابد وأن يكون في الأمر شيء دفع الرجل الى هذه الثورة ... الورقة ترعيف في يده ، ووجهه كسته حمرة الانفعال ، وعيناه لمفتان لا تستقرن على حال ... وانتابت حنفي حيرة بالغة ، فبذ يقول ... قين هذا الكلام موات ومرات فون جدوي ... ولن يترك حاله انشاطي ... وان تركه مهذا يصنع ؟ ... وأين يعيش ؟ ... وماذا يعمل ؟ ... وكيف يطعم أولاده ؟ !

تخلت الأفكار عليه ، فكس رأسه ، وساد الصمت بين الرجلين ... على أن غضب السيد أمدي - وإن كان مصطبعا - قد انغثا لسكوت حنفي ، وانتابه احساس بالرهو شديد ، وحساس آخر بالدم على ما يدر منه . فأخذت شفته تتمتان بكلمات مبهمه سرعان ما أجدت تبين :

« ما هو يا حنفي الدكتور قال كده ، ده زعلان خلاص ، وأنا قبل ما يقول لدكتور قلت لكم أنا ، هاكر يا حنفي ... ده حتى الرجل قعد يتحاييل هلّ ويقول لي ؛ مش أنا سهت عليك المرة لى فانت ياسيد أمدي ؟ ... قلت له أن حموده صياد ، وده أكل عيشه ، مفيش فابدة ... الرجل حابروح من ابديكم يا حنفي ! »

كان حنفي مسامحا بفكر في أمر خاله ... ورغم محاولاته العديدة للمثور في ذهنه على حل ... إلا أنه قال أخيراً في نبرات بالسة :

« والعمل ياسيد أفندي ! »

قافا وهو يتحرك نحو باب المستشفى الكبير ، وقد زوى ما بين حاجبيه في صيق . . . ذلك أن كل شيء بداله في تلك اللحظة كثيراً ، حياته ، زوجه ، المعلم محمد الذى ينتظره على الرصيف ، أخيهات انسى احرها بلا فائدة ، احبته التى تجرى ب السسوات دون رواح ، حاله المريض وأولاده الحسنة . . . هل يحدث شيء ، حمودة ! ؟

« كله بأمر الله ياسيد أفندي ، كله بأمر الله ! »

لوح السيد أفندي في تهرم وقد عاوده الغضب من جديد ، ثم صاح في انفعال :

« وأخرتها يا حنفي . . . وأخرتها يعنى ! ؟ »

لم يكن غريباً ذلك الحساس لذى بدأ من السيد أفندي الباشتمرجى ، فقد تمسده أهل الرقاق منذ أن جاءهم لأول مرة ليصالح حمودة أثناء إحدى البوبات . وتردد السيد أفندي منذ تلك المرة على الرقاق كثيراً ، وأصبح مع الرمن طبيب العائلة ، يشخص للمرضى أمراضهم ويعالجهم منها ، ويشتري لهم الدواء أو يأتي به من المستشفى . . . ودخل السيد أفندي كل بيت ، وعرف الكبير والصغير ، ولم يعد يأخذ القرشين عند انكشاف ، كان قد أصبح لطول العشرة وكأنه واحد منهم ، يقضى لياليه عن المقهى وسط المعلم محمد وحمودة والخابج برعى والمريس صادق . واسن في عائلة السطى تلك الحياة المستقرة التى أضفتها علاقتهم به عليه .

لكن غضب السيد أفندي سرعان ما تبيخر وذاب عندما التفت إليه حنفي وانتفت عيساه بعبيه ، فحقق قلبه خفقة صريعة ، شيء ما يربطه بحنفي

الحدث ، شيء يدب في قلبه ويطلق جوانحه في وعى كامس . . . وكان قد وصل الى باب المستشفى الكبير عندما توقف حنفي وسأل السيد أفندي في أسى

« وارى حاله دلوقت ! ؟ »

فرد عليه هذا بتمهجة حنون وقد رق صوته ، واهترت حمومه في تأثر مبالغ فيه .

« بخير بعد ما اسمعته ، عملت له اللارم ، وجه الدكتور . . . كان السس ماشى عال ، صحيح ، الرابجل شكرنى ، انما د. حمودة أحوبا ، احنفي ! »

يشهد الله أن السيد أفندي لم يقصد الى هذا الأسدفاع في الحديث الكاذب ، فقد لقد تعود هذا منذ أن عرف كيف يتقن سر الصبغة ، لكنه في تلك اللحظة لم يكن ليفكر في أمر كهذا . . . ثمة عاطفة جياشة كانت تحتاج مشاعره في تلك اللحظة ، عاطفة غريبة مست قلبه مساً حقيقاً دون صمط أو اكراه . . . عاطفة أخذت تتمسح في قلبه لئلا يبرد كقطعة أليفة مألوفاته ، ألد أوقاته تلك التى يجتر فيها ذمعه لمسة يد ، أو نظرة خاطفة ، أو كلمة تؤول . . . حنفي يسلم ويمسح به ليدفعه بالسان واليد والقلب معاً . ويشغل جسده العملاق العازق في صديرى عصف وسروال واسع مصفاص ، ويمسح كحبيب تعذيه الروح فيجتاز اساب في خطوات واسعة وناس مرفوعة . . . أكثر ما أحبه في هؤلاء الناس هو كبريتهم التى حرم منها . . . مات أبوه وتركه مع أم كانت تشقى طول اليوم لتطعمه . . . شب من الطوق ليرى من الحياة وجهاً وحاداً شيع انكوب . حمل العلم فأصبح أهم جزءاً متمماً لشخصيته ، لا يعرف في الحياة سوى كلمة حاضر ، ولا ينشئ شيئاً قدر اتقاه للانحباء والتعلق وتقيل لا يندى وانتهاز الفرص . . . يهره

في آل البلطي أحسبهم بذوتهم وكأنهم ملوك الدنيا . . . اختفاء حمى عن نظره ، وسعيه إلى الخير ، وذهابه هنا وهناك ، وتنقله بين الأسرة والمريض ، وملاحظته لأنفاس حمودة ودقات قلبه ، وحديثه مع زملائه ، وحفظه لقطعة لحم من المطبخ ، وأوامر الأطباء وصيحات الباشتمرجي . . . كل هذا يمر أمام دمه العارق كما تمر سحابة حموية في يوم قانط ، تمل من حرارة الشمس لكنها لا تحفها أبداً . . . وحرارة قلبه أكبر من أن تطلقها أحداث الحياة الساردة . . . وجه يراه - عن خلاف الناس - أشد الوجوه سراحة وأمنها منظرًا ، حياة وأدب وأحلاق ، وجسد نحيل حقًا ، لكنه يعرف كيف يكسو بلحم كلحمه

الفقر ما يجب أن يعيش - هكذا يقول السيد أمدى لنفسه دائمًا - والرزق يرسله الله حتى ولو كان من طعام الموصى ، والدحم الذي يأكله يكفي أربعة . . . ويوم يظلمها سقف وحد سيفرقها في الأدوية الشافية واللحوم ، به يعرف سر لصحة حقًا ، لكن سر ذلك الذي يؤرقه ويظير النوم من عينه لم يعثر عليه بعد . . . في قلبه شك ، وفيه أيضاً أمل وحسوف .

توى . . . هل تشعر به عائشة ٢٩

هناك أوقات يكذب قلبه أن يدوم حناناً لأهله تخرج من لحم مريض . . . وأوقات لا يكذب بسمع في آهة سوى صيحة تمر بحوار الأدب كمواء قطرة أو نباح كلب !! . . . ولقد دأب قلبه فويانا لنداء حمودة الواهن ، أسرع نحوه وحسب عليه وباتسم بكل وجهه . . . هذا خالته باعائشة ، لا تحف يا حمودة لقد زال الخطر وسوف تخرج كالسبع بعد يوم أو يومين . . . أولادك بخير ، وحسب ترك المستشفى منذ ساعة بعد أن أطمأن عليك ، قال الطبيب أنه لا بد لك من الانتقال إلى مكان هوائه جاف ، أحبرته يا حمودة بأنت صياد فم بأنه ، معه حق فهو الشايطي يتصنك . . . لا شكر على واجب . . . ستأخذ

١٨ الأفراس في الرابعة ، وستمر عليك نعيات المعرصة لنحقيقك مرتين ،
١٩ الرابعة وأخرى في العاشرة ، لانتهم ، السلام عليكم .

دم هو حيل أن يصنع لإنسان شيئاً من أجل عجبوه . . . إن ينسى كل
٢٠ عدا حلم جميل يطوف بالنفس والقلب ويفرق العقل .
هل تحسه عائشة ١٩

هو يحسها ولا يدري كيف حدث هذا ؟ . . . زوية لا تعجبه ، في عيها
٢١ طره فحصة جريئة . . . يحين لدمه أحياناً أنها تحترق الصدر وتكشف عن
٢٢ بوبت النفس ، أنها تعري لإنسان من ملابسه ، كم هي عجيبة . أما
دائشة ، فمكسرة لظرة ، أنفاسها لها رائحة حياة تصبها ، كان قلبه بارداً
٢٣ لأنه محبوط بثلاجة المستشفى حتى مرصت أم حنسي وذهب ليحبها ،
اجنى عليها فصحت معه عائشة وفاحت من فتحة صدرها رائحة انش
دائشة ، هذات الحيد ، وبص القلب ، وارتجعت الحقنة في يده .
٢٤ معها . . . يومها كاد يخن ويطلبه من حمى . . . لكن الله سلم !
لا بد من الذهاب إلى الزقاق . . . هل يراه الديلة ١٩

بالك من دحم ياسيد أمدى يا باشتمرجي ، أحقل يارجل فما هكذا يصكر
العملاء وذو امراكن !

أماها كحبات عقد رخيص ، وعتت بحبوطها ، وتلاعبت أصابعه بقطع
العين ... ثم حمل « الهلب » فتقوس ظهره تحت ثقبه ، وتصلبت أعصاب
ذراعيه ، وحطت قدماء في هذه خطوتين ، فتبايل القارب تحتها ، وما لبث
أن طوح بالنقل إلى المياه ... وتنفس من صدره !

وما لبث المعلم محمد أن غاص في دوامة الفكر التي اجتذبت إليها رذيله
العمل ورونته ، أفكار تروح وأفكار تجيء ، مد يده عن رأسه فيحرقه ،
وحذر تحصر بعده كل الأسئلة تركة وراءها سؤالا واحدا يعرصد في
دهسه ... هل يستطيع أن يجذب الشكة ١٩ ؟ ... هل تقوى ذراعاه على
لحم أن كان كثيراً ، أم تحوانه فيسقط منه ويسلم باهرية ١٩ ؟ وإسسه
خوف عامص هل ولت أيامه حقاً ؟ سؤال قاس يقص له قلبه ،
فهر رأسه وهمس لبعده : « رى ما تكون عيل صغير ! » ... ثم تذكر لينة
الأمس ، ولم يستطيع أن يسمع لاسامة من السيطرة على ملامحه . كلمات
أم محمود لارلت تظن في أذنيه ... الولية شعرها شات ولازلت بحوية أينة
العشرين ... قالت له بالأسس - وكان أمس هو الخميس ! - إن فضاء
الشباب تعربد في عروقه وكان السنوات لم تمر ... كانت لينة !! والله
لينة لا يقدر عليها شباب هذه الأيام ... كيف يحاف ١٩ ، وكيف يتردد ١٩ ،
سعون هام لكبح تسوى ثلاثين فقط ، لعنة الله على الخوف ومن يحاف ،
حذر فريب يسرى في أوصاله ... أشعل سيجارة ونفت دحانها في تلبد ،
وراح يفكر أرمعون عاماً عاشت مع أم محمود ، يوم أن تزوجها كانت طمعة
في الثأنية عشرة ، لم تحب إلا بعد سنوات طويلة ، جاءته بمحمود ،
وتذكر ولده .

تفصت لاشامة فوق وجهه ، وحلت محلها تكشيرة خفيفة ... لماذا
لا يتدى الولد بالله ؟ ... ماذا يصنع بأمة لومات ؟ ... يدع العصب إلى

- ٦ -

وقف المعلم محمد البطلي في منتصف قاربه ، وأخذ يجول بعينه في أنحاء
المساء . كانت المياه رائقة شفافة ، يمتزج شعاع الشمس أعياقها فكانه
يكشف عن خباياها ... وعن بعد ، تذرث القوارب في كل مكان وهي تهتز
تحت أقدام الرجال وهم يرحلون ويحيون ، بعضهم انحنى يعدل من وضع
حبل ، والبعض يجذب « الهلب » من الأعياق استعداداً للرحيل إلى مكان
آخر ، وآخرون يجذفون في نشاط ، ورجال يطرحون الشباك ورجال يجذبونها
معملة بالأسماك ... وأصواتهم تسبح في سماء المساء منادية أو معية أو
داعية : « يامتولى ياعدوى يابو العباس ! » ، وسفينة هائلة تحتز
باب المياه في صجيج وسطه تاركة وراءها حيلاً عليلاً من الدخان ، وسطحاً
مزيداً من المياه .

وضع رجل عفيرته مناديا المعلم محمد فرد عليه المعجوز بصيحة طويلة
مطوطة ، ثم تبادلا تحية الصباح ، وقال كل منهما للآخر « تزرق » ،
وأستدار المعجوز نحو شبكته ، وأحد يمتحن مكان قطع الرصاص المنتثرة على

لسامه شتائم وسباباً كائليل وبحجب الغلب كل سوء عن ولده ، قلبه لا يطاوعه ، لكن حال الولد لا يسر عدوا ولا حيباً ... ترى ، ابتهدى محمود بالله لو تزوج !؟

برقت العكرة في دمه كرمصة ، واحتجت لحطبات حل رأس المحور حلالها خويها ، بلا أفكر ، ثم ارتدت الى دمه مرة أخرى كمصباح متوهج الضوء ، حقد ... لماذا لا يروح محمود ؟ ... لماذا لا يبحث له عن عروس ؟ ... سيتهدى الولد بعده بالله ولا شك ، ويستقر عندما يجد له مأوى يأوى اليه ، وحصا يقيه برد الشتاء ... كيف غابت تلك العكرة من دهنه طوال هذه المدة ؟

زحفت الابتسامة مرة أخرى فاحتلت الشفتين ، ثم انطلقت لتشم كل تقاطيع الوجه ..

من تصلح للزواج من محمود ؟ ... انها عائشة !

لكن الولد لن يرضى ، طول عمره وهو لا يطيق لها حديثاً أو كلاماً ... لكنها ابنة عمه ، أمة السيد اللطيف ، ادن لابد أن يتزوجها محمود ، فليس لديه أبناء ويقولون لا ، يجب أن يستر عائشة قبل أن يموت ، هذا هو الكلام ... محمود يتزوج عائشة ... ولكن الولد سيفرض ، انه يعرفه جيداً ، وسيغضب هو عليه ... ثم ان عائشة لن تسعد معه . سيكون شجارهما مثار خلاف دائم !!

مضى الوقت وهو سارح .

ألقي بالسبحارة الى المياه وحمل الشبكة على يساره ، وقصت بماء على خيال ، ووقف مستعداً للطرح . وماك بحسده الى اليسار ، وطوح بالشبكة فانشرت في اهواء كطائر حراى مائت أن روح يهوى نحو المياه وصاح المعلم محمد : « يامتوى ؟ » ... وضاضت الشبكة في جوف المياه ،

وسبحت على السطح قطع الفلين محددة اتساعها ، وسرعان ما نشط العجوز ، راح فوق القارب وجاء ، جذب الحبال ثم أرساه ، أمسك بطرف شبكة قديمة ورح بصرف به مسطح المياه حتى يمر اسمك الى الشراك ابدى مصعب له ... وعدد إلى المجذافين وأخذ يضرب بها المياه في نشوة ، وتحرك القارب ساحاً وراء شبكة لا يبين منها سوى علامات تباثرت فوق السطح في دائرة ... وصاح العجوز مرة أخرى : « بابو العباس ! » ، وجاءه صوت رجل يلقي بشكته :

« صباح الخير يا محمد . »

« صباح لور يا حوده . »

« وحده الله . »

« تسروق ! »

« ريث كريم ! »

وتصاعدت الأصوات في سماء المياه كمعادة الرجال كلما ألقى أحدهم شبكة ، ورد المعلم محمد النحية مرات ، وقال ترزق وفي قلبه خفقة . من قال عنه أنه عجوز ، ان الشبكة تنسحب وراءه كأنها لعة صغيرة ، اللهم صل على كامل لور ، عمرته سعادة فائقة ، لا يد أن يروح محمود ، لو كان حنفي معه لامتشاره ، لماذا تأخر حنفي اليوم ؟ ... أليكون قد حدث شيء ؟

توقفت بداه فجأة عن التجديف ، وطاف بصرف في كل اتجاه بحثاً عن قارب أخضر اللون ، لكنه لم يعثر للقارب عن أثر ... أليكون قد خرج الى عرض البحر ، كلا كلا كلا ، أنه لم يفعلها من قبل ، أنه لا يستطيع ذلك ويصدره ما به من أمراض ... غرض العجوز واقفاً وضم كفيه أمام فمه ثم صاح :

« يا حوده » حوده ١١١ »

« ابوه ناد محمد » حير ديوب »

« ماشمش حوده ؟ » حوده ماشمش ؟ »

مال حوده على رجليه وتهاصا برهة صباح بعده :

« لا والله يا باب محمد ماشمشا هوش » استنى له نالوا برعى »

يا مورعى ... بورا عى ! »

« ابوه يا حوده » خادمة ١٢ »

أخذ الرئيس محمد يصمت الى الأصوات وهى تتفاقر من قارب الى قارب « هذا يسأل دالك ، وذلك يسأل لىلى عليه ، والآخر يسأل من بعده .

وأصده لاصوات فصل اليه واصحة ، ثم خافته ، ثم أشدت خفوت حتى أصبحت كشمس الصاوخ ... وطفت المصيحبات والبداءات بالمياه ، ثم عادت تمرب وتعلو حتى وصلت اليه من جديد

ترى ما الذى أصاب حوده ١٢ ، لابد أن هذا هو سبب تأخير حمى ... سيتزوج محمود من روه . كيف عادت رؤية عن ذهنه ؟ !

استقرت الفكرة فى رأسه ولم ترحه ، وضمان نفسه على حوده فلو حدث شيء فوئال بلدها له ... كان الله فى عونه ، خمسة أطفال وزوجة وصدر مريض ، قارب حال بجوار الرصيف وشكة لا تجد من يطرحها ... لابد أن حنفى ذهب للسيد أسدى الباشتمرحى ، رجل طيب وابن حلال ، ليس هناك ما يعبسه سوى عزوبته هو الآخر ... ماذا جرى لرجال هذه الأيام ؟ ، رجل كهد ، طول عمره وسعة برع فيه يعيش وحيداً ، بلا زوجة ولا ولد ؟ ... سيتزوج محمود من زوية ، فكرة لا تقبل اعتراضاً ...

« يا متولى » ، حدث الحس ، ونصب العرق على حبيه النهار أصبح بهاراً ، اسفن رثعة عادية ولشبات تكرر وتلا المياه بالصحيح ، والرق فى لشكة ، والروحة فى البيت ، والإبن فى الحانة .

مضى ليلهار ، وعاد لصيادون بفورهم ، ومالت الشمس نحو لغرب وكادت أن تختفى ، وأقمرت المياه وهذأت فيها ، حركه . ليس سوى قارب شرعى لها ، وقارب هناك وصيحة بطلق « يا متولى » فيها مستجد ، وفيها عاد متعب

وسبحت الشبكة فى الفضاء ثم هوت فى سطح المياه ووردها عيب المعلم محمد لىطى . وكذ قد طرح لشكة وحده عشرات مرات ، وبكب حيث أمه ، لم ترقه إلا بسمكات صغيرة الفها فى قاع قاربه ... وصول يومه وهو يقاوم رعته فى العودة ... يقول لنفسه . « ياواد أرجع وسيب من لعناده » ، ويفسور دمه ، ويعلى فى عروقه العصب ، ويصرخ لشكة من جديد ، وفى كل مرة يحق قلبه ، ويخرج الشبكة حانية ... حتى دب التعب فى جسده ، وتهدجت أنفاسه ، وأصبحت الشبكة وهى ذارعه حملاً ثقيلاً تنوء به ذراعه

جلس يرقب حبله وشبكته وقى رأسه ألف حاطر ... ترى ماذا يقولون عنه لو عاد بلا رزق وقد ظل اليوم بأكمله باحثاً ؟ وماذا يتحدث لرجال لو تحقق ما يقولونه عن عند الموجود حدث وسعيتى اننى توسق منه طس من الأساك ، وشبائك الحديدية ، وشركته بجديدة التى دحس فيها مع الانجليز ... كيف يهاون بقوارهم هورية صبية كاتى يتحدث لرجال عنها عن الرصيف وفى المقهى ؟ ... ما الذى يجشبه هم المستقبل من أحداث ؟ ... الرياح تشد ، وانسحب تتجمع ، والليل يزحم ، ولشمس تختفى ، وانقارب خاد الا من يضع سمكات ، والشبكة فى المياه ... وقلوا أيضاً أن سمينة الصيد الحديدية ستغرق البلاد بالأساك . فإذا سيصمون ؟ ... ومن أين يأكلون ؟ ... لابد أن لفتق قد اتاهم فى الرقاق لعيابه ، وسبأتى الرجل عما قريب ، سيجدوه بلا صيد ولا رزق ،

سيجسرون منه في أعماقهم ... يامتولى ... الشبكة ليست ثقيلة
 المعيط بشبكة ، الضيق يسقط عليه ، أنها ... هارعة ، حتى المياه تنسرب
 منها ... ماذا دهاه ؟ ... غير أن له يعود ، من من الصيادين يقيم حياته
 على ورق يوم ، كم من سنوات كان الورق فيها شحيحاً ، لكنه لن يعود حل
 الوفاص ، سيعود كما يجب أن يعود ... عداد صبيانى ولاشك ، يفكر كما
 يفكر طفل ... ليكن !! سوف يزحف بالغارب قرب باب الميناء ، ويلقى
 بالشبكة عند امتداد مياه البحر إلى ما وراء الأفق ، هناك ينتهي حاجر
 الأمواج ، ويصطحب سطح البحر في مذ وجذر خطرين ، وربما هبت ريح
 قوية ، وبشائره تلفح وجهه ... الزمن يتحده ، والفقر يتحده ،
 والأسماك تعانده ، لكنه سيتحدى الجميع ، يجذب في سرعة فعما قريب
 يحل السطلام ... سطح المياه يربد ويزداد ثورة كلما اقترب من باب
 البوعاز ... لكنه وصل ، فهل يتراجع ؟ ... لماذا لا يوحده الله ويصل على
 السبي ويجري الشيطان ويعود إلى الرصيف وفي العمر متسع ؟ ... حديث
 جباء ، وجن لا يلبق به ... فليتك على الله ويطلع الشبكة ويتنظر رزقه
 في صبر ... ألفى بالحب فعاص جادها حله الطويل في سرعة ، والشبكة
 مهدنة بين دراعيه ، لكنها ستخرج إليه ملأثة منتفضة .

« يا عدوى ... يا أبو العباس ... يامتولى ! »

راقب الشبكة السابحة في الهواء برصاء ، ثم هس : « طرحة معلم
 صبيح يواو ! » ... وسرعان ماذهب الشاطئ في جسده ، وراح وجاء ،
 جذب حبلا ، وعقد آخر ، وحذف في قوة ، وقراءة ، ثم ابتهل إلى الله
 متوسلا بالأنبياء والأولياء ، وواجه الغارب امتداد البحر بعيداً عن حاجر
 الأمواج ، وتلاعبت الأمواج به فأخذ يتراجع يمسة ومسة ، ورد على الدنيا
 هذوه عميق ، وجاءته الأصوات من بعيد هامة ، تودع اليوم وتستكين في

قلب الدنيا وتجمع بعد طول صبيح ... بدا له السكون مقصداً نقطعه
 هبات الأمواج ومهبها وقد أحدث تعمق لحظة بعد أخرى غثطلة بصغير
 الريح انشأ أحدث تشدد ... وحس المعجور على خافة الغارب ، ظهره إلى
 الشمال ، ووجهه إلى حيث يرقب الشاطئ ، عن بعد وقد تسانرت فوقه
 لا نور ... وعرق في السكون تماماً ، لكنه انتص هبأة عن صوت حاد
 ثاقب طعنه من الخلف ، وثقب أذنيه في قسوة واندفع نحو انقلاب تماماً ،
 فارتجف ، وارتجفت كل حلية في جسده وهو يستدير فرعاً نحو باب البوعاز
 ليرى سفينة هائلة - كأنها جبل - تنهادر في شحوب الغروب تشق مقدمتها
 مياه البحر في هذه وثقة قاس المسافة بعينه ، وأيقن من وقوع انكسار ،
 تنصبت كالملذوع وصعدت السعة لثاقبة تحرق أذنيه من جديد ، ظل جامداً
 حائر لا يتحرك . أين ذهب حذره ويقطته ؟ ... كيف باعته تلك
 السفينة ؟ مقدمتها تنح نحو الدحل ملا توقف ، والشبكة في الطريق ،
 الكابشة ! ستمرق لشبكة لم يره أحد من رجال السفينة والا
 لهذا سرعتها ، تشق المياه في قوة ، ويقترب جدارها لصد الأصم من
 قربه ، هائلاً عالياً ، هذا هو بجواره كالبرعوث يتقافز هناك وهناك تحت قدمي
 عملاق .

اندفع بلا تردد يجذب حبال الشبكة ... لكنها ، لكنها ثقيلة ... لا بد
 أنها مليئة ... يا مرسى ... وأخذ يلهث ، أنفاسه تنقطع ، والريح تمهب
 عيه وتدفع الغارب فيترجش بشدة ، لكن يديه ماتتا على حبال الشبكة فدار
 الغارب حول مركز سحب الرق في قاع المياه ، السفينة تقترب ، والشبكة
 تصعد ، وجزء صغير يظهر وأسماك ... أسماك تنفجر منها وبها ... أما
 مليئة ... طن من الأسماك : « يامتولى ... يأم العواجز ... يامتولى ...
 يا عدوى ! » ، لكنهم موتى ، ماتوا كما مات السيد لبلطى ، صدرت السفينة
 تنطلق كالرئيس مرة أخرى ، الدنيا طلام ولن يره القبطان ، هل يترك لشبكة

« أبوك محمد البلطى ياسى السيد ! »

وصاح السيد أهدى فى جرع

« ماله . . حصل ايه ؟ »

« يقولوا الريح . . . »

واختنق صوت الرجل ، وأحبست الكلمات فى حلقة ، وعاد السيد أهدى
الى الصباح :

« خبر امود . . . قول حصل ايه يا جدد ؟ »

أشاح الأسطى عبد المولى بيده ، وأوما نحو لطريق الى المياه . . . وكأنها
كانت حركته تلك إشارة بدء انطلاق السيد أهدى معنفاً يعدو مهزولاً ، فقطع
الحجارة فى خطوات ، ثم أشى الى اليسار مختزلاً زقزقة ضيقاً انتهى به الى شارع
وكالة الليمون ، ودار لى اليمين ، وراح يجرى بكل ما فى ساقيه من سرعة .

أمام باب الرصيف ، كانت النساء - من البلطية وغير البلطية - قد
احتشدن مولولات نالحات . . . روبة عتصرها آخرون فكلمات على الخائط
وهى تسكى فى حرقه ، وعائشة تجلس على الأرض وقد أحدث أمها بين
ذراعيهما ، بسيا راحت أم حنفي تصرخ بين الحين والآخر بصوت مبحوح .
« يا زاجلى » ، هى اجناس الآخر تكومت أم محمود - زوجة المعلم محمد -
بجوار الباب داهنة عن كل ماحوها ، وقد أسدت رأسها إلى كعها وعقرت
فى صمت ذاهل ، وبين العينة والفنية ، كانت تطلق صرخة ملتاعة تترع
الصوات من حلق السرة ، والدلع من عيون . . . وبدت مفهى سلومة
- على ما اشتهرت به من زحام - خالية من الرجال تقريباً ، وقد تناثر من بقى

- ٧ -

أندفع السيد أهدى الماشتمرجى من حارة أبو السعود بجلبابه
المصفصاف ، وجاكتته الحائلة اللون ، وقد أرغى طربوشه الى الوراء فى
سعادة ، ودار الى اليمين دورة سريعة ، وخط فى الرزاق خطوات ، ثم توقف
سهوياً . . . أحد يحول بعينه فى المكان وقد انتابت حيرة ودهشة . . . كان
الرزاق - على غير العادة - قفراً يسوده الظلام ، لاضواء ولا بصيص من
الضوء ، لا أفعال يلعبون ولا نسوة يثرثرن . . . أخرج ساعته من جيب
جلبابه الصغير ، وراح يحدق فيها وعلامات الدهشة تتزايد على تقطيعه
لحظة بعد أخرى . . . وما لبث أن دس ساعته فى جيبه ، واستدار مسرعاً نحو
الأسطى عبد المولى الحلاق فى دكانه احدى يوجه الرزاق . رفع له يده
بانتحية دون أن يمس بكلمة ، وتلاعب نسانه فى فمه دون أن يطق
بحرف . . . ونظر اليه الأسطى عبد المولى بعينين ساهمتين ، ثم هز رأسه
وقال فى صوت خزين :

عن الرصيف منهم في كل مكان . . . البعض يتكهن بفرق المعلم محمد ،
والبعض مؤس أشد لإيكان بأنه لن يموت ، فهو ريس اللطية ، ولبلطية
لا يظهروهم بحر . . . وبدا الرصيف - فيها وره الباب - خائلاً إلا من جندى
استند إلى أحد الأعمدة وأخذ يجمنق في الظلام وقد تباثرت فيه أضواء
الكلوبات والقوارب التي راحت تبحث عن المعلم محمد .

ولأفكار تدور في كل الرؤوس كأنها سح مكررة لمحيرة وخوف وانقلق
التي سيطرت على النفوس والمغول جميعاً

لم يعد المعلم محمد البطل منذ حرح في الصباح وحده !

طلته زوجته في المقهى كعادته كل ليلة ، وظنه حتى في البيت وكان قد
عاد الرقاق قبل العصر ليزور حمودة ، وطن الرجال أن العجوز قد عاد قبلهم
وسبقهم إلى الخلفة وبيع روقه . . . ومصت بعد الغروب ساعة ، وساعتين ،
وأدنت العشاء في زاوية جميع ، وفي جامع الموسى أبو العباس ، وأرداد هبوب
الرياح ، وشعر حمى بالثلل والضيق يتسريان إلى نفسه ويسدان عليه كل
معد للسلوى ، فعادر المقهى وهو حائر بين طريقين . . . أما أن يذهب إلى
المصحاب ، أو يذهب إلى الرقاق . . . جلسة الصحاب في البوطة تعرج الهم
وتجعل للألم سخاً ليدبا ، قرعة أو قرعتان في بوجه شلوفة ، وحذر عمله عن
جساحيه إلى أرض أحلام بعيدة الحال . . . لكن أحلامه - على شدة تعلقه بها
- بدت له في تلك الليلة شاحنة لزجة تبعث في نفسه التهور والتفرق !
فاستسلم لصيقه وأتجه إلى الرقاق

ما كاد يحطو إلى الرقاق حصوة ، حتى طابعه صوت أم محمود تسأله عن
عمه ، فتوقف وقد لدجأه الأمر . . . سنوت طويلة مصت ، إذ أراد فيها
أحد المعلم محمد البطل بعد الغروب ، فهو في أحد مكانين ، المهر أو

الرفاق . . . وكان حنفي في المقهى منذ دقائق ، وليس المعلم محمد في
الرفاق !

« هو مارجش يحالتي ؟ ! »

« لا والبي يابى من صحبة ربا ! »

اندفعت الريح من أعلى لوراق في صفوف لف حمى وأسلمه نقشيرية
ارتجف لها ارتجافاً شديداً ، لكنه سرعان ما استدار عائداً وقد استبد به
القلق .

وعصف لفتق بالبقية الباقية من هدوئه ، وراح يتشمم محدثاً نفسه وهو
بسب الحياة ويدعها . . . كان مرض حمودة ، وما سمعه من السيد أمدى ،
قد أمداه بحصبة من التشاؤم تكفيه عاماً بطوله ، عندما عاد إلى الرصيف
في انصحن وقالوا له أن عمه قد حرح وحده ، انقص منه وعرف عن الالحاق
به ، وراح طول يومه يتسكع ملولاً بين المقهى والرصيف ، حتى ارتفعت
الشمس في منتصف الساء مذهب إلى البيت وتناول غداً ، ثم عاد إلى
حمودة ليجده عائداً عن لوى ، تجمع حوله لأطباء والممرضات ومعه من
الاقتراب منه . . . ولم يجد السيد أمدى .

إلى متى تظل الكتابة هي سعادة حياته ؟ ، أين ذهب عمه ؟ لأن ؟
أبكون قد حدث له شيء ؟ !

ولاحت لحفى أنوار المقهى .

دقائق قليلة هي التي مضت حتى تجمع الرجال فوق الرصيف ، وراحوا
حلون قواربهم ، ويفسزون فيها ، ويسلقون صوابيا العالية . . . وغمر
نكبان بعد لحظات صوة عشرات الكلوبات والمصبيح التي حملوها من
الخارج . . . فما كاد حنفي يسأل الرجال عن عمه ، حتى قال رجل :

لا يسمع هماً ولا نطباق . . . وكست عيناه طرفة ندية من لصباب ، وصعفت
 حمقات قلبه وتباعذت ، وارتعد فكه . . . وراى من حوله الصمت ، ومع
 الصمت تسربت الى نفسه وحشة ويأس . . . رحرحة قدم فوق أحجار رلقة
 قد نؤدى به الى الأعماق ، ركود يصيب همه ، وهوود يحط عن أحاسيسه ،
 فلا خوف ولا جزع ، لا برودة ولا دفء . . . أحس كأنه معلق فى الفضاء ،
 لا حول ولا طور ، نسى القارب ، ونسى محمود ، ونسى حمى
 والرجال . . . لطبيعة من حوله فى موات ، الحياة بعيدة بعيدة ، وراء ضباب
 كأنها حلم ، فليمت ادن فى هدوء !



وسواء طال به الزمن أم قصر ، فقد مضى . . . وذبت الحياة فى الدنيا من
 جديد ، وغمرت أضواء الكلوينات سطح المياه . وترامت اليه أصوات الرجال
 وسدائهم ، فطل ساكن كأنه لا يسمع ولا يرى ولا يعيش . . . واقتربت
 القوارب أكثر ، وتالت لأصوات مبادية ، وتساءل للعجوز عن سبب سكوبه
 وسكونه . . . أليكون قد مات حقاً ؟! . . . القوارب تسبح فى كل مكان ،
 بعضها يشرق ، والبعض يغرب ، وأحرى تطير اليه ، والصباحات تعلو وتعلو
 فلا تهرى جسيده شجرة . . . ونعت من قلب الظلام الصم صوت رنجف
 له قلبه ، ووقف له شعر رأسه

بابا . . . يا بابا

محمود

نشط عقله كأنها نخسته عصا سحرية ، فانطلق يفكر فى سرعة . . . هن
 يستطيع أن يجيب ؟!

يا بابا

« أتى شعثه فى المعربة عند باب البوعاز ! ! »

« باب البوعاز يا جسدع ؟ ! »

« باب البوعاز وحياة النسي ، حتى أتى صدمت عليه ماروش السلام ! »
 وبحثوا عن القارب ولم يجدوه !

وكان فى هذا الكهامة . . . كلمات قليلة بدولت ، تحرك بعدها كل شيء
 فى سرعة وضمان !
 ووصل الخبر الى رفاق لسيد البلطى . . . وقبل أن يصل فى الرفاق ،
 تسرب مع أهواه الى كل بيت فى الحى !



كان المعلم محمد قد استكان فى مكانه منذ أن وجد له مأمراً بين
 الصحور . . . استطالت ذراعاه حتى استطاع التشبث بقمة صحرة ،
 ويحث فوحده لقدمه مكاناً عالياً صعد اليه صعداً عن سطح المياه المتلاعب ،
 ثم وقع مكشئاً عن عهده

وسرت به الدقائق الأولى كأنها أعوام طويلة ، وبعبط الظلام على الدنيا
 فكساها بردائه الأسود . . . ودار الفسار بضوئه الوهاج ماداً شريطه المصى لى
 عشرات الأميال كذراع مصيبة تفرق ستر الظلام التى دعت البحر فى أعوارها
 المخيمية ، ومن بعد ، كانت أسوار المدينة تتلألأ متباعدة كحبات من لؤلؤ
 وص . . . والأمواج ترتفع حين وتصرب الصخر بقممها فيصلى رذاذها الى
 قدمى العجوز ، فتسرى فى جسده زعدة ، وتطلق من صدره سيلة ، بينما
 انعقدت ذراعاه فوق صدره ، وجمد . . . وصلت عياده ترقبان كل شيء .

ومرت ساعة ، أحس بعدها كأنه بلا ساقين ، ثم تسرب اليه حشر مؤلم
 حمد كل أعصائه ، حتى شغفيه ، خيل اليه أنها تضخمنا وأصبحتنا فى حجم

هل مسجده صوته ؟

« يا بويسا ... يا ابا »

« محمودة محمد مورو محمود وود »

أهو الذي ينادى أم أنسا آخر سواء ؟ ... تحركت ذراعاه دون أن يدري ، وحنته ساقاه المتجمدتان رغم ارتجافيه ، ورعده جس قلبه فتندفع منه الدماء راكضة كالذهب في عروقه .

« بابا محمد ! »

« أبوه أأه هوو يولاد ! »

« يا معلم محمد بصلص ! »

« بويه يارعي ... يا حاج ... أنا هانا ! »

وتجمعت الأنوار ، وندت له أشباح القلاع وهي تصفق في الهواء كأنها طيور نورس خرافية ... وطفح الدمع من عينيه ، وراح يتسائل وهو يرتجف ... هل قدرت له الحياة مرة أخرى ؟ ... أي يوم هذا السدى مصى ؟! ... الرزق جافه ، والقارب مقنوب ، والشبكة محرقة ، والموت كان قريباً ، والفرح يصمره بالرغم من كل هذا فالحياة حلوة ، انصحوه ليست ملساء كما ظن ، هناك أماكن خلسة اعتمدت عليها كماء الآن ، ساقاه تحشت ، الأنور تتجمع وتتلاصق تصنع كتنة من انصبه فكان الذبي في فرح ، صوته يطنق راعدا ، وصوت يصرخ :

« أبويا أه ... جاي لك بابا ... جاي لك ! »

إنه محمود !

ما أحل صوت ولده ، جسده يهوى الى المياه ، وجسده آخر ، لا بد أنه حنفي ... لا بد !

« حنفي مكنتك بابا ، جيب ليك يا بوي ! »

« موحى يبيسدري »

« حاسب يا احمد وولع لسر »

« شد البزومة يسيدهم ، لم لقعع يا جندع »

« حضرت البطلان يا رومة ؟ . جهر بعست أول ما يطلع ! »

أدفع قوة تضرب المياه في مقبرة ، عشرات الرجال خرجوا من أجبه ، ومصاييح كثيرة ، عشرة ، عشرون ، ثلاثون ... أكثر ، أكثر بكثير ... وصدايح يحجب عنه لرؤية ، دموع تسبح من عينيه . وصوت محمود يناديه يردد عليه مرتجفا :

« أنا ها يا بوي ... أنا بحير ! »

ورجل يصيح من بعيد ... وحدو القارب !

وصل حنفي الى الصحور ... وجهه يطلو عليه من أسفل ، وكأنه انسيد البلطي يجرح اليه من أعماق المياه لينقذه ، ومحمود بجواره ، أدفعها مقتولة تحمله في قوة ويسر ، والليل أصبح سارا .

« سلامتك بابا ... سلامتك ! »

« أنا بحير ياود ، جد قلت ... لضرب اقلب به ، الشبكة راحت ،

كان فيها كثير ، كانت واسقة طن ياود ، خدتني دركب غدر ! »

« فذاك بابا ... هكذا ! »

قالاه - حنفي ومحمود - في نفس واحد ، قبه يضطرب في صدره كحجارة مذبوحة ... برعى يمد له ذرعه من القارب ، عشرات الأصوات تسلم وتنادي وتساو عن حاله .

« آبي بحير يا يولاد ... الله يسلمكم تقول ايه يسيدهم ؟ ... »

البرد جماد ؟ ... لا أبداً ... أنى كنت مولع ناد يابن القرموط وينشوى
سمك !

ضحكات ؟ ... ما أحلى الضحكات ، يعلمون عنه ملايسه ، ويدلكون
له ساقيه وقدميه وجسده ، يذثرونه بالبطاطين ويقربونه من النار ، محمود
يقرب منه وينحى أمامه ، تقطر المياه من وجهه وشعره وجسده ، ويكيى !!

« بتعيط ليه يواو . انت صغير ؟ »

« انت بحير يايا ؟ »

« بحمدوه على كل حاجة ، بخير ... بحير والحمد لله ! »

— ٨ —

قبح محمود في منتصف القارب بعد أن ارتدى ملايسه ، وحمل بين كفيه
كوب الشاي الذي قدموه له ، وأخذ يرشقه منه على مهل ، وعباء لا تفارق
وجه أبيه .

من كان يصدق هذا ؟ ... كيف كان يعيش أيامه خاضية ؟ ... هل
يحب أمه حقاً كل هذا الحب ؟ ... بدت له لحظة في لحظة بوجه جديد
وعريب أحد يحملق فيه كالمدهول ... كان يرتعد وهو يرشقه الشاي عارفاً
في الصلحة التي أقامها الرجال من حوله ، في الصباح واللكات والأعاصي التي
أحدثت تسبح في سماء المياه في ذلك الليل البهيم ... الأضواء الماثرة
واشاح لفوارب ولرجال ، كان هذا يهره راء عبقاً ويسعث في جسده قشعريرة
ارتعدت لها أوصاله ... لكنه حزين ، وحرته عميق يكاد يسحق روحه .

في لحظة ، خيل ليه أن أباه قد مات ، كانت لحظة تساوى لعمر كله ،
صرخ فيه أحدهم وهو جالس وسط الرقاق عارق فيما يفرق فيه كل ليلة :

وكأنه عاب مئات السنين ، لم يكن صغراً طويلاً ، كانت ساعات مرت
كالمدهور ، احك عما كد في الشبكة من رزق آخر مرة ، ولكن ... قل أن
تحكى مل برأسك قليلاً ، وارشف من لشاي الساح ، وجذب من
السيجارة بعضاً ، وتعمد ، وأسعل . فلاند أنك مريض . أسعل
ياحجوز أنها سبعون عاماً .

« أبوك يا محمود ! » ... عالم غريب مبهج يجذبه اليه فينساقي دون وعي وراء ليل يفوقه من أعماقه ... ماذا يريد ؟ ... لا يدري ، يروح ويحيى ويقول لشعر ويمسي بالمواويل ويضطرب الصحاب ويعيش الحياة بكل قلبه ، يقولون عنه في المرافق أنه عرييد وهو قول لا يميمه ، فهو ليس في واقع الأمر عرييداً ولا حشاشاً ، كل ما هالك أنه حزين . حزنه غريب لا يدري منه ولا معنه ولا مسببه ، شيء كانشياء الناهر يدوح له في ظلام الحياة فيجذب اليه مفهوماً معنويّاً عن أسرته ، الصيد مهنة شريفة والصيداؤون أعظم الناس وأكرمهم وأحبهم لقلبه ، لكنه ليس مثلهم ، وأأسفه ، لشعر الذي يقوله لا يدري متى تعلمته ولا كيف نطق به ، وتعلم مراحل في أعماقه ، شجار والده بحر في نفسه كما تحز المسكين رقية شاة تذبح ، يشعر دائماً أن أباه وراءه ، حائط قوي يستند إليه إذا أصابه الدوار ، وجهه العريض وألمه الكبير وصوته الأجنش أحسن ما رأى وما سمع في حياته ، حبه لأبيه لم يكن يوماً موضع نقاش بينه وبين نفسه ... لكنه الدلية يحسه بشكل آخر ، أعمق وأشد وأعنف وكأنه عرام !!! ... أيموت هذا الرجل ؟ ... أبقى ذلك اللوحة الهائل الذي بجلا حياته ؟ ... أتمتد تلك الخبوة التي لم تؤثر فيها سبعين عاماً ؟ ... أيلعب كل هذا ويبقى وحيداً ، بلا أب ، وسط هذه الدنيا العربية عليه ؟ ..

عندما أحسره زكريا أبو ذراع بما حدث من أنه يهون الأمر عليه حتى لا تأجله الصدمة ، كان في بوسطة شلوقة عندما اندفع زكريا من الباب صارخاً :

« أبوك يا محمود ! »

« خير ... ماله ١٩ »

قلها في جرح وكل جسده يتقلص ويضطرب .

« خرج من الصبح ومش لا فيه ! »

حمد كما حمد الصحاب ورائ السكون للحظات ، واعتصرت نفسه آلام رهبة ، ثم خرج صوته مبوحاً :

« قول يا زكريا قول ... أبويا جرى له حاجة ؟ ! »

« أيدا والله ، بس لسة مارجعش ! »

« الريح جامد والليل متأخر ، قول »

« يا جدد ننت صغير ، والله ما نعرف »

كان غدراً من هول الخوف عندما همس مدهولاً :

« أبويا مات ١٩ »

وعلت النصيحات من حوله :

« يا شبيب وحده لله ، هال الله ولا هالك ، عيب يا جدد كدة ! »

وتدفع الى الخارج كأنه يهرب من سياط تذهب كيانه ، شعوع تصعد الى عينيه فيكنموه في صدره لتنفور وتعلو وتعلبه أشد العذاب ... ما أقسى أن يموت الأب ويتركنا وحيد حتى ولو كرجالا بالغين ... اندفع كندحوص وعبر لشوارع والحدود ولحق بالرجل وقمر الى قارب واسطلق يبحث بعيني لاتريان ! ... الريح تملح وحسه الملتهب بالدماء ، ولظلام كثيف ، والدنيا فارقة ، عدم ، ليس بها أحد ... أكان ولده كل أحد بالنسبة اليه ؟ لماذا نموت ١٩ ، لماذا ؟ .

لحظات مرت عليه كان يقاوم فيها دمعه العرير ، حتى حين اليه أن رقبته تنتفخ وتوشك على الانعجار ... وتوسط القارب المياه ، وتنادى رجس :

« يا بابا محمود ... »

فتبعه محمود صائحاً بكل ما في حلقه من قوة :

قطعت في العاشرة ... عندما جئتك وعدت بك إلى القارب وجلست أمامك ، سألتني عن سبب بكائي ، وبهرتني يا أبي ، بكى أسعدت الكاهن الأب ... حين في أبي أديتك ، لن أنقص لك أمراً ، صدقني بهذه حرة مرة ، لن أذهب هنا أو هناك ، لن أعود الرقاق ، لا لرصيف ولن أتترك لرصيف ، لا للحقيقة ... تفرحني ضحكك وتهز قنبي بالسعادة ... تمام كما أهتز يوم رأيت كاهنهم .

أنت لا تعرف كاهنهم يا أبي ، لكنها تعيش في دمي ... يحق لي أن أفكر فيها فأبي هي وحن في فرح ... موسى هي ، أعلم ذلك ، لكنها قطعة من قلبي ، محترق بحبها ... لأطابق في مقاومة ما أحسه بجوها ... تمسكوسى يارجل على حبها وأنا أكثركم تماسة ، ذقت أحضانكم الواحد بعد الآخر ، وتعتز أمامكم فرداً فرداً ، ورقصت لكم رقصة الحيلة عشرات المرات ، لماذا تمسوها رقصة العرش يارجل ؟ ... والله أنكم لعاديون عني في الذنب من حقائق ، انها مثل يارجل ، قالت لي ذلك في تلك الليلة . عندما أعلق عليها ، لناب كنت سكران ، نظرت في عينيها وارتقت بطرائي عن جديها وملت عن صدرها فارتجفت قلبي ، صحتت من ليلها وسألتني ان كنت رجلاً !! ، لم أود عليها فسدني كان مثلاً ، جلست بجوري أنا الذي كنت أدرب لمس عيني جسدك ، واحتضنتي وسألتني ماذا أقول لشعر ، وكيف أقوله ، فسألتها : لماذا ترقصين في مواخير والحانات ؟ فصحتت من وهي تنهد ملقية بجسدها على العرش بجوري ، قالت لي مالا تعرفونه يارجل !

« أن كده » انحلفت كده ، أحب الرقص والرجاله ! »

ولوحني : نفسه يصرخ باسم أبيه ، كان البدء أبعد المعاني عما نطق به ، كان نوحاً اندفع بعده المدح فغطى وجنتيه وعمرها ، واقترت منه حنفي ووضع يده على كتفه ومضى بصوت ثاقب هادي .

« جرى ايه يا عمود ، احنا عيال ؟ »

حنفي لا يتحدث إلا باسم جميع ، لم يسمعه مرة يقول فيها : أنا ، طمناً تسأل عن سبب الاختلاف بينها ، لقد أحب حنفي وأحب بكل قلبه الجلوس معه والتحدث إليه . لكنه كان كالآخرين لا يفهمه . وشيخ الآخرين أموه !!

شبههم وكبرهم ورعيتهم ! . . . لكن فيكمه من لدنيا أنه عاد في الحياه ... عدت يا أبي إلى الحيلة وسأضجع لأرادتك ، سأخرج في الصيد ، الصباح وأعود به إلى الخلقة وأبيع وأشتري وأهجر الشعر ولونغير والعز ... لم تذهب اليه يا أبي لأنني حشاش أوسكير ، بل لأن الحشاشين والسكارى هم الذين يفهموني ويقبلون على بضعتي ، والله كنت صادقاً كلما عدت اليك تائباً ... لم أحدهك أبداً ، نفسي مجرقة وروحي نائمة ، أبحث عن نفسي كاضال في أعماق محيط بلا دفع ... من أنا يا أبي ؟ لو أدخلتني المدرسة لتعلمت وبحس وعرفت من أنا ؟ . . . فكري بخيفتي يا أبي ، أحب اللذة ، ولذتي القصوى أن أقول الشعر ، لكنني سأطلقه من أجل عيني . . . سأطلق لشعر وأتزوج الصيد ، سأقر بنفس عيني ، وسأكون طوع بذاك ... حزني شديد شديد يعتصر قلبي ، تقولون عني أبي فعل كبير ، فلماذا لم أكن رجلاً مثل حنفي ؟ ... لماذا ؟ . . . أنا لا أفر منه ولكنني أحسده ... حنفي يتصرف كرجل في السبعين ، وأنا أصبت

صعقتني كلماتها فازتيكت ، لكها عادت فبهت قائمة على كوعها
ووصعت رأسها بين كفيها وسلطت على عيبيها ، كانت الحجر دافئة ،
والعراش ساخناً ، وثوبها محسراً عن فخذها ، وقالت بصوت مبجوح
« ألبست الى تقول لك انها عاوزه تاكل عيش كداب ، والى تقول لك انها
بتجرى على عيال كداب ... الى تقول لك ايش بالذى كداب ! »

ثم اعتدلت في الفراش وتهدل شعرها ، وارتفع صدرها في انفعال وهبط ،
وانحمر الثوب عن كتفيها ، وصوت الى نظرتها وفالت :

« احسا كده ياعمود ، صنف مدعى عليه ، هربت من أبويها وصراته
واشتعلت خدامه وغسالة وعرفت رجاله عدد شعر راسك ، فيهم الوحش
وفيهم الأوحش ، فيهم الوسخ وفيهم لاكثر منه ، وكلهم أصناف تدوخ
الراس ! »

« وأنا ... من أى صنف !؟ »

« انت غداك ياعمود زى حالانى ، حتى ابن عمك يبعى يشر له
فرعتين ويضحك ضحكة ويقول عن ادبكم ، هوته شوية أيام ، ولو طلب
منى الفرق كنته بقيت خدامته ، لكن حتى مش زيك وانت مش زيه ! »
« مين أحسن !؟ »

فلتها يارجل بلا وعى ودون قصد ، نظرت الى كايدهم وكأنها تريد ان
تعربى وتعتب بها فى أمهاتى ، ثم صحت وهى تتمتع فى الفراش فى دلال
وقالت :

« أنت بتغير مه !؟ »

ولم أرد عليها ، أحسنت كأنها تصفصى ، لكها عادت ففالت فى صوت
حسون ... يكم كان جيلاً صوتها يارجل :

« الى زيك ما يعرفش العبرة ، قلبك زى اللبن الحليب ، لكن عصب
عك ، أنا عازفة أنك معذور ، عازفة كدة كويس ، أب الى أحت متجورة
واحد موطف ، موطف فى البلدية ياعمود ، حورها كان حابطلقها بعد أما
ماطعشت ، كانت زى حنفي ثام ، الدنيا فى عيب بيت ورجل ولقمة
ميش ، الدنيا فى عيني رقص وعما وألف رجل وكاس ! »

ليتها بكت على كفى ، مسحت دموعها فوق حدها ولم أقلها ، خفت
عل وجنتها من شفتى الباردتين ، ارتجعت يومها كأي مصاب بالحمى ،
وامت فى حصنى حتى الصباح ، وحكم على وعليها ألا تذوق طعم الحب ،

« أنت زى أخويا ياعمود ، عمرك ما حليتنى أحسن منك رجل زى بقية
الرجالة ، كنت داتياً حين وقريب منى ، زى أخويا ، أبوي ! »
ولم تكن تدري أن قلبى يحنق !

وفى الصباح كنت أستم لها ، وكان قلبى يقطر دما نصرخ قطراته فى
عروقى : « أحبك ياأنايدهم ... أحبك ... لكننى لم أقلها يارجل ،
فلمست فى نظرها رجلاً كالرجل ... مضيت عب وكأى كنت فى حلم ،
وكبكت ... بكيت وحدى كثير ... »

وفى مساء جلست وسطكم وأنتم تترنحون وتضحكون ، وتلاعبت أصابع
رين على رقوب زمرة ، وتلوى جسد كايدهم فى رقصة أدهمتكم ، لكنى
كنت أودها كي لا تروى ، رأيتها ترقص من ألم دفين يبعث فى النفس والحسد
أعظم لمة ، نفس الألم لدى رقص له لسان فاطلق شعراً غيت لكم :

ياعنى دمعت ضائى من البك والدموع
ما أنت الى كنت السبب ، ليه نظرتك بتروح
لل عشقتة وحل القلب بت مجروح

على مهلك يا أباي ، هذا هو الرصيف ، الحمد لله على سلامتك ، أمي
ترعرد والنساء يا أباي ، يدك لأقبلها مرة أخرى ، سأطيع بعد اليوم كل
وعيك ، سأطلق حياتي رغماً عني فلا أمل لك سوى الأسف
تري ... هل ستذكرني كأيديهم ؟!

— ٩ —

كان المعلم محمد يقفل آخر منزل على اليسار عند طرف الرفاق المسدود ،
وكان بيته - كبقية بيوت الرفاق - قديماً ، ذو فناء واسع يمتد في رحابه وراء
للدخل مباشرة ، تقوم على جانبيه حجرات ضيقة ، تفصل بينها أبواب هي
أقرب لمسائر الرقبة ، لا تكاد تحصى شيئاً أو تحجب صوتاً لكثرة ما بها من
ثقوب وشقوق ، أو تفصل بينها حيطان حرة متناكدة سرت رطوبة لأرض في
أسفلها ، وبعثت على سطحها في بقع كثيفة تصدم العين وتضج طارداً سامساً
للمحجرة ذات الأرض العارية من لبلاط أو الخشب ... وإذا وجدت
حصيرة تعطي سواد الأرض ولزوجتها ، فهي عمرة متناكدة الأطراف معبئة
بالتفويج وفي ركن الماء الأبيض تقوم دورة المياه والحمام ، أما المنطق
فليس له وجود في الرفاق كله ، ذلك أن من عادة ساء البيطية أن يطهروا
الطعام أمام أبواب المحلات وفي أوقات العروب ، لتخرج كل امرأة إلى
عنة حجرتها ، أمامها وعاء فوق موقد تحتلط صجته بضجيج الموقد
الأخرى ، بأصوات النسوة في ثروتهن ... بصراخ الأطفال البلاعين في

الرقاق ، أو بكده آخرين يحبون فوق الأرض ويتمرغون في التراب .
وتنتشر - في ذلك الوقت من اليوم - رائحة الطعام المطبوخ ، وتمتلئ الأقبية
بالمحار الدافئ .

وفي المصدر - أمام المدخل مباشرة - يقوم سلم صيق مظلم حادث الطلام
إلى أشد أوقات النهار نوراً ، يميل إلى الصاعد عليه - إن كان عربياً - أنه
سرداب يؤدي إلى مقبرة معتمة ، ويخرج السلم يساراً في دورتين ، ويصل إلى
لطاقب الأول الذي يبدو دائماً - في كل الليوت - أكثر اتساعاً من سابقه ،
يلس ثوب القمدم رغم المحاولات العديدة التي تبذل في تجديد كدهال
حوائله أو وصف أرضيته بالبلاط .

وقد مرت سبع ليال لم يبارح فيها المعلم محمد فراش المرض ، كان قد
أصيب بنزلة شعبية حادة ، لم يستطع في السيد أهدي الباشمرجي ولا مرانته
أن يعا أمامه ، فاستدعى طبيباً من المستشفى راعياً له أن المعلم محمد زوج
حائته . . . وقد كابر السيد أهدي في البداية أمام نفسه ، ويدل أقصى ما
أستطاع من جهد - صنامته أن حضور الطبيب إلى الزقاق أمر سيكلفه من
كرامته دلاً يفتق ، لكنه أمام تداعي صحة المحور وتدهوره ، لم يجد مفر
من استدعاء الطبيب - وعن سكن ما كان يسطر ، رفع هذا من قدره أمام
أهل الرقاق ، وخاصة السيد النواتي أخدال يتهاوس - عن مسجع - عن
مركزه في المستشفى ، وكلمته التي لا يستطيع طبيب أن يرددها . . . وكان
لا بد أن يثلج هذا السيد صدره ، ويريد من زهو وتقديره لنفسه ، فكثرت على
لسانه أساء الأذوية العاصمة ، وقصص بطولاته وصبريته وانقاده لأرواح
الكثيرين . . . وإن كان هذا كله - يوم أن جاء الطبيب - حينها كاملاً أجنبي
به بعض الأدوية ، مما ترك في نفسه صيقاً شديداً ، إلا أن صيقه هذا سرعان
ما تبخر وزال مع ما جد من أحداث قلقت حياته الساكنة رأساً على عقب !

كان حمودة قد عادر المستشفى بعد أن مكث فيها يومين . . . وقد أضافت
عودة حمودة للرقاق لمسؤوليات السيد أهدي مسؤوليات جديدة . . . فشط
شباطاً منحوطاً ، ولم يتوان عن زيارة الرقاق كلها وبعد لديه وقتاً يسمح له
بالدهاب ، وكانت زياراته المسائية تمتد في ما بعد منتصف الليل ، حيث
يلتف الرجال حول فراش المعلم محمد ، تتوسطهم بحجرة تصاعد من السفة
حامية من طب يعث الدفء في الأجساد . . . وتعدو الأحاديث وتكثر
الحكايات وتدور أكوام الشاي مراراً ومرات ، ويعبء جو الحجرة دحان
الحوزة التي لا تكف عن الكركرة ، ينف الجميع في علاله برون الحياة من
حلالها ذات لون بهيج ، وطعم الد مذاقاً .

وبقدر حب السيد أهدي لهذه السهرات وفرحتها بها ، لما كان يوليه إياه
لرجال من عناية خاصة فرضتها شهامته وتعاونه ، إلا أن غطته كانت أشد
له أصاب أم حنفي في تلك الأيام من ضعف شديد ألزمها الفراش ، وما كان
يتبعه له مرصها من محادثة عائشة حديثاً ملتوياً تحمل كلماته معاني كثيرة ،
بدل جهداً كبيراً حتى أستطاع أن يفهمها منه المعنى الذي يقصده .

ولشريب . . . الصريب الذي حصل قسه برقص فرحاً ، أن عائشة
استجابت لعزله . . . وكانت استجابتها ممتعة ملتوية تحمل - هي الأخرى
- أكثر من معنى ، مما دفعه لأن يأخذ دائماً جانب الحذر الشديد حتى لا يجدث
ما يمكن أن يعكر صفو سعادته



كان لسيد أهدي أشد الناس سعادة وهو يذلف - في الليلة السابعة - إلى
بيت لمعلم محمد . . . فقطع العناء في خطوتين - وكان العناء حالياً - ووصفت
أصوات لرجال من الدور الأعلى إلى أذبه عندما امتدت قدمه إلى السلم

خطم يتحسس درجاته ، وصعد درجة ، ودرجتين ، ودار مع ستدارة السد
عندما احترقت أذنيه ههههه ثوب ، فتنهت حواسه كلها فجأة ، ثم توترت
عندما تلمست خياشيمه تلك الرائحة التي لا يحيطها وسط آلاف الناس
بهمن بصوت مضطرب .

« مين ؟ »

« مساء الخير ياسي السيد أمدي »

« عيشة ؟ »

صعد درجة أخرى بجساره تعودها في مثل هذه المواقف ، وإن كان الوضع
ها يجتنب ، واعتدت يسراه فوق سياج السلم زاحفة ، فصطمت بيده
التي فرت مولية واختفت عن حواسه في السلام ، فعالج الأمر بسرعة قاتلاً
وقد تصلبت كل أعصابه :

« أراي الحال دلوقت يا عيشة ؟ »

« محدوده ... أحسن كثير »

وصاد صمت عميق ، تحدىته أصوات أنفاسها المتلاحقة ، وأصوات
الوجال الآتية من الداخل ، لكن صوت عاتشة تصاعد فجأة وعلى غير انتظار
حفيها هامساً :

« بس أنت غت عما كثير ياسي السيد أمدي ! »

رقص قلبه رقصة طروباً ، فلم يكن قد غاب عن لرقاق ، سوى صباح
ذلك اليوم ، وأحسن بفريرته أن ورده قلوباً ما وراءه ، فقال مضيقاً عليها
الخلق يهدق الخير :

« مانا كنت هما امارح بالليل يابن اناس !! »

« والماردة الصبيح ؟ »

لم بعد أمامه شك ... على أن الشك وإن كان في حد ذاته مبعث لده
منة ، إلا أن دروة اللذة تأتي في لحظة اليقين الباهرة . . . لذلك ، سرعاً
، انفس عنها بالنسول متعجلاً لتلك اللحظة . وكأنه يتربع بها قلبه

« بعين وحشيت ؟ »

« وحشيت الرقاق كله ! »

عادت تروح منه وقت ، لكن ، 'بقع هذا القدر ويترك لمطروف أمر
أهين ؟ ' « أنا حارس في المستشفى وطارد من ... يرعن في سرديب
حجر بله المشاهر ، ويشعل في الخواس نارا هادئة تبين في حمة السرديب
نفسه ألف شمعة ... وفي مثل هذا لظلام المتأجج يحلو الكلام
البحوي . . ترى هل هي ملتصقة بالخائط أو تقف وسط السلم ؟ . .
ناله من عجوب عريبد !!

« يعني أمت زى غيرك يا عيشة ؟ »

« ياسلام عليك ياسي السيد أمدي . عن ادك بقى ! »

ولا يدري كيف أملتت من حوار دون أن تمسه في ذلك المكان
الصبيح ... السب كانه قطع ، يرين - حتى في الظلام - الرغبات واستغوس ،
عوده أحساسهن على حديثه ، وإن لم يستطيع مجاراته أو لمحاق به ... وكانت
عيناها تتبعان شبحها اهازب وهي تعاد البيت ، وتستصاع أن يلمح عن
وجهها - عندما املتت الى الرقاق - شبح انبساطه ، فحق قلبه .

لو أن أحداً قال بسيد أمدي أن ذلك يمكن أن يحدث ، لما صدق .
ولاقسم بأعظم ما يؤمن به من إيمان - عن تدرع - أن هذا أمر لا يمكن أن
يحدث ... ولكن ، ما إن تنقص علي تلك اللحظة الحارقة البادرة الوجود ،
حتى يفقد فيها قدرتنا على تكيف حياتنا حسب معنى التقليد ، فشمروا وثقنا

وكانها كسجاء علالة رقيقة لانكاد تحجب من معوسنا شيئاً ، يميل الى المرء في لحظة كهذه ، انه اعشى واصم وابكم . . . تركيز النظر في اسنان للحظة كهذه ، كاف لان يعربه من ثيابه !!

صعد السيد احدى الدرجات الباقية في حطى ثقيلة ووجهه مثلهب ، وى رأسه دوامة ماثرة ، وان كان احساسه بلذة اللحظات التي ولت لارار بسيط عليه . . . إلا أن ثمة احساس آخر بالمسئولية قد وضعته فيه وحدته على السلم من ناحية ، وأصوات الرجال التي كانت تقترب كلها صعد درجة من ناحية أخرى

هب أن أحداً وآهب ؟ . . . حقا أنه لم يصنع شيك مافيا للادب أو انتاليد ، ولم يقل شيئاً غير مأثور سوى كلمة التليل « عوشة ! » ولكن ، هب أن احدى بساء الرقاق - وما أكثرهم - كانت جالسة في أحد الأركان المظلمة ، وهب أنها سمعت ؟!

كيف تجرأ ، وكيف أقدم ، وكيف فقد وعيه ؟ وكيف وكيف ؟!

كان عليه أن يعود في تلك الليلة الى المستشفى ليبيت فيها حتى الصباح . . . فأمدته هدا بحجة لعدم البقاء طويلاً - وقد كان يستطيع - فها أن حق المعلم محمد وانتهى من عمله ، حتى أحس برعة شديدة في معاداة المكاد ، بل في الفرار - أحس كأن عيون الجميع تلهه وتحببه بسباح من الشك ، كان مؤمناً في أعماقه أنه أخطأ ، فالتقاليد عند أن السطى أمر له قدامته . . . الحب شيء محرم ، علاقة الرجل بالمرأة لا تذكرها الألسن أحسن بثورة طاعية لم يعهدوا في نفسه ، ما الذي يربطه هؤلاء القوم ، هل

يرفصون طلبه لو تقدم للروح مه ؟ . . . سيحيرهم الأمر ، فهم لا يروحد منهم من أغراب حتى ولو كانوا صيادين ، وهو صديق حقاً ، لكنه غريب ، وليس صياداً ! . . هل ما يقال عنهم صحيح ؟ . . أهلك سر يتوارثونه عن السيد البديق ؟ . . لشد ما يرتعب من نظرتهم

« عن ادكم يراجلسه ! »

ولم تصل الى اديه كلماتهم والباحهم ، كان عائياً في لحة من الوجه والصيق والشوة وخوف والرعدة . . جسده يصطبى بار تلك أحرقتة ، لكن لسعها هذه لمرة أقوى آلاف الحرات . . هل تحبه عائشة ؟! ، الرفق حال والأبواب مغلقة وأصوات الرجال تصل اليه من أعلى . . فماذا لو عرح ليسال عن أم حننى ويقي على عائشة نظرة ؟! . . ماذا دهاه ؟ . . هل أصيب بالحصى ؟ . . يده تطرق لباب ، وصوتها يصل اليه سائلاً عن الطارق ، وقلبه يدق بصع ، . . ووجته انتهت بدماء تكاد تمل

« أهلاً وسهلاً سى السيد أحدى ! »

ما كاد يسطق حرفاً حتى حاده صوت أم حننى من الدحل يسأل عن القدام . . . وردت عندها عائشة وهي تسمح له لطريق مرحة ، وتنصب في صوه المصاح حسد روية وهي تنقطع اليه بعبيها الجسورين . . تحته لرونة سريعة مقتضة ، قبل يد أم حننى شمعتين مرحبتين

« قلت دعوت نبال عك ؟ »

« سألت عليك لعافية يا صبا . . يا سى »

اتسمت لمحور في وصاء شديد ، واعتذلت في جلسيتها وهي تأمر عائشة بمعداد الشاى

« لا والله ما في لزوم أبداً ، أصل أنا عدى وردية ليل ، انتي بتاخدي الدوا
حالتى ١٩ »

يتحدث في احتصار ولیمص في طريقه فلن يستعالم شيئاً حيل روية الي
دخلت لخمجرة وجدست محملقة في وجهه . . . شعر بعيني عائشة فوق
صدغه ، ولكنه لم يستطيع أن يرفع اليها بصره . كلماته هاترة غائبة ،
وكلماتهم حارة ، ورغم هذا يشعر بضيق يكاد يخنقه ، فليمص اذن على تناح
له فرصة .

« فونكم بعافية يا حائلتي ، حاندى بكرة الصبح إن اذن الله نجيب لك
الدو التالى »

صافح المحذور وصافح روية ، ثم استدار نحو عائشة وانقص عليها
بعين ملتهمتين برعبة عربية ، ومد لها كما جسوراً ثم أطبق على كفها فتركت
له يدها وهى ترحى أهدابها حتى لتكاد أن تخمض عيبيها ، قطع الفء في
حطوتين واستدار نحو الباب ثم توقف وقد لها كفه مرة أخرى فسلمته يدها
بلا تردد ، وانصب على صدرها بصيص ضوء ، ورأى الصدر منفعل
مصطرياً ، ورقص قلبه . . . ولا يدري كيف ترك يدها . . . ولا كيف مضى
عنها !

كانت الساعة قد جاورت الثالثة بدقائق عندما تسلم السيد أبدي مائة
وأربعين سريراً ، برقد عليها مائة وأربعون مريضاً . . . وانتحى بعدها في
ركن العسر وراء المصدرة الكاخة البياض . وضع عييه ودار بها في العسر
بمحل عند اصطدمتا سعديه وهى مسحبة في أحد الأركان تحبب لأرض ،
فاحد يرقب ردفها المحشورين في ردائها الأبيض ، وقد بانست استدارتها
معدة التقاطيع هالتهبت في جسده نيران رغبة لم تخمد بعد .

طلبا تجمي أن يهدل سعديه ولو مرة بعد تلك الديلة التى قصبها صوبها في
ممس حتى مقلع لهدر . تروح من رجل ذها امر ثم طلقها بعد أن
برك بها ابنة أصمعت في الثالثة . . . تأوه المريض في نهاية العسر فنبض اليه
في كسل وتروح وعياه لاتعقدان سعديه ، وكف المريض عن لتأوه فتوقف وعاد
من حيث جاء . . . ما لذى دهاه الليلية ١٩ . . . وما الذى حدث حتى سقط
في تلك الدرامة المهددة . . . انتقت عياه بعيني سعديه ، فالتفت عنه
انتحية بأسمة :

« مسما طاهر يامو السيد ! »

رد عليها في هدوء ، أنه يعلم أمه تحوم حوله وتصب له شاكها
حرجت من العسر فارمى في مقعده مفكراً لاهناً . عى ن صراح معدته
سرعد ما ألقطه من عفوته ، فتذكر أنه لم يتناول عشاءه بعد ، وكان ذكر
لصعاب مسرعت في بصره خيوية فحاء ، فنبض شطاً وهو يأخذ طريقة في
المطبخ

ألغى بانتحية عن ركني الطاسح ، وحطفت قطعة خم رددتها بسرعة
وبلاها بقطعة أخرى لو كان متروجا لأغرق أولاده باللحم كادت
هناك أفكار مسحية تراود دمه بين الخس والخير . فهو يعلم عن بصر أنه
ياكل غذاء درصى وقد احتاج الأمر منه الى قليل من التفكير . . . الأوبة
التي يعالج بها آل البلطى اقطعها من علاج مرضاه الراقيدين في العسر .

ليس في الأمر حرام أو حلال ، الذى في نظره منعمة بعد طول حرمان ، في
صفوه عز عبيد المحرم حتى بكى ذات مرة وأبكى أمه معه ، لن يعلم ذلك
احد ولن تعلمه عائشة بانذات ، يقول لتجميع أنه نرح من القاهرة بعد أن
توفى أبوه وأمه وورث عنها بعض المال ، والحقيقة أن أمه ذاقته من أجلة المر
بعد موت أبيه ، ثم ماتت ذات ليلة وتركته وحيداً . . . عمل خادماً عند

طبيب ، واستطاع أن يشرب الصنعة ثم يقفر في حديق درجة درجة حتى وات
الفرصة فعمل في المشمشى . . . بمصل الفرس في وقته دون نسيان ،
ويرتكب الحرام بين الحين والحين ، أى نعم ، ولكن فرض الله واجباً

شرح بفكره ذات مرة فراره ضميره على استحياء . . أليس حراماً أن تأكل
لحم المرمى ياسيد ألسدى يباشتمرجى ١٩ . وصمت أمام ضميره في
عجب ، كان السؤال عرياً أشد ماتكون العراة . فقد أن عرف الطريق إلى
الحياة والجميع من حوله يفعلون ذلك ، المرمى حلابة ، هذا صحيح ،
ولكنه أشد منهم علماً . والله يرزقكم فيما نأفكرون ؟! . . . الحقن التي
عالج بها ألم حنفي وأنساء المستقل لم يصيب أصحابها ضرر . كانوا دائماً
يصحكون ويشمون ويعادرون المشمشى في أتم صحة وأتم عافية ، الأطباء
مدرون ، والمداوى حقاً هو الله . . . ولم يزره ضميره بعد ذلك ، عاد إلى
مكمنه وراح في نوم عميق وقد اقتنع تماماً . أراح وأسترأح .

ومضت الحياة بعدها هبة حنة . نحمدوه . لأمصاحب فيها ، لو اعتمد
على مرتبة لمات من الجوع . جنبهان وثان وعشرين قرشاً وستة مديبات فقط
لأعير . يدفع منها عشرون قرشاً أجر الغرفة التي يسكنها . وحة طعامه
لا تتكلف أقل من خمسة قروش ، حقاً أنه يسرق من هـ بقرشيين ومن هـ
بقرشين . . . والله سبحانه وتعالى يرزقكم ، فهل تنظرون ؟!

التهم طفق الأرض بالخصار ، والتهم قطعتي أحريين من اللحم ، إن لم
ياكلها هو مسياكلها غيره . . . نجشاً بعد ذلك بالصحة والعافية ، وأحسن
بدمائه تعريد في عروقه ههادر المطبخ بعد أن أخذ كوب الشاي في يده ،
وانطلق لا يدرى إلى أين .

خرج إلى فناء المشمشى ، ووقف وسط الخلاء والسكون وحيداً مثل هذا

ياها من السبحارة لى أشبعها ورشعات انشاي انساحن . مورت سعه
لا واطمر والأفكار ، هستعبد وهر رأسه في رصا . وهبت سمة باردة
اص طلكت ها أسسه ، فس لسبحارة بين شفتيه وحذب منها نفسا عميقاً
. محسه إلى رثيه ، ثم عاد وبثته . لكنه سرعان ما استدار عنداً وقد دب
الضخاط في أوصاله . صعد درجات واحترق بموت وألقى بكوب الشاي
اصراع عند حافة شباك ، وتوجه إلى لعبر . عدد باب لعبر ونف وهو
درب المرمى مهمكين في تناول عشائهم ، وب كاد جسده يظهر حتى صاح
أحدهم :

« معيش لحمة يباشتمرجى ١٩ ؟ »

أحسن وقتها أن يدا حدثه من أحى نومة لتوقظه في عجب ، فصاح في
عبط :

« أطفح وأت ساكت يامصران ياغور ، عاوز تموت ! »

« مصروف لي لحمة ، الذكتور قال كدة ! »

ولم يعن لسيد ألسدى المالد عليه ، ذلك أنه لمح سعدياً تحترق عمر جدياً
يؤذى لي سلم بمضى إلى حجرة الشعبلات . . لم يفكر ، ولم يهتم
بالتمكير ، فادته عريته فسق لها كالأعمى ، اندفع وره سعدي في خطوات
مشقة وأندس تتردد مسرعة ، ثبتت امرأة وهبطت سلباً ، فتمهل عند قمته ،
وماكدت تبسط السلم وتستدير إلى الممر المظلم حتى اندفع بقمز لسلم قفراً .

« مسعدي ! »

في صوته بحة لا تحطها أذن امرأة مثل سعديه ، فاستدارت نحوه وألصقت
ظهرها بالحنط

« حير ياسيد ياخويسا ؟ »

« على فيس ؟ »

سؤال لامعى له ، فالمر لا يؤدى إلا لحجرة الشعالات فى نهايته ، فى عينيها قلق وفيها شىء آخر ، ارتبكت وفهمت فأريته .

« حبر . . . عاوز حاجة ؟ »

دماؤه الساخنة لاتدع له فرصة لتدريث ، صدره يعدو ويصط فى انفجار وحشى . . . عابت اللبى والاحداث وتوقف كل شىء عند لحظة .

« كنت باقول نقعد نكلم شوية ! »

حديث لا يموت على سمعيه التى تصرف من فون الرجال مالا يعرفه السيد ، ثمة ضوء شاحب يمتد من حجرة الشعالات ، يظهر فيه شيخها المحتسب المتصق بأخاط فى فورة وبذاء . . . انه يعرف ما يدور بذهنها ، وهى تعرف ما يدور بذهنه !

« وبعدين معاك ياسيد ؟ »

« مش قادر ياسعديه . . . مش قادر ياولية ! »

ترى من ينتصر ؟ . . . لقد انتصر هو على أم سالم وفوقية وفردوس والؤلوية م عبده أيضا ، فى ليال كهمه الليله ، وأماكن من المستشفى كهذا المكان ، عندما يتباهى «خون» لا يدري أين رأسه من قدميه ، ولا يفرق بين جميل وقبيح .

« وبعدين معاك ياسيد ؟ »

خطا نحوها فى جساره حتى لامست قمة كرشه فزاعها ، ومال عليها فى نطه مستنداً إلى الحائط ، ولم تحسرك من مكاتب ، فهل نسيم دون مقاومة . . . وقصفت فى أعماقه شياطين حمراء ، فارتحف وتهد وقال :

« وبعدين معاكى انتى يامدوخانى ؟ »

« سيد . . . حد شوفا ، اعقل ! »

وانفلت فجأة وعى غير أنتظار تاركة اياه فى حيرة ودر ، كمهن كدلت ، وابسمامة عريضة تعبت بشفتيه ، لكنه سينتصر ، شبحها يسرع فى طلال الضوء الشاحب . لن يتحرك من مكانه ، تنشى الى الحجرة وتحشى داخها بعد أن تلقى عليه نظرة .

ظل متمسكاً فى مكانه ، جمدته مشاعر ملكت عليه حواسه وأفكاره وأشعلت النيران فى كل ذرة من جسده ، امتدت يده لسيعة فمسحت قطرات من العرق تصببت على جبينه ، حاول أن يعكر دون حدود ، كان قد أصبح أسيرة شهوة عارمة ، هو لاستطيع لأقتراب من حجبها والا حدث مالا قبل له به ، حجرة اشعالات عالم محرم على الرجال . . . الحائط بارد ، وحسده يعنى ، والساعة جاورت التاسعة . . . ولا زال فى الليل متسع !

ما الذى تفعله عائشة الآن ؟

ذكرها يكاد يشعل الشيب فى رأسه ، لو كانت بين ذراعيه لاعتصرها عصباً ، لمرق شعثها وحطم صلوعها . هل ينحها حقاً ؟ نعم ، نعم نعم ، والألماء هــ لشي يحسه كلها ذكرها أو رآها ؟

عادرت سعيدة بالحجرة فجأة ، خطت خطوة واحدة ثم توقفت بعيداً عنه

« أنت لسة واقف ياسيد ، اعقل ! »

جمود يشل كل تفكيره فلا يحرك ، حنقة خاف وكأنه لم يدق فقرة من مياة سد سوات ، تقدم مهب مسلوب لإرادة ، لكعب لم تراجع ، تقدم خطوة أخرى ثم امتدت يده فجأة فحذنها بعيداً عن الضوء ، وارتعت المرأة ، بقوة حلزته ، فوق صدره السمين . . . قاومت فى وهن ، ولكن شفتيه سرعان ما بهائتا فوق وجهها وهو يحور كالنور !

عذبه عاد بعد ذلك الى العنبر ، كان المرضى قد غرقوا في سبات عميق ،
وارتفع شجر بعضهم ، وترددت أفعاس البعض في هدوء . وساد المكان
سكون أيس . فجلس السيد أمدى في استرخاء فوق مقعده وراء المصدد
الكاخف انبياص ، وأخذت أصابعه تبحث فيما عوقها من أدوية وأوراق
كانت علامات الرضا والارتياح نادية على وجهه بوضوح ، وبسامة رائقة
احتلت ملامحه السمينة ، وفي لحظة ، كان قد قرر أن يتقدم ، فلم يعد يطيق
البعد عن هائشة أكثر من ذلك !

ولكن . . . هل يقص حقاً ؟!

— ١٠ —

ساد الظلام بيوت الرقاق إلا من ضوء شاحب هب ، وبأالة مصباح
تترقص في وحن هناك . . . وغرق المكان في صمت تحلله صفير الرياح التي
كانت تندفع من أعلا الرقاق في قوة عاصفة ، فسد من شعوق لأبواب
والدوامد .

وكان حموده عمداً - في نصف جلسة - فوق العرش وقد تذر بالأعطية
على رأسه طاقية من الصوف بتمت جبهته وأذنيه وصدره ، وظهر شاربه
الكث وكأبه كل شيء في وجهه ، وساد الحجرة صمت تحلته أفعاس العيال
وقد راحو في سبات عميق ، بينما كانت عطيات تمد كواب البنسون لساخن
لزوجها الذي أخذ يرقها بعينين قفقتين .

لم يذق حموده - منذ أن غادر المستشفى - للراحة طمياً . . . كليات الطبيب
وتحذيراته نطش في أذنيه بلا انقطاع ، حماس السيد أمدى وثورته لا يبرقان
خياله ، وأولاده الخمسة في حاجة اليه ، وزوجته تعمل من لصباح للمساء

ولا تكف . . . وصدره يصيق حيا ، ويشمع للهواء حيا ، ولكن بحسب ،
الصعب يتسرب الى جسده حتى ليكاد أن يفقده رشده . بالأمس أحضر
بالشبكة الصارعة على ذرعه كآب طين من الحديد ، واثناه بعد طرحها دور ،
فعل ساكن في مكانه مشتبأ بهال ، ثم تربع ، وبولا الشتر نسقط من
طوله . . . كل شيء يبدو له كشيء مر .

تناول كوب البسوس من يد زوجته ، وأخذ يرفقها وهي تدثر الأولاد وتسد
شقوق الباب محرق غم الهواء خسرته في اندفع . ثم سقطت وانجذب
نحو الفراش وصعدت إليه . . . كانت هي ملاذة الوحيد وموضع سره ، لكنه
يخاف أن يصرح - حتى لعصيات - بما يعتل في نفسه من قلق ، وما يدور في
ذهنه من أفكار . . . أفكار غريبة - جذ غريبة - تعربد في ذهنه ، ومهما حاول
ويجاهد ليصق عليها الخناق ويكنمها في صدره ، إلا أن يودع منها أخذ لسانه
يعلها - على الرغم منه - بين الحين والحين ، ولولا سرعة تداركه للأمر ،
لا يصح للأهل ما يفكر فيه . . . وكأنه كمر !

ليس الأمر أمر هجرة ، انه فراق أهل وأصحاب وزقاق عاش فيه منذ
طفولته ، مرضه يبح عليه أن يقدم ، فلا يمر ، وزاده بطون تريد أن تمتلئ ،
ولا يصرف في الدنيا غير صناعة الصيد وطرح الشباك واختيار المكان الخلاء
بالذوق . . . دماؤه تشي تجرى في عروقها صالحة كماء لبحر ، صدره العليل
يأس هواء الشاطئ ، ويجه ولو كان فيه نهايته والمستقبل ؟ المستقبل
عقول يبين له بلا صلاح . . . فليذا . . . ماذا يفعل ؟ !

مددت عطيات ساقها تحت الغطاء فلامست قدمها الباردة قديمة
اند فثنين . . . فازتجف . عادت فلمت ساقها وشرعتها بطرف جنبها
وحسنت الى حوزة مترعة صامتة في عينيها حار جارف وحس طاع ،
لم يصح منها في حياته كلمة تعكره ، ولم تفعل في حينها غير ما أمرها أن

أفعله . طالما حسد نفسه على عطيات ، كانت - من دون نساء الرقاق - حارة
اللسان منكسة الطبع لا تزدى أحدا ولا ترد لأحد أذاه ، من الصخر حتى
« صفت الليل لا يسمعها سوى رجلها وأولادها وبيتها ، تحدث أناس
« عسى ، وتناقى بكلمات زوجها في طعة عيباء ، وحب مقرون باحترام
« . . .

رشف حمودة من كوب البسوس بتلدد ، وصممه بين كفيه وأحس يقرب
« حبار المتصاعد منه ولد عرق عقفه في لحة مخيرة . . . ما الذي ستفعله
عطيات ؟ . . . يعرف أنها ستوافقه وتطيعه بلا كلمة اعتراض ، ولكن ، هل
« . . . طبع حقا معاداة الرقاق ولشاطئ ، والسعي معه في المجهول دون خوف
أو وجل ؟

مالت بكتفها نحوه فلتصقب بكتفه ، وأحس حمودة بذلك لشعور
الاصاص لتدفق الذي يطغى فيعرق مشاعره كليا جلس إليها في ليمة شاتيه

« ارى صدرك تدوقت بامسى حمودة ؟ »

« بحمودة يا عطيات !! »

عادت في اقتصاب وكأنه يفر . . . ولكن أين يفر ؟ . . . وراء البحر وفيه
« فيه من مرض وعذاب وألم . . . وأمامه المجهول بصياحه وشعوب صوره
« « « . . . وبحوزة رفيقة العمر فهذا لا يمس البض ويتلصص وعودة
أطريق مستندا إليها ؟ !

« عطيات . . . عاوز بقول لك عن حاجة »

« حير بامسى حمودة ؟ »

لكنه لم يتكلم ، عاد الى الصمت من جديد . . . وأخذت عطيات
« « « . . . تروي ما لدى يشغل داله . . . هل قال له الطبيب غير

ما علمت ؟ . مع الأيام أصبحت تشعر وكأنه ابنها لازوجها ! . كاد
دنياً في حاجة الى رعايتها وحرمتها . . .

« بآلك مشغول بديه ياسى حمودة !؟ »

تمست عن الله أن يطلب سيجارة ، فما كان أحب مسطره اليها وهو يذبح .

« عاوز سيجارة يا عطيات ! »

« وصنرك ياسى حمودة !؟ »

رغم الرعروعة التي انطلقت في صدرها ، إلا أن حكمتها كانت دليلاً أمسق
الى لساب من أمانيتها . . . لمحت علامات الصيق على وجهه ، فامتدت يدها
تحت الوسادة وأخرجت صندوقاً قدمت له منه سيجارة . . . ومال حمودة على
عود الثقاب الذي أشعته وتساءلت هي ، لماذا تحب أن تراه مذبذب
يانسى ؟

« كتب عاوز بقول يا عطيات . . . »

وعاد لي نهضت من جديد ، فقالت عطيات بصوت خافت :

« بتجس على عطيات ياسى حمودة ؟ »

« نتي نحس عليكى . . . ؟! »

فدأها في استنكار ، ورفع الكوب الى شفتيه فأفرغ مائه دفعة واحدة ، ثم
مال به الى الأرض بجوار الفراش ، وعاد الى جلسته وقد احتقنت الدماء في
رأسه .

« كنت عاوز بقول . . . ايه أبك لو رحنا مصر !؟ »

« مصر - مصر !؟ »

« ايه مصر . . . صحتي يا عطيات ، العيال محتاجين لي ، نعمل ايه
بس ؟ ، حصل كده كل يوم والثاني في المستشفى ؟ ، والا بفضل كل يوم

« اسنى بأشكرك ده ؟ . . . قول لي بابت الناس بعمل ايه ، نعمل ايه
بس ؟ . . . هيه !؟ »

احتق صوتيه ، فكلف عن الحديث فجأة ، وجاشت نفس عطيات
بالحان ، فستت يدها الى كفه عن استحياء وقد باعته الأمر فمكست رأسها
ولادت بالصلمت ، بينها هاد حمودة الى الحديث من جديد :

« شوقى يابت الناس ، قتلوا حد ضحك يا جحا ، قات هم واحدة وقعة
وواحدة نائمة . . . آسى فكرت في الموصوع كويس ، وريتا ما يساس عده ،
لو رب الشككة بكده ، ولقارت بكدا ، بقسروا مفتحوا ذكته في أيتها حته في
مصر ، في أيها حى ! »

« اللي تشوفه ياسى حمودة ، اللي تشوفه ! »

كأب تقول له « كف عن الحديث ! » . . . فراق الرفاق عتد أنه كفراق
لحياة سواء بسواء ، لكنه مريض ، صدره عليل ، وحياته على الشاطئ لا بد
مصيرة ، وما باليد حيلة . . .

« افرضى جرى لي حاجة يا عطيات . . . افرضى يعنى . . . أسبيكم
ليس !؟ »

« لى تشوفه ياسى حمودة . . . اللي تشوفه ! »

« مش لى تشوفه . . . لا ، نتي ايش قولك في الموصوع !؟ هيه .
يش قولك يا عطيات !؟ »

« لقل قولك ، أنا وياك مين ما تروح ؟ »

« أني كنت عارف بك حازنهي . . . كنت عارف . . . »

« أبداً وحياة نور عينيك . . . أبداً ياسى حمودة »

احتق صوتها ، وسيحت عيها في الدموع ، ورفر حمودة وهو يقول :

« مفتوح ذكائه ، نبيح لب ، نعمل أياها حاجة ، هو آسى مش واحد
باعطيات ، والعيال دول مش عيال . . . حكم رينا وده مقدر ومكتوب! »

« بانزى حبا يقولوا ايه ياسى حموده . . . حبا يقولوا ايه !؟ »

استدار إليها بمئة وحلق في وجهها بعصب وحيرة ليقولوا ما يخلو
هم ، لى يترك نفسه فريسة للحرص ، لى يترك أولاده بربهم غيره

« ما يقولوا اللى يقولوه ، حد حبا نفعنى لما تزوج فيها . . . لو كنتى سمعتى
كلام الدكتور كست عرفتى ! »

« قال ايه . . . قال ايه وحياة النبى قال ايه !؟ »

ففتحها عليه تبرد نار صدره ، جرعها الصادق يملأ حياته بالسعادة :

« قال لى حاتموت لو قعدت هنا شهرين كيان . . . »

« يا مصيبتى ، ومستنى ايه ياسى حموده . . . مستنى ايه ياخويا ؟ »

سره الرهيب وجد له متنفسا في النهاية ، علامات الدعر واللهقة والخزع
نظهر على وجهها كشمس في ظهيرة يوم صيف ، الراحة تغمره فيقول في
هسذوه :

« يعنى موافقة يا عطيات ؟ »

« لا موافقة ياخويا . . . إلا كده ، من بكره نسب الزقاق . . . من
بكره ، احبا لينا من غيرك . . . أنا والعيال ما نسواش بهلة من غير
نفسك ! »

انصرفت دموعها فغطت وجهها بكفيها وغرقت في نشيج صامت ،
وانسحبت يده فربت على كتفيها ، ثم جذبها اليه فاستسلمت ، وألقت
برأسها فوق صدره ، وتسمعت بأدبها دقات قلبه الرتيبة ، وملأت حياشيمها
رائحة أماسه المعطرة بالدخان .

« آنى . . . آنى خدامتك ياسى حموده . . . اتوصل على الله ! »

اللى بيدويا السيجارة على الأرض ، ولف حولها ذراعه الآخر وضمها إلى
صدره بحنان ، وسوى الغطاء وراء ظهرها فاكبشت على مسد ملتصقة به
كقطعة دافئة ، رفع وجهها إليه فعمرنه بطرائفها . . . ابتمسم وابتمسم ، جعف
دموعها ومال على خدها فطبع عليه قبلة حانية . . . تسرب لدفنه ليها
فأراد ان تصفها ، وهست عطيت وهي تغسل رقبته ثم تدفن رأسها في صدره
من جديد :

« أحسن عليك ياسى حموده ، وكنت غبى هنى سبع أيام ؟ »

قل حموده بصوت حاد متحشرح النبرات :

« ايش قولك يا عطيات . . . ايش قولك لو تاجرنا في السمك !؟ »

وعليه يتحدى بالله وينتبه لشغله ، لكن ترجع ويقول بسنى شوية لحد ما
تشوف هو حارسى على اتى بر . . . وبعدها تشوكل ! »

« والننى أنت حر ، حاكم انت لك أحكام »
وعادت المرأة الى استلقائها ، وحلت ممتحة العينين ، لكنها لم تستطيع
الصبر فعدت الى الحديث مرة أخرى :

« بقى يعنى لرمشى كويس ، تقول بسنى عيبه لما تشوف حاله ، وإد
راح كده والا كده ، تقعد نشتم فيه ونسود عيشته ، يابو محمود حرام
عليك ! »

وانتظرت أم محمود من زوجها أن يبادها الحديث ، لكنه كان غارقاً في
التفكير يقرب الأمر عن كل وجوهه ، وسد سعة أيام وهو لا يكف عن التفكير
في الموضوع ، وكاد ذات مساء أن يقدم عندما تعرد بنريس صادق لدقائق ،
لكن لسانه تعثر قبل أن ينطق بكلمة وتبه الخوف . . . حمأ لقد انقطع
محمود عن زيارة البوطة أو السهر فيها ، يخرج في الصباح مرماً حمص في
لقارب ، ويجعل الرزق مع ابيه عمه كل مساء في الخلفة ، ثم يعود اليه
بالمال . . . ويبقى بجواره لأبرح البيت . . . لكن ، من يدرى لا يعود
محمود الى سيرته الأولى ؟

عادت أم محمود الى الحديث من جديد وفي صوتها رنة عصب :
« بس ياخويا ماهر محمود بقى حال ، اللهم صل على النسى ، هو يعيبه
ايه ؟ »

فقال المعلم محمد في خجس :
« يا أوليه اهننى ، يعنى نجوزهم بت لاس من هنا ، ويروح يرافق عليها
من هنا ؟ . . . ده بقى اسمه كلاهبر صه ؟ »

— ١١ —

حسن المعلم محمد محدثاً زوجته وهو يمحلق في الظلام :

« ايئش قولك يا أم محمود ؟ »

« حير ياخويا ؟ »

« عاوز نجوز لواد ! »

شعقت المرأة في فرح ، ونهضت في مكانها وانحنى عليه قائلة بصوت
مضطرب :

« ده يبقى يوم المسى يابو محمود . . . يوم هذا ! »

« بس آسى خايف . . . خايف نجوزه من هنا ، ويرجع لعويده من
هنا ! »

ردت عليه زوجته في سرعة ودون تفكير ، وقد استخفها المرح :

« جرى لك ايه ياخويا ، والسى انت ظالمه ، هو يعنى أقل من مين ؟ »

« يا أوليه اتنى مش في كده ، آنى بقول يعنى أن الجواز يمكن يصلح حاله

« استغفر الله العظيم ، يداخل نف من بقل ،
« أنف من بقى أرى ؟ ... هو اللى يسهر فى البوجه لوش الصبح ت
عديه العصبة ١٢ »

صمكتك لمراة فى سحرية وفالت هدمسة :

« سم الله ... الله يرحم ! »

« قصداك ايه ١٣ »

« يوه ... ولا حاجة ... بس يعنى . »

تخسج الرئيس محمد فى غفظة ، فكفت زوجته عن الحديث ، ولعت عيه
فى لظلام ، وقفزت الى ذمته ذكريات أيام حدث . . . فقد بعد وفاة السيد
لمسى صوابه وكأنه كد سحب طمة حياته ، فانطلق الى البوطة لايوى عم
شئ ، وعرف فيمن عرف فى تلك الأيام امراة كادت تلهيه عن حياته ، لك
تبيه فحاة عندما فاحت رائحة لسيرة وعدها أهل الرقيق ، فاستمر ر
وتاب . . . وسى تلك الأيام ولم يعد يدكرها وكأنه لم يعيشه ، وحتى لو ذكره
عرضا أو ذكره بها لسد روحه ابدى يعرف كيف يعطس فى الوقت المناسب
وسرع ما يحول الحديث بعيد عه فيسأها ، وتعرض أحدثها لى أعين
مضلة ترقد فيها ولا يعدها لها اثر . . . دلت فاد محولا حديث فى لبقه
وقد رقى صوته ولا

« به رايت فى زوسه ! »

قفت زوجته حاسية مرة أخرى ، وانتمصت كلماتها بالفرح .

« ست البات ... والى بابو محمود فضك من ايل فى دماغك ده واتوى

على الله خليبنا نمرح بالسواد ! »

لم يكن يعلم محمد أقل تلهفا على الأمر من زوجته بطبيعة الحال . . .

لك الليلة وفى قلبه نار تضطرم وحساس رهيب بالصاء . . . زوج محمود
يلع على قلبه إحداه متصل ، كم من مرة ندى فيها ولده وأجلسه بحانه وهم
أن يمتحه فى الأمر ، أو يسأله لماذا لم يطلب الروح حتى الآن ، ولولا ردة
موية ، وعزيمة وصبر وقلة ثقة فى ولده لانتهى الأمر منذ أيام . . . يسمعه أشد
السعادة أن يرى أحفادا تجرى دماؤه فى عروقهم ، ويشقيه أشد الشقاء ذلك
الشك المقيم فى نفسه نحو ولده . . . لم يخدعه عزوف محمود عن سهرته
وحياته بها ، فهو مريض على أى حد وليس محمود بس حرم ليتركة
وسهر ، لكنه بس يظل لعمركه فى العرش ، سوف يسعى لى الرزق غدا
أو بعد غد ، ويومها سيبين له الخطأ من لصواب ، ولحق من الباطل
قد لروحته وهو يستدير مولأ ظهره بها ، وفى صوته برة مرة
« لى لسانك ومش عاور حد يسمع بالسيرة دى . . . الأيام حاية ، واليه
ككبت العطاس ! »

وكان وثقا أنها ستطبع ، وأن أحدا من يعلم بها دار بيها ، فأولاهها ظهره ،
واغمض عينيه . . . وروح فى لوم !

لم يكن ذلك الطريق الذي سلكه هو أقصر الطرق الى الرقاق ، لكنه كان
للتريق الذي تعود حتى السيرة في هذا الوقت من كل يوم ، يدفعه الى
رؤية الشاطئ المهجور حين حارف ، ويطل طوال سيرة بجواره الشاطئ ،
يعدى من شيء يحدث بنمسه وأمه عن متصلاً ، يحسه قوياً كبيراً يحمل كبره
ويضعط على أفكاره ، بهر الصوه . . . لفرط وضوحه وجلاله ، لا يكاد
يعرفه أو يميزه وكأنه يمشى النهر !

هنا عرف أبوه - وهو لا يصنق بأنه حاوى أو عاص مع جبة في قاع البحر
في تلك القعة الرملية شرقاً ، الصخرية غرباً . . . في مكان ما من هذا
الشاطئ المهجور ، كان السيد يقف وسط قدره ، يطرح الشاك ويجدها ،
ويحمل الرق الى بيته وآله !

هنا مات أبوه - ولما أنه مات - واحتفى ، حتى جثته لم تلمطها الأمواج
ولم تلق بها الى الشاطئ ، بل تمتعتها وطونها وأدبتها في أعماقها قدم يعد منه
أثر .

هل يستطيع أن يعيد السيرة مرة أخرى ؟! . أن يقسم الشاطئ ويختار
لماثلته تلك القعة المهجورة . . . قلعه يفيض بالحساس وأحب لتلك
الأفكار ، أما عقله ؟ . . . عقده الغريب يثمر ويرفض ويقول ماذا ؟! . .
حينه الى الشاطئ أمره غريب ، يمشى في نفسه يوماً بعد يوم ، وكلما لامست
عيساه رملها ومياهه تدفق الحزين الى نفسه تدفقاً هادراً وكأنه ينشع من منبع
فيأفئ . . . ما إن يرى الصخرة حتى يتوقف - بالرغم منه - ويلقى بصره
الى الأفق لبعيد متمياً - في ألم - أن يطل عليه وجه أبيه من جوف المياه . . .
في ذلك الوقت من كل يوم ، عندما يلامس قرص الشمس حافة الأفق
العيد ، يبدو لحوى أن يجتر ما صب لم يعشه ، ما صبه عبيد مليناً يدع والفة
والسطلان ، ويتمنى حاصراً مهلهلاً مهلهلاً ، ويستشقب خلال أحداث الأيام

- ١٢ -

عادر محمود وحفى حنقة السمك قبل العروب بلحظات وسار متجاويز
بعده الشاطئ المهجور . . . ذلك الشاطئ الذي لم يسبح فيه قارب ، ولا
ألفت فيه شبكة منذ ابتلعت مياهه جسد السيد اللطى . . . ولاحظ لها
على امتداد البحر صحرة رأس التين وابضة تحت أقدام القصر الكبير ،
تطرح أمواج البحر بقممها الزبدية في رجمة عصبى ، وما تلت أن تكسر
عند أقدامها العتيدة في أبين مكتوم . . . وقد ظللها الصمت وقتاً غير قصير
وهما يسيران ، حتى إذ اقتريا من نهاية الطريق ، كان عليهما أن يميلا يسار ،
ويعبرا الشارع ، ثم يدلفا الى حارة السعدوى ، ويترقا بعدها حتى السيلة
من الناحية المواجهة للمياه ، ويترك على يسارهما مسجد المرسى أبو العباس
بعد مسيرة دقائق ، ليومها في أوقه وحوار تشابك وتلاقى وتفرع في عبر
نظام ، حتى إذا توسطت تلك الكتلة الضخمة المكسدة بالمنازل القديمة
النهائية ، انشبا يمشى ويسره في ترح مستمر . ليصلا - بعد دقيقة أو
دقيقتين - الى زقاق السيد البلطى .

ما سيكون عليه المستقبل ... ويعود دائماً منكسر الخاطر ... وظل
الشاطئ مهجوراً !

ها الذى يريد به بالتوحيد ؟ !

سؤال غير لا يعرف له جواباً ، ببساطة يريد العز والقوة والسلطان ، يريد
أن يروح عائشة ، وأن يتزوج روية ، وأن يشفى حمودة ، وأن ينجذ كل رجل
في السرقاق رزقاً يقيم أوده ويمسك بطون أولاده ! ومساداً بيده أن
يعمل ١٩ ... هل كتب عليه هذا التيه الى مالا نهاية ١٩

« جرى به يا حنى ١٩ ... سرحان فى آيه ٩ »

« هبسه ٩ »

عندها فقط تبه لوجود محمود ... ماذا لو حدثه بأمر حيرته تلك ، حقاً
أنه يختلف عنه في كل شيء ، لكنه من عمه قبل هذا وبعد ، هو الآخر
يعيش في عالم لا يمت الى عالمه بصلة ... ها الذى حدث للعائلة ٩ ... هل
أصابتها عين ١٩ ... الفقير فيهم يرداد فقر ، والمعنى يرداد بعداً ، والنعمة
في فم هذا ليس لغيره نصيب فيها ! ... واقع لأجدال فيه ، حديث الناس
عهم أحلام غير متحفة ، يجمعهم رفاق صيق ، ويدلج كل منهم الى الآخر
ويحمي كل منهم الآخر ، هذ حق ، ولكن ، اهذه كل ما يجب ٩ ...
من لا يكذب أحد أن يراه إلا في الملمات وكأله غريب ، ومنهم من يشتري بذل
القدرب قارسين ، ويدل الشبهة شباكاً كثيرة ، وبعد أيام أو شهور لن
يصبح للقدرب أو الشبهة قيمة عندما تأتى سعية عبد الموحود حمدان وقد كثر
الحديث عنها . أين الرجال في العائلة ١٩ ... وأين الرجال عن
الشاطئ ... رفع نصرة الى محمود واحتفظ من وجهه نظرة ثم تساءل
هل كتب عليهما أن يحصلوا العبه كله ٩ ... محمود ليس صياداً ، وما

المصيبة ، ولن يكون صياداً ... يوم أو يومان وتعود رجمة الى عادته
القديمة ، ويعود محمود الى الوظة وكيداهم .

لا ... لن تعود سيرة أبيه ، فليس الزمن كالزمن ، وليس الناس
كالناس ، والشاطئ أصبح مهجوراً !

ذات ليلة نقلت عليه خيرة فحلج ملايسه وألقى بجسده في المياه ... أكان
محون وقتها ٩ ... وظل يسبح ويتوغل عبر عبي ، كان القمر بديراً وبوره يعرش
سطح المياه في وداعه ، لكنه لا يعوص الى أعماقه ، بل يبقى مستقيماً على
السطح لا يتعد ، أود أن يستشف ما في أعماق البحر من أسرار ، كنت
درعه ولم يكف عن السباحة ، ألقى بنظرة الى لوراء فوجد الشاطئ بعيداً ،
جال ببصره حوله فبدت له الديق حلاء إلا منه ، الصحرة محفة هائلة
ضخمة ... جاشت نفسه وتذكر أباه وتحنى لو أنه لم يميت حقاً كما
يقولون ... فصرخ بكل قواه :

« ياب ... ياسيد يايلطى ! »

ردت اليه الصخرة صدى صوته من جديد ، فعدا الى البداء واجف لفتب
مستجنداً بنية أم ... الموتى يستدلون على أجسادهم بالقبور ، وأبوه لا قبر
له ولا جسد ... ترى أين هو الآن ١٩ ... أكان في جوف سمكة صصادها
وباعها في الحلقة وأكل لحمه الناس ١٩

« يابا ... ياسيد يايلطى ... يابا ... يابا ... يابا ... »

وحرح يومها من المياه والخرن يعتصر قلبه ، لكنه كان مرتاحاً وكأه أدى
واجباً ... وعاد الى الشاطئ ليألى أخرى ، وندى على أبيه فيها ... وهو

موقن أنه مات . . . مات . . . مات . . . فهذا يريد ؟ . . . ولماذا يعود
دائماً ، ويسبح ويتوكل في المياه ويتأذى ؟

لاحظت لها مثددة المرسى أبو الصاس وقد هبط الطلام وأصبحت المصابيح ،
محطوط له خاطر . . . لماذا لا يذهب الى بوطة حسين شلوفة ؟ . . . استأجنته
على الأمور رغبة في عبالسة الصحاب ، صالحة من هذا وبوطة ودخان وموال
ويعرق القلب والعقل معاً في خدر لديد ، لكنه لا يفقده وعيه ولا وقاره .
قلد في سرعة وكأنه يحاف التعثر :

« رايح فيس يا محمود ؟ »

« البيت يا حنفي ، يعني حاروج فين ؟ »

« مانيجي مروحو عند شلوفة ! »

« لا ! ! »

قافها محمود في اقتصاب وسرعة وكأنه يعدد عن نفسه شيئاً خفيفاً ، فلاذ
حنفي بالصمت .

لم يبحث أن اجتماعاً على شيء إلا فيها نذر ، ولم يكن اختلافهما مثار شجار
أو كراهية ، على العكس ، كان كل منهما يكن لصاحبه حياً عميقاً ووداً يصدر
عن احساسهما بأخوة لا تفصم . على أنها قد أحبا ذلك الاختلاف بين
طبياعهما ، فترك كل منهما صاحبه لهماه دون اعتراض أو تنهر . . . طامد
سهر في البوطة سوي ، هذا صحابه ولدك أصدقائه ، ماذا صادف وعادها
في وقت واحد ، أنعم كل منهما ناحية ، وسلك طريقاً مختلفاً . . .

بعد النقاء شارع وكالة الليمون بحارة نور الصباح افترقا . . . الثاني
حنفي إلى اليمين متجهاً نحو شارع الحرية فاب انكراسه ، وعاص محمود
في ظلام الحارة غارقاً في صمت حزين . . .

— ١٣ —

عندما دلف حنفي إلى بوطة حسين شلوفة ، كان كل شيء فيها يقارب
الوصول إلى ذروته . . . سحب الدخان انعقدت في سماء المكان ، والموائد
صفت متجاورة بالقرب من الحدران في استدارة ، حوله مقاعد مستعيلة
تلاصق الرجال فوقها وتزاحوا . . . والمعلم جمعة تصدر المجلس يحيط به
الشعراء والمحبوب . . . لكن مقعد كايداهم كان لا يزال شاعراً ، يجلس
حوله الطال والزمار في انتظار واستكثة . . .

الذي حنفي بالتحية عن الرجال ، فهندوا صائحين :

« ألب مسا . . . آمال فين محمود يا معلم حنفي ؟ »

نفس السؤال الذي أبقوه عليه بالأمس وأول أمس وكل يوم صد عاب محمود
عن البوطة . . . ولم يجد حنفي جواباً سوى هزة من كتفيه ، وكلمات قاطة وهو
يسكت لنفسه عن مكان :

« قلت له يجي ، مرضيش ! »

صاح المعلم جمعة في أمسى :

« ذول سبع ليالٍ النهاردة يجدهان ، سبع ليالٍ ومحمد غاب عنا ، حد
مكم زعله ؟ البت عملت له حاجة صبيقتة ١٩ »

ودرج يحول بعينه في الوجوه متسائلًا ، غير أنه لم يظفر بعبر الصمت جوابًا
فهز رأسه في أمسى وهو يرفح كور البوطة إلى شفتيه في همس .

وسرعان ما عاد كل شيء إلى حاله ، انتهى حمى زكنا مرويا وراح يرقب
الحالسير في صمت ، وارتفع صوت حكهشة نائح لحمة الرأس مباديًا

« يامسهل ! » . . . وحاصت نفيسة بائعة الترمس بين الرجال وهي تنقى
عليهم الككات وتغصهم على الشراء بكلمات ممصوحة ، ثم صرحت صاحبة

من قرصة لدغها بها رجل لعبت البوطة برأسه . . . والكيزان تفرغ لتعقل
من جديد . . . وكايدهم تدلف من باب المكان ملتفة في ملاءتها ، فتعلو

الصيحات مرحة عائنة . . . ونهص إليها الشاطر الطفال وريز الرمار ،
وتسابق في حل الملاءة التي ألقتها عن جسدها في دلال ، لظهر ثوبها الفاتع

اللون وقد انعكست على سطحه أصواء الكلوليات الباهرة ، وتوجت مع
استدارة ردفها وهدبها وبنطها . . . ناداهما رجل فردت عليه بانسامة ، زعق

آخر بصوت ثمل :

« ياريتني ملابة لف ! »

فرنت صحتكتها وجلجلت ، ثم ردت عليه عائنة :

« بس يادايب ! »

صمح المكان بالصحن والتهليل ، وانجحت كايدهم إلى مقعدها وهي
تجول بصورها في الوجوه ، وما إن استقرت فوق المقعد حتى مالَت إلى الوراء ،
فيال نحوها الشاطر وريز في عودية وتتل ، وسانتها كايدهم في همس

« برصه مجش ١٩ »

« ولا والله ياست كايد هم ! »

لمحت حنفي فانقت عليه لتحية ، ورد حنفي تحيتها في اقتضاب وهو
بدفن نظراته في كوزة ، وعادت تميل إلى الخلف وتسال :

« حنفي مقلش حاجة ١٩ »

فقلا في وقت واحد :

« بيقول أنه مارصيش ييجى ! »

خللت وجهها سحابة من كآبة ، لكن تقاطيعها مرعان ما ابتلعت ثلث
لكآبة عندما صاح أحد الرجال طلبًا إحدى رقصاتها . . . فاستمت في دلال

وهي تتاول السيجارة التي امتدت بها يد حسين شلوفة ، وبقر الشاطر فوق
طلبته ، وصفق المعلم جمعة بكفين هائنين وهو يصيح :

« والله لازم آلل معاكى ياكايدهم ! »

وصاحت كايد هم بصرح لتحية المعلم جمعة ، فائلة :

« تمش ياسيد الكل . »

وصفق البعض في انبساط وهم يستديرون في أماكنهم بحر جمعة ، وصفق
آخرون طالبين كيرانًا أخرى ، وراح الجميع يتصايحون في انتظار لعناء .

وقد مضت سنوات طويلة لم تعرف فيها بوطة حسين شلوفه الشعر ولا
قائبه ، ثمة مواويل تطبقها حناجر الرجال بعد أن تنقل رؤوسهم وتنبأيل من
الانسجام حب ، ومن عدم السيطرة عليها في غالب الأحيان . . . وبصرف
الطر عن حلاوة الصوت أو قبحه ، كانت الماويل هي أند ما يبارسه الرجال
حول كيزان البوطة .

حتى جاء جمعة ذات ليلة .

جاء وحيداً وألقى التحية على الرجال فردوها ، كان غريباً فلم يعبر اهتماماً ، جلس في أحد الأركان وأخذ يشرب في سكون ، ظل يجرع كور وراء الآخر ، ويلتهم حبات لترمس وعيدان الجرجير في نهم ، ويشترك في الحديث من بعيد بكلمة أو كلمتين ، حتى إذا انقصف الليل كان أحديهم قد جمع بيته وبينهم ، فانتقل من مكانه وجلس معهم . . . وكان لابد للانسجام من بلوغ ذروته ، وفروة الانسجام هي العناء !

وعلى غير انتظار لعلع صوت جمعة . . . انطلقت حججته بمواو صممت له كل الحاسر ، وأرهفت سماعه كل الأذان . وصوت الرجال وزهدو حلالة صوته ، كان صوتاً رحيباً عذياً يخال في سهولة يحرس بلحاح في سعادة حريئة . . . وكان يقول الشعر !

وسرعان ما دأب الخمر في الحلى ، وانتشر بعد أيام ووصل إلى الأحياء الأخرى ، تنواعت الشعراء من كرموز والأنغوشى وكوم الذكة ، وعرف انكثيرون الطريق إلى بوسطة شلونه . . . وحول الكبرياء سالت دموع ، وحلجلت صحكيات . . . وحول جمعة التف لشباب في انهيار ، وروحوا يلتفتون الأبيات من بين شفتيه ليرددها في كل مكان . . . وكان محمود السطلي أحد أولئك الذين سحروهم شعر جمعه ومواويله . . . بهرته الدنيا الجديدة واحتدسه إليها بقوة لا تقهر . وأصبحت كلمات جمعة هي النسيم الذي يمد يد رقيقة وحبرته وهذابه ، جمعها عن ظهر قلب ، ورددها مرات ومئات . . . وعنى ذات ليلة لعبت فيها البوطة برأسه ، فهلل له الرجال في حماس ، ورأى كيداهاهم فسندته ، وأطمن الشعر دون أن يعي . فاحتصه جمعة وفرة أبيه . فعنى وأشعر وأطلق من قلله أهات كانت تتلوى على لسانه رافعة دامعة . . . وقربه جمعة من مجلسه ، وانضم في ليلة إلى الشعراء

وحاجاهم بأبيات ، وأصبحت البوطة هي ملجأه الوحيد . . . وطبع حزن أشعاره فتسنى الرجال به ، واستعذب هو الحزن فوافقه في غير تذمر !

وقد ظهر محمود في تلك الليلة عند باب البوطة فجأة

كان زائع العينين ، مبهل الأفعاس ، شاحب الوجه ، متسمر في مكانه متطلعا إلى الداخل ينظرات شرهة غير مستقرة ، كأنه يمتص بعينه كل ما تضح به البوطة من حياة ، ودمج جمعة فصراخ بكل صوته وهو يفرد ذراعيه في الهواء ويقفر من مكانه :

« مين ؟! . . . محمود السطلي ؟! يا ألف مرحب ! »

تحولت الرؤوس كلها نحو لياب ، وتوقف كل شيء لحظة ، وسمع جمعة مرة أخرى وهو يهضم صديقه إلى صدره ، ويهين الرجال مريحين ، وروشح خنفي عبيبه إلى محمود وعلى وجهه ابتسامة حنون . . . ولم تتحرك كيداهاهم من مكانها !

بد محمود مرهقا مكثودا ، ارتسمت على تقطيعه علامات حيرة ولم دعين ، صاحب الرجال في ود ، وألقت عيابه بعيني كيداهاهم فارتعد تقدم منها في خطوات بطيئة ومن حوله الرجال . . . حتى إذا أصبح على بعد خطوة نهضت إليه ، فتوقفت عن السير ، وجاءه صوتها عبر لصجيج والصخب :

« سلامتك ياسي محمود ، »

« تسلمي يا كيداها ، الله يسمك ! »

« ليه غت عا المدة دي ؟ »

« العيب حاجته معصا ! »

« واللى له حبيب ينساء ؟! »

صبح الرجال بالصبحك ، وصباح جمعة في مروح :

« كايدهم يتقول شعر ياجدهان . . . عليه العوض ! »

فرد عليه رجل وهو يرفع كوزة المتمر إلى شفتيه :

« الل يدوق لدعة القلب يصبح نبي . . . عقالنا يارب ! »

جرح حمى كوزة دفعة واحدة ، وانقطع من فوق المائة حيات من التمر
أخذ يمشي بها إلى لمة في سرعة ، والتفت عينه بعين محمود مرة أخرى ،
فصاح في عصبية وكأنه يحمي بصياحه بركائاً في أعراقه :

« ألف مرحب يا محمود يابن حمى . . . آسى من قلت لك تعلى ، قلت
لي لا يابن الداس ؟ ! . . . »

كان شيئاً غريباً أن يتحدث حمى ، وكان الأعرب منه أن يصيح
لذلك ، فقد حمل محمود في وجه ابن عمه غير مصدق ثم ابتسم عنده
صاحت كايدهم :

« حمى اللطى انكدم ياجدهان . . . ميت دل ! »

فصاح حمى مدافعاً عن نفسه

« بعملوا به يا كايدهم ، ما أتى نطقى الخجر ! »

وصرخ رجل في مروح وكأنه ضيق حمى متلئلاً بجريمة :

« حاسب ياجده ، ذي رفيعة أخضوك ! »

حدث جمعة محمود إلى جواره قنلاً :

« ليتنا أنس يارجان . . . واليس ليتنا أنس ! »

ثم ربت على كتف محمود في ود وحب وهو يقول :

« سمع ليلى ياجده ، سمع ليلى تغيب فيهم عن أحبابك ؟ ، سبع

ليالى يا محمود ؟ ! »

وجلس محمود بجوار جمعة ، وعاد الرجال إلى أماكنهم ، وشحن الحمى
شحنة هائلة من لشباط ، كل شيء كان يبدو سيجال تلك البحطة ، حتى
حمى ، تابتة نوبة عريضة من سعادة كأب صباغ ، فحس مقعده بيمسه وكوزة
سراة واقترب من جمعة وجلس أمامه وهو يصيح

« مدعوى أبو لنديا ، محدش واحد منى حاجة ! »

وتعالت الانغام فجأة في موجات هادرة صاحبة وعى جمعة ، وانداح
صوته مازيا كالخدر ، وألقت كبد هم بسجارتها إلى الأرض وسحنتها ،
وتعالت بقرات الطلعة متموجة رقصة ، فراقص معها نغم لمزمير في نشوة ،
وصفق الرجال وعلت وجوههم سعادة كأنها العصب في وحشيتها ، وهتز
جمعة في عذبة ، وحذبت كايدهم لشال من فوق كتف زين وهى تبيض
متقصعة ، ثم لفته حول وسطها وارتقت عن أرض المكان بقدمين طائرتين
وحسده يتز وترجرج وترقص في سرعة وحدي ، وتلاقت الأكف في
تصفيق متتظم ، وغنى جمعة : « يليل » ، واندفعت كايدهم قبيل عن
الرجال وتجدت شواربهم في عث وتشر عليهم بسايتهم ومد عبايتهم في
سحاه . . . وهى وطيس لرقصة ، وحيت الأكف في تصفيقها ، كما حيت
لطفلة في نقرتها ولرمار في أنمده وجمعة في لياليه . . . وسكر الرجال بحمر
السعادة ، ثابلاً وشربوا وتصايحوا وصرخوا وكأنهم تحولوا إلى عيين ،

ودارت كايدهم حول نفسها ، وهزت صدرها ووسطها ، وراحت وجاءت ،
وشرب محمود ، وشرب . . . ثم شرب كأنه يساق الرمن ، وددت البوطة
وكانها جرة منتهية ، وكبها انتهى نغم طربت كايدهم معها آخر . . . انشت
في ثيابها وحطمت كوز المومة من أمام محمود ، وصمته فوق حبيب وهى
تجلى في الخلف ، وراحت تتمايل وترافق وجسدها يمشى ، ويتشى ،
وشعرها تهدل حتى لأص الأرض ، وما لبثت أن رفعت الكوز من مكانه

وقربته إلى شفتيه ، وأخذت ترشع - كأنه عزة - من البوطة على مهل ، وسطها يترجرح ويهتز ، وعيناها لا تترك عن عيني محمود وكأنها شدت اليأس بحيط لا تنقطع . . . وتصيب منها العرق ، وسأل عن وجهها وجيد وانزعت قطراته فوق صدرها . . . ومصمت الدقائق ، وبرقت في عيناها نظرة شواة عربية . ثم توفقت .

وتوقف الجميع وراحوا يلهثون في أنفصال !

وحلست كأيدهم بجوار محمود . . . وتساعدت واثقتها إلى أنه فعب عن وعه . . . ربح يقول صرعه في المكان غير مصدق ، واضطرب قد وتراقص . . . صرعه ووجه وناس ودخان . . . دعم البوطة اللادع يرد إلى الروح ، فيسسم ، وتعبس ابتسامته عندما يتذكر ما قاله رجل لحنى « حاسب بجدع ، ذي رفيقة أحوك ! . . . لا يدري الرجل ما قالته له » أنت زى أحويا يا محمود ، عمرك ما خليتني أحس أنك راجل ذي بقى الرحالة ، كنت دايماً حين وقريب منى ، زى أحويا ، أوي . . . ! . . . وعث يحاول أن يعيد إلى شفتيه ابتسامته راح يفكر في صراح عموم . يسمعه سواه : « حرمت عن من دون الرجال جميعاً ، إلاي أحيها ؟ ! . . . عجب ! . . . وضعت لنصرمان دون مجادلة أو تدمير . . . إلاي أعشها ؟ ! . . . ما أشد العجب ! . . . لو طبت منها روحها لما ضت به عنى ، إلى عيبيها بداء صارخ فكيف ألييه ؟ . . . كيف ؟ . . . في قلبى حب لم يحصله قلب رجل من قبل . . . وحنان ؟ . . . أليس يرهنا ؟ . . . لمسات يدها ليدي ؟ . . . نظراتها ؟ . . . كل هذا يفرقني في فيض من اللذة والألم معاً ، لكن حتى يهذبني ويكرميني ولا أعرف له دواء . . . هل من حل ؟ ! . . . هل من دواء . . . فليسأل جمعة :

وطيب أريد أسانك عندكش دواء يظال

للمعرم إلى عامل كقويه لدموع منطال ؟

بدأت المحاجة بيني وبين صديقي وأسنادي ، توثر الرجل وران السكون العميق عن المكان ، تخملق في العيون كجمرات ملتبه ، الرجل السحري بهل في أعماق ويتصاعد منه البخار إلى دهى شعر . . . الأمداس تعح في قلبي وكأنها تنفث في أهواء لهباً ، المعلم جمعة يرفع القرعة إلى شفتيه استعداده ، وحنفى . . . حنفي يشب برأسه في لغة وعى وجهه علامت أم طافح . . . حتى أنت يا حنسى ؟ ! . . . ما الذى يؤثك ياربن الصيادين ؟ ! . . . وادح صوت جمعة :

يا محمود أصبر ، يا شيخ هذا الصبر للأبطال
ممن أجيب لك دوا يشف عليك دمع
من كثر نعيمك على أحيائك تقل سمعك
قوم أسأل المولى قادر على جمعك
من غير حبيبك جميع الطب لك يعال !

أعرف هـد باجمعة وأدريه وأعيه وأتعذب ، لوعتى يارجل تكفى عشرات منكم لتكونوا أعظم المحبين ، رأسى يدور بنشوة غابت عن أيام بطول سنين ، قاومت كثيراً حتى لا أعود اليكم ، لكننى لم أستطع ، كدت ألقى بحنفي بعد أن تركنى ثون ، جئت مع الرجال في الرقاق فكذبت أحتس حديثهم جاف ثقيل ، ووجوههم صارمة جامدة مهمومة . . . انطلقت فجأة كالحجول وكانى أعظم قيودى كت أعدوى لطريق كالعطشان يسمى نسع ماء عذب . . . لاحت في لبوطة من بعيد كشاهى ، يسعى إليه غريق . . . صبيحكهم وصرح حكيم حبيب إلى قديمى ، جسد كأيدهم ملتصق بجسدى . . . والحنف تملأ صدرى . . . حتى مرض لا أفرى كيف وددا أصبت به ؟ . . . أصرخوا وصيحوا وصفقوا وأفعرو أفواهكم وعوا

من البيوت وأهلوني على صحابات اللذة لأرتع لحظات سعدتها حراماً .
أبي وأمي وأهل في حاجة إلى ، وأنا أحبهم ، وأحبكم ، وأغزق بينهم ،
وبينكم .

كايداهم تبس من جورى لامرأة تقف عند الباب ، تحطف الملاءة من
زين وتخفى في الظلام قائلة أنها ستمود . . . كلكم تعرفون هذه المرأة كم
أعرفها ، جميعكم تعلمون أنها داهية لتقدم جسدها لرجل عبرى ، ربون لاد
وأن يكون له شأن والا لما تركتها . . . هل أنا رجل كالرجال ؟ . . . من
مكم يحس ما أحس به ؟ كلكم تنظرون إلى في ترقب منتظرين انشادي
وأبائي وشعري ، دموعى قريبة تكاد تطفر من فطر اللذة والألم والحزى
جميعاً . . . أسقوني أولاً ، هكذا ، ثم خذوا انشادي لعلكم تشعرون .

ما تدمويش ياماس ، أنا في حبيب غايب
قاعد معاكم لكن عقلى الدكى غايب
ان مت يا احوال والا صابنى صايب
أكم بحرقه ، وشيلوا جسمى يرتايب

حنفى ينهض كأن ثعباناً لدغته ، وجهه وهو يعضى ينطق بها لا
أعرف ! . . . أبى لك يا حنفى أن تفهم الحب ؟ . . . كيف تعرفه وقد شئت
في رقتى السيد البطلى ؟ . . . والدك أسطورة يا ابن عمى يتخفى بها الناس
على الشاطئ ، وأبى عجوز كادت المياه أن تبلثله لولا رحمة الله ! . . . ولو
مات لما قالوا أنه تروح جنينة ، فهو لا يصلح ! وراءك ماضى هائل تستند
إليه وتفاخر به . . . شاطئ مهجور تقف أمامه كل غروب وتتأمل مياهه في
عشق ، ألمسبني غافلاً عما تفكر فيه ؟ . . . انك تريد أن تعيد السيرة وتبدأ
القصة من جديد ، تسير الآن في ظلام الطريق جامد الملامح سريع
الخطوات ، ستصحو في الصباح كمدتك وتسبقنى إلى الشاطئ . . .

سيشرح أبى معاً غداً أو بعد غد هلن يطول وقاده ، لن أصلم من لومه
وتفريعه . . . أحسن كائن طائر في الهواء معلق لا أرض لي . . . حذونى
برجال في أرواحكم ، أعمرونى بصيحاتكم ، أسوسى حبيبة القلب التى
تتمرغ الآن في أحضان عبرى . . . أشد يدعما أبيتا تشفى غايلى أو تريد
من النار المشتعلة في صبوعى . . . أصرخوا ، وأصيحوا ، وصموا أداسى
فما عدت أحتمل !

وعجن ، وعين عبد الموجود يجيب من مركب زى دى ؟ . . . أبويا قال كنه
يا خالتي ! »

غير أن سفينة عبد الموجود حمدان لم تكن هي التي تشغل بال خالتها في ذلك الصباح ، كان هناك شيء آخر راحت المحجوز تلوكه في ذهنها وتعبه عن تكليات غامضة ، كانت كمن يكتم في صدره أمراً رهيباً لا يريد البوح به ، عن أنها سرعان ما انصهرت بلا تحفظ تنكي وتروح وتروح بها يجيهم ، وهي مؤمنة أشد الإيمان أن حنفي خاوي حية مثلاً فعل أبوه . . . انقص قلب زوية رغم قسم الحديث ، وبينت عائشة لبيكاه أمها ورعيها البادي هل وجهها ، وراح الحديث يترلق بين ثلاثهن ، وكل منهن تحفر له جري بلاثم هواها . . . قالت أم حنن أن زوجها جاءها في المنام وقال : « بعدى اهلك عن الحية ! » ، وكل شيء يؤكد عاومها وقلقها . « أمال مش عاود يتجوز ليه ؟ . . . المهر جاهز ، والعرايس على قدم من يشيل ! »

وتساءلت زوية بين يدي وبين نفسها : « حقاً ، لماذا لا يتزوجها ؟ . . . هل عائشة هي السبب الوحيد ؟ . . . هناك علامات ! نظراته ، صمته الصمقي ، رايه الصائب ، قوته . . . ثم ، من أين يتأتى هذا الرجل أن لم يكن قد خاوي حقاً ؟ ! »

وكان شيئاً رفعها الى السماء ، ثم ألقي بها الى الأرض فتصدعت ، أحست كأن زوجها قد فارقها ، وانتابها الرعب ، وأمه تقول في ولوله :
« عملها ، عملها زى ما عملها أبوه ، واحدة من أياهم رابطاء ، يا حسرتي ! »

تشابعت أصابع روبة بأطراف شالح وهي ترجف ، وقالت عائشة في لهجتها القاسية المريرة

— ١٤ —

أهو جون ١٩

ليكن . أصبحت لاتطبق ، صدرها يجيش بها لا يستطيع أن يتحملها اسنان ، مضى عليها اليوم تعسا قلقاً ، وبشت التماسا والقلق أعصابها بلا رحمة . أكثر ما تحافه أن يزجرها . . . أن يملها أو يفتقرها ، وحتى لو فعل ، فالتصحية رخصية مهما دعت غير أنها لم تعد تستطيع الصبر

نام أبوها ، ونامت أم حنفي وعائشة ، وسكنت الحركة في الرقاق كله ، وعم الطلام وكثفت حتى لم تعد ترى كنهها الذي يسطنه أمام وجهها .

عاد حنفي والرجال زقاقهم في الصباح ، وذهبت لتجلس مع خالتها وابنة خالتها وبين كفيها كوب الشاي ، جلست معها وتحدثت اليهما ، وراح الحديث يبين ويجه ، وترثرن فيها بقوله الرجال عن سفينة عبد الموجود حمدان ، والمستقبل المخيف الذي ينتظر رجال الشاطئ . . . وقالت من وراء ذهنها ما سمعته من أيتها « ده كلام فارغ ، دول الرجاله الى عاوين لت

« من بعيد والى يبعدها ، ماهى عيلة اللطى مبلية ! »
وصاحت زوبة بلا وعى :

« هال الله ولا فالك باعيشة ، نفى من بك ياحتى ! »
هردت عليها عائشة فى جبروت

« آمال من عاوز يتجاوز ليه ، هو من راجل زى الرجالة ؟ »

وأرحت زوبة عينيها أمام نظرات عائشة الغامضة الغامضة . . . هل
كنفت سرها ؟ هل عرفت أنها غم حمى ؟ . رفعت إليها عيني
مسلتين بالمروع ، لكنها وجدت عيني عائشة فى انتظارها ، ولم تعد تحتل ،
مهبست متعثرة لا تلوى على شىء .

ومضى النهار ولم يأت ، وحز كبير من الليل ولم تدب قدماء على أرض
الرقاق وكانت قد قررت فى نفسها أمرا ؛ ليكن ما يكون ، لحدث ما
يحدث ، لتطبق السماء على الأرض ، لكنها ستسأله أن كان قد خاوى
حقا ؟

عد الصبح كانت حائسة فى وجوم عذم وجدت عائشة تقف فوق رأسها
كأنسيف وهي تقول فى دهاء :

« الى واحد عقك يتنى به ، بانادى عليكى بقلى مدة ! »

انكشفت المستور ونعري ، حقيقة مشاعره تصرخ فى كل من يراها ،
وحقيقة مشاعره هو لم تعد بجلا لشكها ، ولكن .

لم يرها فى الصباح وهو يفتخر بالحجرة ، وعندما خرجت الى العناء وجدته
وقفاً عند باب البيت فى انتظارها . . . شبكته على كتفه ، ولا ستة فوق

رأسه ، وعياه تحلفان فيها بجسادة ، خضعت عينيها وقبها برقص فى
طرب :

« صباح الخير ياسى حنسى ! »

لم يرد التحية ، وتحركت شفته فى قلق ، وأحست . . . ولا تدرى كيف . أنه
يريد أن يقول شيئاً تقدم منها خطوة ، واقترب ص وهو يرد تحيتها بعد
طول صمت ، ثم اعتدل فى وقفه وهم بالحدث ، لولا أن هوى صوت
عائشة فوق رأسها كمطرقة شيطان :

« الله ، أنت لسة ماتوكتش على لله ياخويا ؟ ! »

وأهلحت الثيمة فيما أرادت ، جعته يهر من البيت كمن تلاحقه النار ،
استدارت إليها فلمحت على وجهها ابتسامتها الصفراء السحرة ، فابتسمت
دوباً رعة فى الانشام ، وقالت كأن تستجلب رضاها :

« رنا يحميه لك باعيشة ! »

مصممت عائشة وهي تقول :

« يحميه فى أنا لوحدى ؟ ! »

« يحميه للرقاق كنه ! ! »

وغادرت وفى قلبها ثورة ظلت تزداد اصطراماً لحظة بعد أخرى ، ما الذى
كان يريد أن يقوله لها ؟ . . . لحنت ، وقبت الأمر على كل وجوه دون أن
تستفر أو تهدأ ، حين ليها أنه سيقول لها : « باحيت بازوية . . . وأحياناً
أخرى تحبلى أنه سيقول « أنا رايح لأبوي صادق بعد الطرح طواني » .
ثم قالت خلتها مافات ، وقالت عائشة ما أرادت . وأحست أنها تموى الى
قرار مظلم

ومضى النهار كأنفل ما يمر بهار ، غسلت وطبخت وثرثرت وراوت وعادت
وكانت تنتظره في كل دقيقة لتسأله ، وستأله !

الليل ساكن بارد ، وشخير والدها يملأ الحجرة ، والباب مفتوح نصف
فتحة ، وعيساها عندمقلتان في الظلام ، وأدباها تسمعان حديث الريح
وتنتظران بلهفة دبات قدميه ، وما إن تسمعها حتى تبص إليه وتلتقي به في
الفناء ... و... وليحدث بعدها ما يحدث !

هل نامت عائشة ؟!

ألهذه خطواته ؟! ... نه... نه... نعم !... نعم هي !

غضت دقات قلبها حتى أوجعت صدرها ، ونهضت كالمسوعة وقد نورت
كل أعصابها ، لكنها تسمرت في مكانها كأن قوة تشدها إلى الأرض ، واقتربت
الخطوات واقتربت ، ثم خفت سرعتها ، وصر باب الطريق ، واندفعت
كالمجنونة !

حدث كل شيء دون أن تدري وكان هناك من حملها وألقى بها في
أحضانه !... مرة واحدة وجدت ذراعيه تضامنها إلى صدره في قوة ...
فجأة تحققت كل أحلام يقظتها وسامها ، اللحظات التي سبقت ذلك
سقطت من عمرها ، ولا تدري أهو الذي همس :

« زوييه ! »

« سى حنى ! »

وساد الصمت إلا من أنفاسها وأنفاسه ، أرادت أن تراجع متعددة عنه
فاقتربت حتى أنصصت به أكثر ... كأن جسده ملئها ، وكانت ترتجف في
عنف ، وحامت ، غير أن شغتيه بددتا كل خوف .

جذبها إلى الحجرة الخالية في طرف العناء ، فانقادت له بلا تمكبر .
ليصع بها ما شاء ... قبلها بجنون أفقدها الوعي فتعلقت بعنقه في الظلام
وراحت تغمزه بقلباتها ، سقطت شفتاه فوق أنفها وعيبيها وجبينها وشعرها
وشفتيها .

« سى حنى ! »

أهذا صرت أم صوت قلبها !... أصابعه معروسة في لحمها ، لينة
بفرسها أكثر ... ما أعذب أن تتألم من فرط قوته ، غارت قواها ولم تعد
تستطيع الوقوف فترنحت ، ارتجفت ساقاه وتهاوى جسدها بين ذراعيه ...
ما ، ما الذي حدث !؟

« سى حنى ... أخص عليك ! »

القريب أنها تتدلل ، بل وتبتسم !

سقط الحجاب واحترق وتبخّر وكأنه لم يكن ، ماذا سيقول عنها بعد
ذلك ؟!... ليقبل ما يحلوه ، ليظن فيها الظنون ، ليهجرها إن أراد ، فهي
تجبه ، وستجبه ، وتقبله كلما استطاعت الوصول إليه ، ما ألد العيب لو كان
العيب والمجور هما حنى وشاريه وشفتيه .

جذبها ، لالا ، حملها فجلسا على الأرض الدرجة متجاورين ، لا
ملتصقين ، لالا ... محترحين !

وتلاشى من الدنيا كل شيء ، حتى هو لم يعد له وجود ... لا أهل ولا
غير ولا شر .

دفنت رأسها في صدره ، وانهمرت أنفاسه لتدثر وجهها بغلالة دافئة ،
وأخذت تبدأ رويداً رويداً ... لكنها كانت تشعر برغبة هريشة لا تقاوم ،
وانقشع عن غير توقع ستار الخجل فاضطرت . ماذا سيعمل بعد ذلك ،

و .. هل يفعل ١٩... هل تدعوه ١٩... أى فجسور هذا يابست
اللطيفة ١٩ لكتبت للعجب - صحتك خلاوة ذلك المجور ، وهرت
راسها وكأنها تطرد عنها أشباحاً من نار هل يقاوم هو الآخر ما تقاومه ؟
وهل تراوده نفسه ؟ همست لسمها باسم أم عريضة فاجرة معجونة مياه
البارد . فليكن فالذي برد ! . حتى يتعد عنها قليلاً ، فانتشمت في
دهاء . انه يقاوم !! وأحست بالسعادة كما لم تحس بها من قبل .
ولكن ... لماذا لا تلقي إليه بالطعم لعله يتلقفه ولتر ما يقول :

« ليه عملت كده ياسى حنفى ١٩ »

كادبة ... لكن كذبها له خلاوة المصل ...

كانها رائته في الظلام ينسم ، فارتجعت في انفعال وتدخلت في نفسها ،
ثم اقتربت منه - كالقطعة - وأوت الى صدره وراحت تزوم !

« برداه ياروبة ١٩ »

« ليه عملت كده ياسى حنفى ١٩ »

ليست كادبة هذه المرة تماماً ، شيء كان يبعث من أعياقها فتحيش به
نفسها . فجأة ، أحست احساساً غامضاً بالسعادة ولألم سوياً . كيف
فعلت ما فعلت ١٩ كيف أقدمت ١٩ ما الذى دفعها الى هذا الحنون ١٩

« وبعدا معاكى ياروبة ١٩ »

دموعها تنهمر من عينيها ... دموع ندم أم دموع فرح ؟ ... لم تكن
تدرى ثمة رغبة خارقة في البكاء فقط أرادت أن تنكى ، صمت الدنيا
في عبيها كصفاء السماء في ليلة صيف ندية ، صدرها هادى ساكن ،
كسطح البحر بعد عاصفة هوجاء .

« بتيكى ياروبة ؟ »

هرت رأسها دون حديث . لئلا تتعاقب لئلا تجعل اليوم بطوله دون
برص ، وتقضى الليل بطوله دون نوم ، وتنتظره في النهار والليل ... ما
الذى يدريه هو عن دمعها ١٩

« لا متى حايطول الانتظار ياسى حنفى ؟ »

« حانكلم أبويها صادق » بكلمته وحلاص ... نتوكل على الله والى
بحص يحصل ! »

« والحيه ١٩ »

« جيه ايه يابست ١٩ »

« الى انت محايها ! »

أنقشت ضحكته رغماً عنه ، فرم شفثيه في قوة ، وأخذ جسده يتر ،
وتسللت أصابعها الى شعيرات صدره كما تسللت الريح الى قننها ، وعددت
بقول في دلال :

« بتصحك على ايه ياسى حنفى ؟ »

« مين الى قالت لكلام ده ؟ »

« خالسى »

« يابست اعقل ، انت تصدقنى ١٩ »

« طب وعيشة ١٩ »

قالتها دون وعى ، وبابتها ما فعلت ... لو كانت دموعها في ليلتها
ماء ، فحفاف عينيها بعد ذلك شب ... صمت دون حوب ، وطل
صمته ، وزفر في ضيق ... وتعلقت انفسها في انتظار كلماته ...

« والله مآنى عارف ياروبة ، ابش قولك انتى ؟ »

« الى تشوفه ياسى حنفى »

« عيشة مكسرة يازوية ، وملهاش غبرى »

« وأنى لى ميسن ١٩ »

أحست بانتمائه فى تلاعب أصابعه بيدها ، فابتسمت وعاد اليها هدهوها ، لكنها ما لبثت أن انقضت عليه بدهاء تنتزع منه ما حتمت بسباعه طيلة أيامها ولياليها ؛

« بتعبنى ياسى حنى ١٩ »

« بتعبك ١٩ . . . ويند الل يعلم ، ياما ليا لى ما نشوفش فيها اليوم يازوية ! حاسس من غيرك أنى مش عايش . . . واننى يابت ١٩ »
كلماته تبتسم ، فابتسمت هى الأخرى وقالت بسرعة خاطفة :
« أيسوه ! »

« أبوه ايه يابست ؟ »

« الله . . . ويعدين معاك ١٩ »

« عارفة يازوية ، أنى نفسى فى ثلاث حاجات »
رفعته شفتيها الى شفتيه وطبعته عليها قبله . . . وأحست أنها تزدد عطشاً

« نفسى فى قارب . . . ونفسى فى شبكة جديدة ! »

« والحاجة الثالثة ١٩ »

ومعصها بأصبعه فى جنبها فقمرت صاحكة ، وامتدت كفه الى فمها بحجب الضحكة المرحة من أسباع النائم . . . واستسلمت لكرمه ، ومالت معه حتى لامست رأسها صدره ، واضممت عينها !

وعاد الصمت من جديد ، ومال حنى على وجهها فلثمته فى هدوه وقد

لطيرت من رأسه آثار البوطة تماماً . . . أحس براحة شديدة وهو يرضعها الى صدره ، يداكل شىء له سحبا ، ويذكر عاء محمود وشعره فايتسم فى حب لولا هذه الأبيات لما اكتوى بدار الورد ففر من البوطة عارياً . . . وأحدث أفكاره ترتب فى دمه فكرة وزامها فكرة ، وصعب تفكيره وهذا أروح يقول كلمة بحلم :

« بقى على ثلاثة وتترى حيرة رارية ، تدفع منهم مهرك ويوصل لى قمر قارب وشبكة ! »

« وحانسكن فوسن ؟ »

« ها ، فى الأوصة دى »

وأخذاً يحققان فى الظلام ، ويشعسان ببطرائها جدران الحجر الخفية وأرضها ، وحذيتهما الأحلام فرحاً يؤثثانها . وضعت زينة دولان فى الركن الأيسر ، والعراش بجوار الباب . فى مكان جلوسها - وفرشت على الأرض كتيباً أسطوانياً ، وأنجست له ولحدين ويتين ، وزوجت عائشة من ابن الحلال . . . و . . . وضحك من قلبها ، وضحك من قلبه ، وسرقتهما السعادة فلم يشعرا بزمى ، ولعلح صوت المؤذن فلم يسعدها ، وسعدت أم حنى فانتصب مذعورين .

تسلل حنى لى حجرته عندما كانت أمه تنقلب على جنبها لتنهش وألقى بنفسه فوق الحشية وتودد ذراعاً وأحد يحلق فى السقف سعيداً وحاول أن يفكر ، أن يستعيد ما حدث ، حاول . . . حاول . . . ولم يدهج !

ذابت الأفكار والأمانى والأحلام فى رجفة الرصاص لى أجنحته ، وبقي

عقله خالياً من كل شيء ، وظلت أحاسيسه على مستورها من السعادة ،
توقف تماماً عن الحياة ، ثم حاول أن يمسك بطرف الخيط ، تذكر ...
محمود في البوطة ، ثم نساها ... وهبطت زوية على ذنبه ، ودايت
وحل عليها حمودة ، وتجمع ... وفرت كأيدهم برقعاتها ، واحتفت
وسعدت أمه مرة أخرى ، ثم غاب عنه صوت سعالها ... واستشعر أحضان
زوية ، وفر من ذكراها ... ودايت عليه أمه ، فرد عليها بلا وعي :

« أمو يا د صاحي ! »

شبهت المحور وهي تتحسس مكانه بعصرها الكلبل :

« كفى لله الشر يا بني ، ايه اللي مصحك ؟ »

واش صوت عائشة في الطلام كمو ، مقصص

« وهو دم يامه علشان يصحي ! »

وهي حمى في مكانه كالمذوع ، وحلق أمامه في عصب ، أتكون عائشة
قد أحسنت الأمر ؟

« فعدك ايه يبت ١٩ »

« ولا حاجة يا حويا ... دايت نسه داخل آهو ! »

« ونتي مالت يا مقصوفة الرقية ١٩ »

وبسحت راسه

« ماله أراي ... مصحكك يا ضايا ! »

وبدا موال كل صباح

- ١٥ -

بدأ موال كل صباح ، لكن عائشة لم تكن تكل صباح ، كان انشد قد
تحول الى يقين ، والخوف من المقدر أصبح حقيقة هوت فوق رأسها بعف
وقسوة ... مدعرت ، وحفت ، لا ... ثارت ، بل أصبحت وكأنها إنسان
وقع بين برانش وحش خرافي ولم يعد أمامه سوى الدفاع المستميت
كيف تحتل الأمر ؟ ... كيف يتزوج حنفي قبل أن يزوجه ؟

لا ... لن يحدث هذا ، لن يحدث .

ليس أمامها سوى طريق واحد ، ليس هناك غيره ... هبطت من
لعرش وهي تندثر بشالها وثنايب ، وتنظر الى شقيقها بصف عين ، قوة
عربية تتوآد في أعماقها ، عقلها يشرك بسرعة ، ويجنون ، لسانها يتلاعب
في فمها عبر قادر على الصمت ، احتلست نظرة احيرة من حمى ووجدته
مطرقاً . فبم يعكر ؟ هل عقد البية على أن يبعدها ؟ ! ..

« يا بنى أسمع كلامي ، ما هو لو كنت متجاوزاً ما كنتش سهوت الليالي .
كنت ، لقيت واحدة تملك ، ياواد اعقل ! »

ولم يرد حنفي ، لم يفه بكلمة ، كل ما فعله أنه رفر من أحباقه . . . ادد ،
فهم بعد هالك مجال للزود . . . ليس هناك وقت ، ووجدت لسانها يتحرك ،
وصوتها يخرج وكأنه في حلم :

« والله يا أمه ما عرفت أنام الليلة ولا حقيقة ، زى ما أكون سمعت رغي
وكلام وحديث في الخوض ، قلت بسم الله الرحمن الرحيم ، وعطشت ،
مديت أيدي للقلعة لقيتها فاصية ، حمت أطبع بره ، عطشت رياده ، قلب
يعني يمت حايكون مين ، والا يعنى حايكون مين ، خرجت الشرب من
البر . . . »

وصحمت ، والتفت عيناها يعني حنفي ، فيها ألم ، و . . . وتوصل
ارتجفت ، وازدردت ، إمامها ، ثم استدارت نحو المصباح ، وسألتها
النعجوز :

« وابيه ياب ؟ . . . »

ولم تستطيع أن تفتح نفسها من الحديث . لم تستطع ، ولم تستطع أن
تخوض فيها كأنست تريد الخوض فيه ، هل فهم حنفي ؟ . . . هل
يتراجع ؟ . . . عيناه مغلقتان بوجهها ، وشفتاه مطبقتان في عزم . . .

« أبا حارله بقى يا أمه ، آهو تخاريف نوم ، فين الكبريت ؟ »
وأضاءت المصباح ثم أعلنت سرعة إلى السماء لتعد الشاي وراحت
روبه

« صباح الخير »

وكانت زويه تبسم . . . وجهها مصى « بور سعادة لم تستطع
احفائها . . . »

« صباح الخير يا عيشة »

كانها لم تفعل شيئاً ، كأنها لم ترتكب اثماً ، وانذلع في صدرها شعور
بالكراهية ، والبغضاء ، وثبتت أن تصفحها ، أن تكشف لباس سرها ، أن
تذها ، وفي فسوة ، أن ترق تلك الاتسامة المرتسمة على الوجه البعيل
وتسحقها بقدمها . . . ووصل إليها صوت أمها من الداخل :

« ياواد اسمع كلامي وريح قلبي حرام عليك ! »
المعركة تبدأ وهي بعيدة عن الميدان ، يجب أن تنتقل إليها ولا انطقت
السياء على الأرض ، ووافق حنفي . . . وانذهفت بلا وعى إلى الحجر .

« فين الشاي ياب ؟ »

« على البار . . . آ . . . آديني بأولع البابور ! »

كان راجح مطرقاً ، جسده مكوم ورأسه مدفونة بين ركبتيه ، وكالمومة
وجدت نفسها تقول :

« زى ما أكون سمعت ، يا أمسه . . . »

وبعض من صدها ، وراحها عن طريقه وهو يعاود الحجر دون أن
يتنظر الشاي ، ودون أن يشعل سيجارة ، ودون أن يلقى عليها التحية ،
وزغردت الفرسحة في صدرها . . . انتصرت ، ولكن . . . لماذا أدت
أحاسا ؟ ، لماذا أذنه ؟ ! أطلت وراءه وراحت تساديه ، لكنه لم يرد
عليها ، ولم يلتفت لزويه التي استقبلته بابتسامة انتشرت على صفحة وجهها
معلّاته ، كأنه لم يكن في أحضانها منذ دقائق . . . رفعت إليها عينيها ،
وعاصمت نفسها برغبة عيفة في الإيذاء . كيف تبسم له العاجزة كل هذه
الاتسامة ، ألم تندم ؟ ألا تحمل ؟ ماذا حدث للدي ؟

الفسريب الفسريب ، ولعجب العجيب ، أن يحدث هذا في عمله
البلطى ، في زقاق السيد البلطى ، وفي بيت حنفي البلطى ، بل حنفي
البلطى هو الفاعل دون غيره . . . ماذا بقى لما بعد ذلك ، لن نلوم بعد انهم
أخذوا نو تعزى في الطريق وسار أمام الناس يعرض عليهم عورته
اهتزت الذنوب وارتجت من حولها ، ولم تصدق ، بل هي لا تستطيع
تصدق .

مرتاحة ؟ . نعم ، راضية ؟ . . . لا !!
أبقت في ذلك الصباح أن حنفي لم يخاو كما فعل أبوه ، بل خاوت
وردة . وقد كانت تتمنى - في أعماقها - أن يروجه السيد البلطى من إحدى
أمرات البحر لثرتح من رعبها وتقفها وترقبها . . . كتمت هذا الأحساس
ودفنت في أعماقها دون أن تخبر على جديده الى صياء التفكير لوضح . .

وكاد رأسها أن ينفجر . . . وجه زويه تغير فها عادت زويه التي ألفتها وز
عرفها . . . وجه العالم تغير وتبدل ، أصبح ذا لون شاحب وملامح
مطموسة . بمن تستجير ؟!

ترى هل كانت تعمل مثلاً فعلت زويه لو وانتهت الفرصة مع السيد
أهدى ؟!

فعلتها التي أفضت مضجعها وأغارت النوم من عينيها ، وأسلمتها لرهبة
ورعب شديدين ، نالت ، لأن ماسحة لأطعم لها . . . هذاب أبله ، وخوفه
سحيق ، وأرقها حمل لابس شيئاً كل ما فعلته هو أنها أسلمت كمها لكمه
مرة ، هذه معدنها المشيبة . وبانت ليلتها تبعدها عن جسدها وكأنه
لايس الشيطان نفسه لو ستجانت مساحة الرجل لما حسرت شيئاً بل لربما
كسسته روحاً أحست ناشمثارا شديداً وعمور أشد عدم ذكرته كلها معهم

عن السدم حطينة ظلت أنها لن تمحى من تاريخ البلطية الى الأبد
صعقها أمام نظراته ، وهبها أمام توسلاته أسلها فريسة لهم ولتلق حتى
جافته وصدته ورجوته ، فارتاحت نفسها بعد طول عذاب واستقرت بعد
طول أرق وقلق . . . ورغم هذا لم يكف السيد أهدى عن رباوة أمها ، ولم
يكف عن انتقامها بعمراته ، ولم يكف عن إلقاء الكلام بالث مسمى . وكانت
تتهم ما يقصد . . . توسل وحيل ولو أرادت لركم أمامها ، لكنها رفضت ،
ثم هددته بالأس أن يخبر أحياء بمحولاته ، فارتعب ، وارتعت هي
الأخرى لفوقها الذي لم تلکه في دهب . بل وجدته يطلق من فمها وكأب
كانت تكبر به عما قترت من ذنوب !

قل لها الرجل في صوت مرتجف وهو يعادر البيت :
« أن قصدي شريف يا عيشة ! »

فقالت بحسرة وقسوة .

« اللى قصده شريف ياسيد أهدى ما يكتمش حريم ! »

فر الرجل مذعوراً . . . وربما لن يعود . ومضت ساعات قليلة ، ثم
شاهدت أحدها في أحضان ابنة خالتها ، كان يقبلها . سمعت صوت
القبلات بأدبها ، ضمها الى صدره ، سمعت تهديدات لعاجرة وزفرات
ومهمسا . . . وتقلص جسدها من الانفعال ، ووقف شعر رأسها الما وربع ،
ولم تدر ماذا تفعل .

كان لظلام حالك حقاً ، لكن حينها أصاء انطلام وألقى فيه بكنة من
ضياء لا يخطئ في نورها الأعمى . سمعت لسحوى والغمس وصوت القل
ليتها ما أرق ، وليتها ما عطشت وما عذرت الفراش ، ليتها ترددت وصيرت
حتى يطعن النهار . . . ولكن ما حدث قد حدث ، وما كان قد كان . . .

أهبار كل شيء ، وتحطم الإله ، وتقرع أس المبدى المسمى فى طين الحجره الخالية .

« بت يا عيشه . انتى حاتمى ، فرى هاتى لى كيبه شاي ! »

أمها مطرقة تفكر . كل ما يشعل باها هو حتمى وروح حتمى وكأب لم تنجب غيره . أمها تفكر فى حتمى ، وحتمى يفكر فى رويه ، وهى وحيدة تكاد أن تموت من البرد !
هل أحطأت أم أصابت ؟!

لم تأت زويه كمعادنها كل صباح . . . فلتأديها لثرى ما تصنعه العاجرات حين يتحدثن . . . طوفان رهيب من الكراهية والحقد يجتاح نفسها ويطمى ويعصف فتتخلف حول أحاساسها به . . . هل تكره زويه حقاً ؟!

« يارويه . . . زوويويه ! »

جاءت بلا كلمة - ذليلة ، شاحبة الوجه ، منكسرة العينين ، لعل حروجه دون تحيتها قد أثار فى نفسها الخوف . . . لتعذب تلك التى كانت سعيده وهى فى أحضان حتمى ، ولتعذيبها هى أكثر ، وتتلذذ . . .

« ما تبجى يا حتمى ، انتى بعستى والا ايه ؟ »

صعدت الى الفراش ، وجلست متربة يداعبها النوم ، ويتراقص رأسها فوق رقبتها ، رأس ملء بالحب والذكر ، ووجه جميل يعمى وراءه أثنا فاحراً

أعدت الشاي وصبت به الأكواب ، وجلست تتأملها وتنتظر العرصه للانقضاض ، كوب الشاي يبتز فى يد أمها ، مستعود الى النوم من جديد كمعادنها ، وتركها وحدها لتتأدلا ، حديث ، وسيكون اليوم حديثاً شيعاً

« وابن عديكى مانمتوش الغيله يارويه ! »

شيئاً فشيئاً حتى تكون المدة أقوى ، الرعب يظل فى عينيك يندرجه ، ليت أحمى يرى وجهك كما أراه الآن ، لكى أعلم أنه سيحبه . أنت كالشيطان ، بل أنت شيطان زيس لأفضل الشباب والرجال طعم الخطيئة موقع . ترى لو طال بكى الوقت ، أكتى تلمعيه نفسك ؟! ومن يدري ما حدث قبل أن أنهض . . . لعه عبت بتهديك ، وجاس بأصابعه حلال صدرك . . . ونحس بكفيه بطنك . . . ومن يدري ؟!

نار قلبى زداد اشتعالا . . . ولن تبرد نارى قبل أن أهوى بالحقيقة فوق رأيت لأهشم كبريائك . . . ولكن لا ، قطرة قطرة لأنشئ على مهل . جميلة حقاً ، ومختلفة حقاً ، لكك فاجرة . . . ومن العاجرات من يعفن فى جمالهن ملكات بعثن فى القصور . لو كان أبى عن قيد الحياة لمسرف كيف يربى هذه العائلة . . . ولكن حترى شديدة ، لقد ذهب دون أن يترك وراءه رجلاً بجاهه الناس ، ولا حتى تحافه حريمه .

« مالك يا حتمى ، زى ما تكونى بايتة بعيد عن فرشتك ! »

« أبداً يا عيشه ، بس الدين برد قوى يات خالتى ! »

ياناعمة اللسان ، لقضه يشرب من الباردة ، واليهار يطلع ليكشف عن خايا الليل والظلام .

« طب أطعمى اللمة النهار طلع !! »

أطعمى كالخادمة ، لاشت عدى أنك حمت ما يدور فى رأسى ، لا عمل لك الا التمنت علينا وساع ما يدور بيا ، لولا جنون أمى وتحريضها لما طاف بدهن أحمى أن يفكر فى الزواج من عاهرة مثلك . يلقى بابى لسيد البلطى أن يشروح أميرة من الأميرات ، ترفعين رأستك وتنتظرين لى ملا عجل . . . والله لأكرئن هذه الرأس . . .

« ألا تقول لي يا زوية ... أنا شايقة يا حتى فرشتك زى مامى ،
 ماميش عليها الليلة والا يه ؟ »
 « وبغدين معاكى يا عيشة ، مالكيش دعوة بيه ياب ، حالى !
 « يوه . . هو أنا قلت حاجة لسة ! ! »
 « فتك بعافية ! ! »

تردين على وكأنك طاهرة الذيل ؟ . . . وتعادين الحجر عاضة ؟ .
 ولكن الى أين ؟ فى النهار متسع ، دل فى العمر ما يكفى لاسقيت ا-
 عل مهل !

— ١٦ —

اشرفت لشمس ، ولم يطل قرصها الدق على اساس وأيش حمى
 وهو يقادر السراق أن اليوم لن يكون فيه صيد ، كانت السمح الكثيفة
 السوداء تحجب لسماء عن لطر ، وسطح مياه مريد ، والريح عاصفة .
 وقد سار فى الشوارع والأرقة شارد للذه ، وكنيت عائشة لأتزال تظن فى
 أدبه ، وكان أكثر ما يعذبه انه لم يستطع أن يرد عليها ، أو يوقف
 حديثها . . بل هو لم يستطع أن يرفع اليه عينيه !

مر به رجل وألقى عليه التحية ، فلم يسمعه ، ولم يرد تحيته ، اقترب من
 باب الرصيف تقوده قدمه دون وعى منه ، واجتاز الباب فى سرعة كأنه يهرب
 من شيطان يطارده . . رأى الرجل وقد مسحوا أمام قواربهم الخشبية
 مكتملين من الرد ، تتلاعب الرياح بين الفضفاضة ،
 القوارب المتراصة بجوار بعضهم فتحدثت جواربهم مرسة . .
 الأعصاب . . ولعل محمود يقف مشدداً الى جدار أنفهم شامخ . .

عمر العيسى ، سارحاً بصره الى الأفق البعيد ، فأيقن أنه لم ينم ليلته هو الآخر . اقترب منه وألقى عليه التحية ، ثم وقف سجواره يرقب الحياة من حوله بصر رائع وعقل عائب

هل سمعت عائشة شيئاً ؟ هل رأيتم ؟ .. صوت حديثها الى صدره كأنها تطلق سهاماً تعرف أين تصيب ! .. كيف أقدم على ما أقدم عليه ؟ .. وكيف سمحت له زويه بذلك ؟ .. ولماذا انتظرت ؟ .. هل هو نادم ؟

بحث في أعماقه فلم يجد سوى الرضا ، وبجانب الرضا عثر على شيء كالقلق ، كالاضطراب ، كالصقي الذي يتتاب المرء عندما يصعب شيء غير مألوف ، والبأس من حوله في دهشة !

أيقظه محمود من أفكاره عندما قال :

« أبويا نزل يا حنى ، أبويا وصل ! »

بوعث حنى بحضور المعلم محمد البلطي ، ارتجف لسماح اسمه ، واعتزت حسنة قشعريرة ماردة عندما رأى عمه يحطو فوق حجارة الرصيف وسط الريح بقدمين ثنتين . ترى ما الذى يحدث لو علم أهل الرقاق بما حدث ؟ .. كيف يواجههم اذا رل لسان عائشة وفقدت صوابها وقالت شيئاً ؟ !

تدافع الرجال نحو المعلم محمد مهش ، وتقدم حنى نحو عمه وأبى على يده ليقبلها . وكان واضحاً أن المعلم محمد سعيد بعودته الى النشاط ، سعيد بشبكته الجديدة الملقاة على كتفه . وقد رفع العجوز عينيه ناظراً الى الأفق المظلم ، وقال في مرج :

« يظهر أن لبحر يعبدى يارجله ، يوم ما نزل يعمل الموج عبايله بالله بيا على القهوة ، معيش ديدة ! »

وأطلق مصحكة مجدلة وهو يتجه الى المقهى الزجاجى لفائم عن الرصيف ، يتبعه الرجال منسحبين واحدا وراء الآخر ، تاركين وراءهم قوارب خالية تتأرجح فوق سطح مضطرب .

كان من عادة الرجال في الايام العاصفة التي يتعذر فيها خروجهم الى الصيد ، أن يتجمعوا في المقهى ، يرقبون مياه البحر المتلاطمة ، ويدخنون ويثرثرون ويشربون لشاي في سراف ، وكأنهم في يوم عيد . . . كانوا في تلك الايام البادرة يمضون أوقانتا هي في غالب الامر أجل أوقانتهم ، لولا ما كان يشوب ذلك الجمال من قطع ورق ، أو احتياج الى المال

على أن شعورهم في ذلك الصباح ، كان - على غير العادة - مضطربا بالتوتر والقلق ، كانوا مسرورين لمواتة العرصة أحياء لتجمعهم ، بعد أن أصابهم ذلك الخوف لدى يسير عليهم كلما مر يوم وتناثرت الأقوال حول أسطول الصيد الموعود انشؤه .

كسوا يلتقون كل يوم بعد العروب في المقهى التي اعتادوا التجمع فيها ، غير أن أحساساً غريباً كان يبعد كلا منهم عن الآخر ، أحساس بالخوف أن تجسد الكلمات التي يدركون حول هذا الموضوع فتصبح حقيقة ، وأن يواحه كل منهم الآخر بما يتمثل في نفسه . . . رغم أن أحاديثهم حول هذا الموضوع قد كثرت في الايام الأخيرة ، خاصة بما أن ثرثر بعض رجال عبد موجود حمد في محاليس مؤكدين حقيقة الأمر ، إلا أن عيونهم كانت تتلاقى في حيرة ، يطل منها سؤال واحد : « ماذا نحن ندعمون ؟ ! »

لكن السؤال - أبداً - لم يجد له جواباً سوى الصمت الحزين !

قال قائل أن عبد الموجود حمدان شارك بعض أعيان الانجليز بهال وفير . وأنه يبحث الآن عن مشتر لغوازيه الاثنى عشر ! . . . وقال آخر أن السفيرة الساعدة من هذه السفى ، تستطيع وست ثلاثين طناً من الأسماك ، وار الرجال عن سعر كهذه يستعملون شباك غير الشباك ، شباك من حديد مجدول ، تلقى إلى البحر بواسطة أوباش ضخمة ، فتعوض في المياه إلى الاعناق ، وتجذب من الأسماك ما يفوق حجمه حجم الحيتان !

وصل الأمر الى المعلم محمد البطي وهو لا يزال واقداً في فراشه ، وسمعت أصداء أكثر من قول ، وحل الرجال اليه أكثر من رأى . . . فسأل عن عبد الموجود حمدان ، وعلم أنه لم يعد يزور الشاطئ في الأيام الأخيرة . . . فصمت واضطراب ، فإن عبد الموجود لم يزوره في مرضه ، بل هو لم يكلف نفسه سؤال رجل من عائلته البطي ؟ . . . فكيف يعمل هذا الأمر ؟ . . . وبهذه يحمله ؟ . . .

وكلمها صمت الرجال من حوله في انتظار رآيه ، كلما ازداد اضطرابه وقلقه ، لكنه راح يهون عليهم الأمر ، ويسمى في وجوههم متظاهراً باللامبالاة ، ويرسل المراسيل للتصوصل مع الخواجة سناكس لشراء شبكة جديدة غير التي ضاعت منه في الحادث .

لكن الحقيقة أنه كان أشدهم حيرة ، كان صياح الشبكة بالنسبة اليه كارثة تقسم الظهر ، فلم يكن هذه من المال ما يكفي لشراء شبكة جديدة . . ثلاثون جنيهاً منع ليس بالنيسر ، والخمواجه سناكس لا يعرف الرحمة أو العدل ، وقد طالبت المفاوضات بينها . معاوضات قام بها المعلم صادق حيناً ، والريس جابر حيناً آخر . . . لكنها نجحت أخيراً ، وأفلح الرجال في

شراء الشبكة على أن يسدد ثمنها على أقساط . ومنذ ذلك اليوم والمعلم محمد يضع فرحته بالشبكة الجديدة تحت مار هادئة لتتمدد وتشعل الخير الأكبر من تفكيره .

وقد حاول المحوز كثيراً أن يؤجل الحديث عن عبد الموجود حمدان الى أن يتضح له انصواب من الحق . فرغم ثراء عبد الموجود ، إلا أنه كان يحميه ، فممد خمسة عشر عاماً كان لرحل تباعاً من أنتاج لمنية . يرحج للصيد لفة ربع البرق ، لكنه تعبر مع الأيام ، وصمت ثروته - ولا يدري أحد كيف ! - حتى اشترى اثني عشر قارباً ، وأصبح لديه جيش من الرجال يعملون تحت أسرته . . . ورغم أن المعلم محمد كان يعلم ما يكره له عبد الموجود من احترام عميق ، إلا أنه وضع في اعتباره أنه رجل صلب لا يستهين به ، لذلك . . . فما أن خرج من البيت لأول مرة في ذلك الصباح ، يعمل شبكته الجديدة فوق كتفه ، ويذهب الى الشاطئ ، ويرى ما كان من ثورة الطبيعة وعلو الأمواج واشتداد الريح ، حتى يقن - في قرارة نفسه - أن الرجال سيصنعون المستولية كلها فوق كتفه ، فلم يجد ما يعانح به أفكاره وغاؤه وحبرته سوى الابتسم .

ما كاد يذلف الى المقهى حتى اختار لنفسه مقعداً في صدر المكان ، وجذب لريس جابر مقعد وجلس على يمينه ، وأحكم حمدة شالته الصوفى حول رأسه ، ثم فرك كفيه وصفى صدياً غليوة (خروسون) ، وفتح حمى بحوار محمود وسط الحلقة التي اكتملت حول المعلم محمد . . . وأخذ الرجال يتصايحون في مرح مصطط ، وصيحات غليوة تنمطى وتنسم وهو يطلب للرجال مشاربيهم . . . وسرعان ما انعقدت سحب الدخان في ساء المكان ، وكركرت الحورة ، وعلا صوت الرشقات ، وامتلاً الجو بدفء لذيذ بعث في نفوس الرجال بالثقة .

وعلى غير انتظار ، دوت في المكان صحيحة رجل وقف عند الباب . .
 الفارع الطويل ، ووجهه الأسمر المستطيل ، وشاربته العليقة الذي يمتد
 طرفاه فوق صدعين غائرين ، وورع يده بالتحية الى رأسه قائلاً بصوت
 جهوري :

« صباح الخير يا رجاله ! »

ثم انثفت الى المعلم محمد وصاح مرة أخرى :

« أنا سمعت يا معلمى أنك قمت بالسلامة ، وحياة مقام المرسى أبوا
 العباس ما كنت هنا لما حصل الى حصل ، ألف الحمد لله على السلامة ! »

نهض المعلم محمد لاستقبال لواءه الجديد ، ووقف الرجال جميعاً لوقوفه
 وأحدوا يصافحون الرجل في احترام مشوب بالحيرة ، وقدم المعلم صادق
 مقعده للنصيب ، وصفق المعلم محمد مادياً عليوة ، وطلب شاياً للرئيس عبد
 الموجود حمدان .

سرعان ما تجمع الرجال حول المجلس ، وجذبوا مقاعدهم من أطراف
 القفص وكل منهم يشعر أن شيئاً لا يبدى سيحدث ، وتلاعبت الأسئلة في
 لأفواه ، وارتسمت علامات استفهام كبيرة فوق الوجوه .

وأحسن المعلم محمد بالعيون التي أحاطت به الى إلحاح تطلب منه القيام
 بواجبه ، وأحسن أكثر بثقل المسئولية الملقاة على عاتقه . . . وكان يحترق يعلم
 نتيجة المشاحبة والمصادمة مع رجل كعبد الموجود لا يرحم إلا بالليل والكثمة
 الطيبة .

دار بصره في الوجوه ، فوقف عيابه على محمود ، وكان يتشاءب ، فانقض

وهو يتذكر أن ولده . . وأن كان قد بئر في الحضور الى الشاطئ . لم يبت ليائه
 في البيت . . . وعربدت الخواطر في ذهنه ، ثم اضطربت واستكانت عندما
 ربت عبد الموجود على فخذه عيباً ، فرفع يده الى صدره يرد التحية ، علماً
 صاح رجل من وسط الجمع على غير انتظار :

« إلا صحيح الكلام الى يقال ده يا معلمى ! »

وقع المظفور ، ولم بعد هناك مفر . . . كان واضحاً أن الرجل يوجه حديثه
 لعبد الموجود ، فساد الصمت تماماً حتى أحس الجميع بالضيق والخرج ،
 خاصة وأن عبد الموجود لاذ هو الآخر به وعلى وجهه ابتسامة نصف
 نصف . . على أنه دس سيجارة بين شفتيه ، وبعت دخانها في عصبية ،
 ومال على المعلم محمد وقال هامساً :

« حكاية ايه يا معلمى ! »

ضحك المعلم محمد وقال موجهها حديثه للرجل الذي سأل :

« طيب استنى على رزقك شوية ، هو حمرى جمرى ! »

ثم ربت على كتف عبد الموجود وهو يقول في هدوء ولا مبالاة :

« حكاية المراكب اللي يقولوا عليها . »

« كل شيء نصيب ! »

قال عبد الموجود ذلك . . . وسكن كل شيء ، وشغقت قلوب الرجال
 حصدت عاتية ، وكأنها عبد الموجود قد ضاق بالعيون التي أحاطته ، والصمت
 الذي لف المكان ، فعاد يقول مؤكداً حديثه :

« كل شيء بأمر الله ، كله بأمره ! »

وعلا صوت من وسط المجتمع المحتشد :

« وده اسمه كلام ! »

برقت عينا عبد الموجود ، وارتفعت رأسه في الهواء في تحد كأنها غشال من
الصخر ، وصوب عييه نحو محمود البلطى - وكان هو صاحب الصوت -
وصاح فيه بصير نافذ :

« فصدك ايه يا محمود ؟ »

وعاجله محمود بالرد في ثورة :

« قصدى يا بويأ أن ده ما اسموش كلام ، بروحوا احنا فين بعد ما نطلع
الركب دى ، نجوعوا ، نشحتوا ؟ »

وصاح عبد الموجود في دهاء :

« كل واحد ورزقه باين والذى ! »

وكانها ضاق الرجال بمراوغته ، فعلت المهمات ، وقال أحدهم في
عصب :

« حايقى فين الرزق ده ، اذا كانوا يقولوا أن المركب توسق أكثر من
ثلاثين طن مرة واحدة ... »

وقال رجل آخر :

« الكلام بالمقل يارجاله ، كله ينصلح بالتراضى ! »

وأحس عبد الموجود بالحلقة تضيق حول عنقه ، فزجر موجهها حديثه
للمعلم محمد :

« عاجبك كده يا معلمى ، عاجبك ؟ »

وعاد الصمت بلف المكان ، وأطرق المعلم محمد مفكرا ، وأحاطته العيون
في ترقب في انتظار كلمته ، وعبت عبد الموجود بطرف شاربه في قائق ، وعاد
يقول موجها زجرة الرجال وهمهاتهم وكأنه يتعجل الموقف :

« ايش قولك يابا محمد ، عاجبك الكلام ده ؟ »
وأخيرا ... أخيرا تحدث المعلم محمد ، فعمت الرجال - كالعادة -
بإسلاموا له القيادة دون تفكير ،

« ماهو ربك عرفوه بالمقل يا عبد الموجود ! »

« ودى فيها قلة عقل يا بويأ ؟ »

وأحد المعلم محمد يتحسس طريقه بحذر :

« ماهو احنا ما نعرفوش الحكاية كلها ، اتكلم واحنا نسمع ! »

أعتدل عبد الموجود وقد أدرك بذكائه الشريك الذى نصب له ، وكان عليه
قد وضع كوب الشاي أمامه ، هامتد يده اليه ، وأحد يرشفت منه على
مهل ، ثم قال في صوت ثابت :

« الحذوثة مش عايزة كلام ... جاني راجل اتجليرى اسمه « هوب » ،
وقال لي الحكاية وما فيها عاوزيك تشترك معانا في مركب صيد ، مركب واحد
يا معلمى ، مش أسطول . الراجل قال يا عبد الموجود أنت النص ، واحنا
النص ، والمكبس بالنص ... كلام زين ؟ »
وقال المعلم محمد في صبر وهو يمز رأسه :

« زين ... »

« هو قال لي كده ، قلت له يلزمكم كام ، قال خمس أنسوف ، قلت
ماشى ... الل ورايا وائل قدامى وحياة مقام المرسى ، دفعتهم واتركت
حل الله ... فيها ايه دى ؟ »

ولأول مرة يظهر العصب على وجه المعلم محمد البلطى ، عندما رفع وجهه
إليه ، أيقن الجميع أن اللحظة الحاسمة قد دنت ، ونوترت على الفور
أعصاب الرجال ، وتحفز البلطية ... وحتى هذه اللحظة كان المعلم محمد

يراوغ نفسه ، ويهرب من أفكاره متعللاً بأى حجة يصادفها عقله ، لكنه لم يتصور أن الأمر قد وصل إلى هذا الحد ، كان يمنى نفسه باقناع عبد الموجود بالعدول عن مشروعه ، لكن كلمات الرجل وضعت حد فاصلاً بين الغش واليقين ، كما أدرك أن ولده أسلم المركة بتهوره واسترساله في العصب ، فلا مجال إذن للتردد :

« والرجاله دول ياعبد الموجود ، ياكلوا متين يعد هملتك دى ؟! »

« كل واحد ورزقه بابا ! »

« وقتها حاتمعلوا السوق بالسملك ، والتاجر له اللى يسعده ، واللى يرخص

له ، واللى بدى له سمكة كبيرة ! »

« كل واحد وشطارته !! »

وزعق رجل وكأنها الكيل قد قاض به :

« واحنا يا ريس عبد الموجود ... وولادنا ؟! »

« وينما ينشاش حد ! »

كان المعلم محمد قد أعاد سيطرته على نفسه مرة أخرى ، فقال في صوت رائق هادئ ، وفي لهجته رنة عتاب :

« لكن أنت نسيتنا يا عبد الموجود ! »

وأحسن عبد الموجود أنه وقع ، ولم يكن أمامه سوى سبيل واحد للفرار ، فأشاح بوجهه بعيداً عن المعلم محمد ، وشوَّج بذراعه في استهانة ، وقال كس ضايق بالأمر كله :

« ماحدث بيحوش رزق حد ! »

كان من الممكن أن يمر الأمر بسلام ، وأن ينتهى أية نهاية لو لم يفعل عبد الموجود ذلك ، غير أنه كان يعلم أن فعلة كهذه لا يمكن أن تمر ، وكان له ما

أراد ، فما كاد يفعل ذلك حتى استشاط البلبطية عصباً ، ونهض محمود من مقعده ثائراً وهو يصبح في اتمعال :

« عيب عليك تشويخ فى وش المعلم محمد البلطى يا عبد الموجود ! »

ونهض حنفى هو الآخر متحفراً ، وتوتر الجو وتكهرَّب ، وراى الصمت فترة ، انفجرت بعدها ضوضاء لرجال وهم يتحرمون لأمر حبيب وكما فعل عبد الموجود فعلته وهو واثق من نتيجتها ، راح يتلقى لثورة بالأسلوب الوحيد الذى كان يعلم أنه كالماء الدرد ، يقتل من حرارتها أن م يسعح اطفاءها ... قال في صوت خافت وهو يحمض رأسه إلى الأرض :

« مقصديش يا ابنى وحياة البسى ! »

وعاد محمود إلى الصباح مرة أخرى :

« أنا مش ابك ، أنا ابن محمد البلطى ! »

كان واضحاً أن محمود فقد أعصابه ، ولم يكن باستطاعة أحد أن يتدخل سوى المعلم محمد نفسه ، لكنه ظل صامتاً يرقب المعركة بين الحبيب ، وزاح عبد الموجود يسيراً في نفس الطريق بلا يأس ، فدل في صوت ناعم :

« عيب يا محمود ، دانا مربيك وشابلت على كنى ! »

وزجر محمود غضباً ، وخطأ نحوه خطوة وهو يقول في محمد

« وأبويا ربك وشخالك صياد وبنى آدم ! »

أبش المعلم محمد أن عبد الموجود أفلح في الحرب كما أبش أن ولده أسلم مرة أخرى - قيادة المعركة بتهوره واسترساله في العصب ، فصاح عاصواً الاسك بطرق الحديث من جهيد :

« أقعد ياواد بلاش كلام فاصى ! »

لكن عبد الموجود لم يكن من العقلة بحيث يعلت من يده حيط المبادرة ،

والرغم من جلوس محمود ، لا أنه أبى أن يفلت تلك الفرصة لهدية ! سلمه له ، فبعض من مكانه وهو يعدل من وضع شالته ، ويرى الماحر حذقه ، وتظاهر بالمضب وهو يقول محدثاً المعلم عمداً .

« آتى التشنمت فى مقامك بالمعلمى ، معلش ، برضه محمود زى أحد الصغير ... سلام عليكم ! »

واندفع يشق طريقة نحو الباب غير آبه بالصيحات التى راحت تطلب من الجلوس ، وسأ أن استقبل الضوء البارد فى الخارج ، حتى ابتسم ابتسامة واسعة ، وارتاحت ملاحظة فوق صفحة وجهه وكأنه تخلص من عبث ثقيل . بينما كان حو المفهى مشجوعاً متوتراً ، والرجال صامتين وحيين وأحد الصمت الكتيك يصعب على أعصابهم لحظة بعد أخرى ، ولكن مطرق ساهم ، حتى صاح أحدهم فى صوت كالمويس : « عليه العوض ومنه لعوض ! »

ورفع المعلم عييه الى ولده فى حجرة ، كان يحسب حساب هروب عبد الموحود ، وكان يستطيع لو أراد أن يلقه فوراً لائسائه ، وقد حمد لولده أن حاجاه فى البداية بحاجة رجل لرجل ، كلمة تعنى عن عشرة ، والذين أفصل من القسوة ، لكنه فقد أعصابه ، وأعماه الفرصة للمهرب طوب لعجوز شديداً ، ثم أشعل سيجارة وراح يفكر وقد أعياه الأمر ... ثم أتته من ستغرافه عندما قال المعلم صادق :

« العمل ايه يارجالة ؟ »

فرد أحدهم فى نبرات يائسة :

« العمل ؟ ... لعمل عمل الله بالمعلمى ! »

وعاد الصمت يلف المكان مع يأس عميق تسلل الى نفوس الرجال ، كانوا

ضمن وقعو فى مصيدة لا يجنون منها مفراً ، فراحوا يتحبطون على غير هدى ، كذلك كدت أفكارهم تتحبط فى كل اتجاه ، تشرق وتغرب وتضرب أحاسيس فى أسداس ، ثم ترتد فى عجز وجيرة ... وأخيراً قال واحد منهم :

« ما هو لازم ... لازم تشوبوا حن بارجلة ! »

ابتسم آخر فى مرة وهو يتساءل :

« هذك أنت حل ؟ »

وصاح محمود البنى على غير انتظار :

« أنا هدى حل ... شترتك ... »

ثم توقف عن الحديث صدى ستدارت نحوه كل الرؤوس ، وبدا البعض الى الأمام ، والبعض الى خلف وراحوا يحتمسون فيه ، وانصبت عليه نظرات والده العذبية ، وأحس بنظرات حنفى تلهب صدغه ، فتنبجج ، لكنه قاوم ، وتباكاه وقال فى اندفع :

« تشترتك كذا ونجيبوا مركب ! »

انفرست نظرات الرجال فى صدره كالتصال ، لمح على وجوههم خيبة أمل واستهانة آدمت فؤاده ، وقال أبوه فى مسخرة :

« عارف المركب ثمنها كام يا معلم محمود يا بلطى ؟ »

ونكس محمود رأسه ، بينما استغرد أبوه فى سفرينه اللادعة :

« حذاك عشر ألوف تشتري بيهم مركب ؟ »

تمس محمود لو اشتقت الأرض وابتلعت ، هوت كدمات والده لبردة على دمهائه الساخنة لجمدتها ، أحس بالمراة تندلع فى حقيقة ، وصاف بكل شيء ، وخطرت بباله كابد هم فارتحف ، وتحدث حنفى لأول مرة منذ بدأ الحديث ، فجاء كلامه برده على قلبه ، ولكن أنشمت كلماته الحرج الممتدة ، أنه لا يصلح ، لا يصلح أن يكون صيدا ... أبداً ، لا يصلح ،

قال حنفي في حدود شديد :

« محمود معاه حق بابا محمد ، يعني الحكاية مش حاتيجي بين يوم وليلة برضه !! »

« بابا الرجاله موجودين ، وايد لوحدها منصف مش ، فكروا في حل بابا ، لازم كل واحد يقول كلمته ... وبعد يوم ، واتنين ، وثلاث أيام لازم موصلوا لبر ، ونرسي لنا على شط ... والا ايه يارجاله !؟ »

كانت كليات حنفي كالمسحر ، أحس كل رجل أن أمامه فرصة ، ومدة كليات حنفي أمامهم بساطا يستطيعون السير فوقه ، وعلى مهل ... لذلك ، فسرهم ما عدت أصواتهم وتناوبت ، وما أن مرت دقائق ، حتى حيت المناقشة ، وعاد النشاط يدب في أذهانهم ، وعاد عليهم ينادي على طلباتهم ، ويسري في الخوض وحاس ... بيضا غرق حنفي في التفكير .

كان يعلم تمام أن الحل ليس بالأمر اليسير ، لم يكن في ذهنه فكرة محددة عما يريد ، أبقت كليات محمود في صدره إحساساً بالحرج دفعه لأن يدفع عنها ، هل كان على حق فيما قال ؟ ... سيفضي الرجال صياحهم ، وزي امتدت جلستهم إلى المساء ، وهم يتناقشون ويثرون . في قلبه غصه ، فهو يعرفهم جيداً ، تجمعهم يدفع بضمائنية إلى قلوبهم ، وبعد ساعات سيسون الأمر كله !! ... ويسلمون أمرهم لله .

لو كان أبوه حب لوحدها الحل في كلمة ، هكذا يقولون دائماً ، لم تقف أمامه عقبة ، ولم تحيره مشكلة ... غير أنه يفكر ويفكر دون أن يشعر على حل ، أصبح كل شيء معقداً وكان جدر أقبح أمامه فسد عليه كل مخرج ، ثمة شيء في أعماقه يصيح به أن لابد من حل ، وكل مشكلة وما حلال ، ولكن مشكته ليس هذا شاطئ ، توسو عليه ... تقسيم الشاطئ أمر ماذج ، وشراء سفينة أبعد من نجوم السماء فكلهم ففرا عن باب الله ، فكيف قد ما قال ... صحكوا من محمود عندما ألقى إليهم باقتراحه ، لكنهم لم يضحكوا منه عندما رد نفس الكلام ... غيب محمود أنه يفكر بقله

« قصدي بقول أن قدم عند المرحوم بالقبيلة سنة على ما تيجي المركب ... وفي السنة دي يجيها ألف حلال . »

اتلمت عيون الرجال ما فيها من سخرية ، ثم أطلت منها حيرة ارتسمت على تقاطيع وجوههم ... وقال رجل :

« قصدك ايه يا حنفي !؟ »

« قصدى أن عند الموجود كان صياد زيبا بالقارب والمحدثات . »
صباح حمودة كأنه غريق يطلب المجددة

« بس عبد الموجود معاه ألوف يا حنفي ، ألوف عملها في خمستاشر سنة ، وعملها من كل باب ، من كل حنة تجلب القرش ! »
ورد حنفي وهو يميل نحو خاله :

« عملها في خمستاشر سنة يا خالي وكان بدراعه ، واحد كثير ، احنا أكثر من ستين راجل وأربعين قارب ، لو كانت قلوبنا على بعضها بعلموا حاجة ! »
« زى ايه ... حاجة ايه يا حنفي ! »

قالها الرئيس محمد وقد عادت إليه الضمائية ، فاستدار حنفي نحو عمه .
وقال وهو يلوك الأمر في ذهنه :

لابعقله ، بمسك حقيقة يديه ولا يعرف ماذا يصنع بها ، وإنما يعرف كيف يعيها . وعاشقة في البيت تنتظره بحدثيها اللاذع ، وكرامته تتمرغ على الأرض دون أن يستطيع أن ينفخ عنب السراب ، هل يحدث المعلم صادق ؟ . . . وإذا يقول عنه الرجال لوفعل ؟ . . . يترك المصائب لهم ويبحث عن هروس ١٩ . . . ماذا جرى لعقله ، لماذا يشعر وكأنه مشرول عن مشاكل الدنيا كلها . . . الرجال يثرثرون وشاقشون ولا يخرج . . . ما الذي كتب عليه ١٩ . . . لو حقق عبد الموجود مأربه لنشردوا جميعا ، لما وجدوا من يشترى سمكائهم . . . ستفلق سفينته وتعود بحملة بصيد لم تره عيونهم ، سيصعب صيدهم في طوفان الرزق الذي سيفرق به عبد الموحود البلاد . . هل كان على حق فيها قال ١٩ ؟

— ١٧ —

همست زوجة أحد الصيادين في أذن جرائعها :
 « سمعتي ياختي الي يقولوه ؟ ! »
 طهر الاهتمام الشديد في عيني الجارية وهي تريح طفلها الخالي عن حجرها ، وقالت في همة :
 « خير يا أم على حصل ايه ١٩ ؟ »
 مالت أم على حتى كادت شفتاه تلاصقان أذن صاحبتهما وهي تهمس :
 « آل ياختي شافوا حصى البلطي وهو طالع من اليه بعد نصف الليل ومعه حبيه ! ! »

حبطت الجارية صدرها بكعبها ، وبرقت حينها وهي تقول في جزع :
 « ياهاوي ، ماهو أبوه عمل كده ، وكذا . . . شجيت معاه تحت المياه ! »
 وثلاثة أسابيع بطولها ، لم يكن زوج الصياد له سبانه من حديث سوى حكاية حنفي . . . كان الحديث عن السفينة قد بدأ يفتت ، وكتب مريم أحسن الرجال أن أعاقهم بحادثة بأطوق من حددت تحت بهم نحو هاوية لأقرار لها ،

أندهم وأثار جدلهم ووقع هوى الحيرة ، بحس أنه كالأعمى الذي تحبط في طريق مزدحم ، ماذا كتب عليهم جميعاً ؟ . . . حالهم يحذر من سبي ، إلى أسوأ . . . ورجل منهم يضع كفه في كف الغريب ليقتلهم . . . لا بد من حل . . . لا بد من مخرج . . . ولكن أين ١٩ ؟
 هل يذهب إلى الصحرة ، ويصرح صادقاً أماء ؟

واستولى اليأس على أعضدهم ، واستودت الدنيا في وجوههم . ولم
مناقشاتهم العديدة في المفاهيم والبيوت وحتى في العز ، إلا أنهم لم يستعدوا
أن يجدوا حلاً للمشكلة .

كان عبد الموجود حمدان قد احتفى تماماً من الشاطئ ، وأعلى رجائه من
رعبته في بيع قواربه ، وراحوا يقضون أيامهم منسكبين فوق الرصيف وعلى
المقاهي وفي العز يشربون الخليل عن السفينة وعلى متجلبه هم من
حيز . وعن أجورهم التي يقصونها رغم أنهم لا يؤثرون عملاً ، وقدس
بعضهم - نابهر من عبد الموجود - فتحدثوا عن الخطابات التي يرسلها
الخوفاة الانجليزية الى المعلم عبد الموجود ، وعن توصيته له بأن يدفع أحد
الرجال دون انقطاع ، بل وأن يبحث عن رجال جدد يصممون إلى طاقته
السفينة

وفجأة انقطع الحديث عن عبد الموجود وسفينته ، انقطع عند
هم أحدهم في أفن صديق له يبحر حتى والحية ، ولم يستطع الصديق أن
يحمل الخبر وحده ، فمعه إلى آخر وما إن عرفت شمس ذلك اليوم ،
حتى أصبح الخبر محور كل كلمة تقال ، وكل حديث يتصل بين الرجال

حتى رجال عبد الموجود راحوا يشاركون في الحديث برهبة وخوف ،
ويسألون صاحب الخبر عما رآه وكلما تحدث الرجل ، كلما ابهر
الباقيون . . . وعلى غير انتظار ، افتتحت أمام الجميع طاقة الأمل ، فتلقوا
بها وكأنهم في حلم

حدث الأمر عندما أرسل الرجل ولده ليشتري طعاماً بعد عودته من سهرة
قصاها مع الصحاب ، وكان يقطن بيتاً قريباً من الشاطئ المهجور بالقرب

من صخرة رأس لتين . . . وما كاد الطفل يعاود حارة السعدوي ويستقبل
الشاطئ ، حتى لمح شبحاً يطفو فوق سطح المياه ، فذه في البداية أحد
تلك الصادق التي يقذفها الموج بين الحيز والحيز اثر عاصفة هبت فانتقلت
أموالها إحدى السفن ، كانت هذه الصادق عادة ما تكون عملة بالصانع
التي يجدها رجال الساحل فيها ما يدخل على حياتهم الهجعة لأيام قد تعول أو
تقصر حسب قيمة ما فيها . . . تدفع الطفل نحو الشاطئ تحب قدماء في
الرمال الممتدة على طول الساحل وهو يمس نفسه بصيد ثمين ، وأخذ يقترب
حتى لاح له الشبح من قرب ، فراه على هيئة إنسان ، وجف في البداية
وانتانه للذعر طأ ما أنه لاند وأن يكون أحد ملوك الخان الذين يسكنون قاع
البحر ، لكنه سرعان ما استطاع أن يميز - في ضوء القمر - وجه حنفي وهو
يقادر المياه ، فتوقف مصعوقاً للحظة ، واستولى عليه الذعر ، وتذكر كل
ما حكى له عن آل البطي وسرههم الذي يكتمونه في صدورهم ، ويوقفونه على
أفراد عائلتهم فاستدار في حذر كالحمد وهو يقتلع قدميه من الرمال في
صعوبة ، وأخذ يجر جسده ساقه وجسده يرتجف ارتجافاً شديداً متصلاً ، وشبح
حنفي عند الشاطئ يملأ صدره بالذعر . . . وما أن ابتعد قليلاً حتى أطلق
ساقه للريح ، وظل يجرى بكل قواه حاسماً في صدره صرخة هائلة أطلقها
عندما حظ الخطوة الأولى ودخل الحارة ، ثم تبعها بصراحت ملاحقة سمعها
أبوه ، فاندفع الرجل إلى الخارج متلقياً بين ذراعيه جسد ولده المتهلوي ، وعثا
حزون في البداية أن يهمهم منه شيئاً ، كان الطفل يرتجف ويرتجف وقد عاص
لونه وأبيض عياده من فرط الرعب ، على أنه استطاع بعد لحظات أن يطلق
اسم حنفي البطني ، ثم الجلبة ، ثم الشاطئ . . . وراح يرتجف من
جديد ،

وكان هذا كافياً لبحث الأرواح في دهر الأرواح ، فسرعان ما حمل ولده إلى

الدخول ، وبهر زوجته الباكية المولولة ، وانطلق الى الشاطئ ، وصدره يفور به فيه من أحاسيس .

كان حديث ابن - حتى ذلك الحين - بالسبة اليه غامضاً ومثيراً في ذلك الوقت ، لا يخوض فيه الا بمقدار ، ولا يتحدث عنه إلا بكنيات لا تغم ولا تنصح عن رأى . لكنه ما كاد يستقل الشاطئ ، في تلك الليلة ، حتى نبع شبح حنفي متصباً وسط الريح الباردة ، عارياً كما ولدته أمه ، تتساقط عليه من جسمه الجبل ، وجهته البحر العريض ، وظهوه الى الشاطئ . . . كان حنفي جامداً لا يتحرك وكأنه مشدود الى المياه بقوة سحرية ، وسدا للريح طويلاً أكثر من المعتاد ، عريض الكتفين كأنه عشرة رجال ، شامخ الرأس كإله قوى قادر على احضار ذلك الموج العاتى لذائعه المائلتين !

راح الرجل يتحسس طريقه وسط هياكل القوارب القديمة الملقاة على طول الشاطئ ، حتى أصبح له وبين حصى خطوات معدودة ، وهمت موجة عاتية ورحمت مياهها فوق الرمال حتى لانسدت قدمي حنفي الثابتين وعطفتها دور أن يتحرك هذا أو يظهر عليه أنه شعر بها . كان يجمع في الاطلام العيب كأنه يرقب أحداً لا يزال هناك . وسرى الخوف والدعر فعلاً قلب الرجل وظل عكده جامداً لا يتحرك حتى ارتدى حصى ملاسه على مهل ، ولف رأسه الكبير بلاسته ، ثم استدار ومضى في طريقه الى المذبية . . . وظل شحبه العملاق متصباً أمام عيس الرجل حتى انتهى . . . ووقتها فقط ، استطاع صاحبنا ان يتحرك من مكانه ، وأن يمشى الى بيته .

ووصل الخبر الى كل أدن . . . وازداد الحمس بين الرجال وهم يكتفون الأمر عن أفراد البلطى ، وراحت غيلاتهم تنسج وتسي وتشيد ، حتى استفر اليقين في ادهان الجميع أن حنفي لا بد صيغع شيئا . . . لا بد أن يحرق

روحته وأولاده الساكنين في قاع البحر على اغراق السفينة قبل وصولها ، أو يطلب منهم أن يثيروا عاصفة هوجاء تودي بالسفينة ومن فيها . . . وساعة بعد ساعة ، ويوماً بعد يوم ، أخذ الحديث يتشعب وتولد له أطراف جديدة . . . ومن رجل إلى رجل كانت الحادثة ترداد عموماً ، وتضاف اليها أحداث ! !

تذكر أحدهم أن حنفي صرخ في ذلك اليوم الذى هرب فيه عيد لموجود من المقهى الزجاجى أن هلاك حلاً ، وعندما سأل الرجال عن اخي لم يفصح . . . ثم تذكروا جميعاً ما حدث بعد ذلك ، فقد نهض حنفي بصحبه محمود واحتفيا طيلة النهار حتى ظهرا في صبيحة اليوم التالى . . . وقال أحدهم وهو يحيط ركنه بكفيه :

« أيوه نى فاكى كريس ، محمود راح لبوطة بعد نصف الليل ، وحصى ماكانش موجود . . . يبقى كان فين يارحانة ؟ ! »
ومصوا جميعاً في الحديث متحمسين متبشرين بذلك الأمل الذى بدا لهم وسط كتل اليأس كمصباح باهر في ليلة حالكة السود .

وحتحت لشاطئ موجة من الأمن أعرفت لتعوس ، فبت الرجال - مؤممين بظنهم أشد الايمان - ينتظرون حلول الفرج بين يوم وآخر ، وقد ران على نذرهم رضا لم يعهده فيها منذ أيام طويلة .

وأصبوا بعد ذلك باستلام شديد ، وتبدل حاجهم من اليأس الى الأمن ، وزحفت الاشجاسات عن وجوههم من جديد ، وتعبرت بطونهم لال اللطى . . . حتى تحببهم لحصى وللرجال ارفاق رحو يعمرها عليهم باحترام شديد ، ويقابلون عجب حنفي ودهشته ، بظرة من يعلم بواطن الأسور ، ويقولون لبعضهم فى همس : « ما هو مش عاوز حد يعرف أحسن تأديه رى مادات أبوه ؟ ! » . . . حتى عندما صاح حنفي في بعض الرجال ذات مساء :

« أنتم ناييمين يدرجالة ١٩ ... ايش قولكم في اللي حاصل ده ، الأنا
بتحرق وانتم ولا هنا ، آنى سمعت أن عبد الموجود قال إن المركب واصل به
شهر ! »

بومها صباح فيه أحدهم
« المركة فيت يامعهم حتى ! »

وكانت هذه المرة الأولى التي يقرن اسمه بلقب معلم من رجل في مثل هذه
أو يريد ، وقد بهت حنفى وأخذ يحلق في الرجل مغيط ، ثم صاح في
صينق

« قصدك ايه يا ابن أربوا ، ايد لوحدها ما تصقفش ، لارم تنقفوا عن
حاجة ! »

وصاح آخر في مرج وحساس :
« كلنا رجالتك يا ابو الأحاف ! »

وبعد صبر حنفى ، وكنت ملاجحه سحابة بأمر شديد ، فأشاح عنه
والتحق جانباً وقد عرف في أهم وعاد الرجال - مطمئين - إلى ما كانوا فيه
وقد ازداد استعدادهم لالقاء المسئولية على كنفى حنفى ، بل على غيب كانوا
يقدمونه ...

حتى رجال الرقاف سرت اليهم العدوى ، وأصيحوا وكأهم سوا كل
شيء ، وعادت الحياة تسير سيرتها الأولى وكان شيئاً لن يحدث .

وكلما بدا حنفى مطرقاً صامتاً قليل الكلام ، كلما أيقنوا أنه لابد يدبر الأمر
أو ينتظر التنفيذ ، وأهم سيصحبون ذات يوم ليوجدوا المشكلة قد حلت
وكأهم كانوا يحملون لا أكثر كيف لا ، وعمود المنطق عاد سيرته الأولى

ولم يعد يزور الشاطئ إلا لماماً ، ولم يعد يناقش كما كان يفعل في
البداية .

ثم حدث أن أقترب أحد الرجال من حنفى وسأله باسمها :
« مالك يا حنفى كفى إلى الشر ؟ »

ويقسم الذين حضروا تلك الواقعة ، أن حنفى لم يفعل شيئاً سوى أنه رفع
عينه إلى الرجل ، ثم انطلق منه صوته باهر !

ولم يذكروا ، بل لم يتذكروا أن حنفى هض صارخاً :

« ملعون أبوكم ، انتو عاودين تأكلوها بالساهل ١٩ »

وان الرجل لم يشر لثورة حنفى ، بل ضحك وهو يتغامز مع أصحابه
غمزات من يعرف السر ويطلع على لغيب !

وقد ضاق حنفى يوماً بكل هذا ، فهض لاعنا ومصص في سبيله ، وما
كاد يتهدد خطوات ، حتى علت صيحكاتهم وصككت أذنيه ، فنهج إلى الوطة
لأيلوى على شيء !

لنم زواجها . . . توقفت الحيلة على لشاضى ، وفى لرفاة وكان الناس
يتشربون فيام الساعة ، ولو كان الأمر بيده لقتلت عبد الموجود حداث
وأراحت الرجال به ، ولو كان بيدها لقطعت لسان عائشة وأزاحت من
عمزها ورفها . . . ورغم كل ما حدث ، رغم كلمات حصى ، ورغم به
كشفت سرها وعرفت ما بينها وبين السيد أمدى ، فهي لم تكف ، ترجف
كألأعنى متلصصة الى كل مكان توجد فيه ، وتعث فى الهوة كتباتها كاندسه ،
وبلا حقا بالتلميح أبها دعت ، وترسل الخوف الرهيب فى قلبه بلا وجه ،
ولا تكف عن تعذيبها . . .

منذ أيام وقف حصى - وكأنه أحسن بعداها - وسط الماء وألقى عليها
التحية بصوت رنان ثابت وكأنه يعلن حبه للجميع ، مذ إليها يده مبتسما -
لكن بتسمته كانت ما تزال منكسة ! - وانقط يذهب وراح يطر فى
عبيها . . . وتمرت لحظة سقطت بعدها كلمات عائشة فوق رأسها
كالطارق . . . تسببت كعادتها الى السماء ، ووقفت تنظر إليها تبتسم فى
حس وهي قائلة :

« أنت لسه هذى يا أخويا . . . آنى بنحببك اتوكلت ! »

وارتجعت هي ، حاولت الصراخ . . . لكن حصى تشبث بيدها ، ورفع
عبيه نحو أخته ، وقال فى صوت بانر :
« فيه حاجة يا عيشه ؟ »

واندفعت عائشة نحو الحما وهو تتمش ، وغمصت بكلمات لم يسمعها
أحدما ، وتبسم حصى فى تنهار ولا مبالاة ، وصمطت أصبعه على يدها
فى قوة ، وثألت ، لكنها تستعذبت الألام فتأوهت متسمه وهي تقول فى دلال

« ايدى ياسى حصى ! »

— ١٨ —

رغم كل شيء ، كانت روبة سعيدة ، فلم يعد هناك شك فى أن حصى
يحبها - ومنذ تلك الليلة التى حملها فيها الى الحجرة الخالية ، والديا قد
اكتست فى نظرها بأرهي ألوانها ، وتغطرت بأجل روائعها - أجل أوقدت
بناك التى تحتل فيها الدخول فى حجرتها الجديدة ، تسلس إليها فى اللبر
أو لهر ، تقع فيها وحيدة إلا من حياها المعريد الأثر تعش لحظات وهي
بذاته يذكريتها ، يذوق رأسها بين كعبيها ، وتقل يديها وكأني نقل حصى ،
تقتص أصابعها وتلوك لسانها وكأنها تستحب ريقه العذب . . . تنسجت فى
بلك الديلة انماسه ، فلم تغارقها والحة رغم مرور الأيام الطويلة ، راحت
تتحول فى فراغ الحجرة بعينها ، وترتب بحياها أثاث بيتها الجديد ،
وتعلم . . . وفى أحسن كانت تعيش أعذب أصابعها وأحلاها . انشعب
الحجاب ، وهوى الخائط الذى كان يعصلها عنه . من فى الدنيا يفوقها
سعادة ؟ . . . كيف يحزن الناس كل هذا لحزن من أجل سفينة صيد
جديدة ؟
لماذا يعيشون وكأنهم فى مأثم ؟
لولا أساء تلك السفينة

حفف قصصه ثم قال

« أنى مش ناسى بازويه ، لما الحال بتعدل حانكلم أبويا صادق ورب عاد
الى فى قلبى يابى خالسى ؟ »

بتستم ولم ترد ، زعزعت لدماء فى عروقها ، والنهت وجنتها .
فحففت عيبتها فى خجل حقيقى ، وعاد صوته يدغدغ أذنيها :

« ايش قولك يارويه ؟ »

« القول قولك يابى خالسى ، أنى خدماتك ؟ »

جذبها نحوه فى جسارة وهو يقول مداعبا :

« وبعدده معاكى يابى ؟ »

« وبعدده معاك انت ... يسو ! »

العريب أنها هى التى جذبت يدها من يده ، واسها هى التى فرت وتركته ،
ولو طارعت قلبها لمادت إليه وأعددت كمها الى كلمه ... لمادا نتدلل ونحرج

نعيش أجل أوقات عمرنا ، ألا يضيّع دلالة لحظات من الممكن أن تسعد
بها ... أكانت تدعوه عندما فرت الى حجرها ... لا تدرى ، وأد

كانت تدرى عن يقين أنه لن يتبعها ... الحياة بين عينيها وعمر لا تعرف النساء
حلاوته ... كيف تفكر وكيف تحسب يوم تشعر ... توقف كل شيء

حواها ، وأحست أنها تسبح فى انصماء وقد انتشت روحها بالسعادة و ...
ولدة عريضة تسللت الى جسدها ... وما عاد يحميها أحد ، حتى

عائشة ... فعندما قابلتها فى الفناء بعد ذلك واجهت عيبتها فى جسارة ..
واكسرت عينا عائشة فى ذلك ليوم ... فلم تتركها ، بل لاحتها بعد

لحظات وسالتها بانتسامة عابثة :

« مالك يا عيشة ، أنى شابفاكى اليومين دول ياحتى زى اللى فى قلبك
حاجة عاوزه تقوليها ؟ »

رفعت عائشة اليها عيبن يطل منها غضب وثورة ، ورسمت على شفتيها
ابتسامة صغرى ، وتقدمت منها خطوة ثم قالت متحدية

« ولا حاجة يابى خالسى ... بس يمسى ... »

« بس يمسى يه ؟ »

« يمسى »

« عيشة ، عيب عليك للعامل دى ! »

« ومش عيب عليك تحطى أحوى منى ؟ »

ارتجف قلب زويه ، ثم هذا ... وصعدت من أعقابها ابتسامة هائلة
ارتسمت على وجهها ... لكن ، لنفس ما تقول ، تتركها لسواها

تأكلها ... ولكن ، لماد تتركها ؟ ... لمادا لا تنقسم ؟ !

الدنيا حية رغم أنها وأثف عبد الموجود حمد ، السيد البلقى مسبح
جدها عن قريب ... كثيراً ما تسألت ، كيف ينجب أعظم الرجال هذه

لأقصى ؟ !

« هو أنى جريت وراه يا عيشة ، ابن خالسى ويسلم على ، واس
مالك ؟ »

« أحويا ! »

« اسم الله ، أهو عندك ، حوشيه لو قدرت وابعدى عى أنى ! »

من أين جاءت بكل هذه السحرية ، كيف نطقت هذه الكلمات ؟ بد
لما الأمر عريب ، وان كان الأعرب هى تلك انشوره لى كاد ، حسها

شعرت برغبة شديدة فى الضحك ، بل فى الصاء ، وقد لدها ، ان
الموجود حمدان ، وصمعه ، والنصقى فى وجهه ... توتنها عائشة دون كاد ،

ووقفت وحدها وسط الفناء يرتجف جسدها بأبى انمعدل ... ررلا وهى
تبعث عائشة ، دلفت الى الحجرة وألقت لتحية على خالتها وجلست بحجروها

وراحت نهر ساقبها وتبتسم في استهانة ثم أخذت تحدث خالتها ،
راحت تثرثر وتثرثر وتصحح وتحدث ... حتى سألتها عائشة :

« مالت مفرقة النهرادة قوى كده يا زويه ؟ »
فردت في جسارة :

« يوه ... رب يديم المعروف يا عيشة ! »
« آلى واكل عقلت ... »

« يسهى به ... ربنا يسيه ويسعد » اسم الله ! »
وضحك حالتها وهي تقول :

« والله انتوا فايقين يا بنات »

ولا تدري كيف مضى ذلك اليوم ، مضى دون أن تتطرق إلى التمر
شعلت فحاه في قلبها ... ومرت أيام ، وازداد اضطراب المار وكان أحداث
الحياة طيب يزيد من حرارة حبها ودماؤها ... هموم جاءت فوضعت فوق
هموم ، شح الصيد أسبوعاً ، وعاد حومة المرض ، ولم يتغير في الحياة
شيء ، السيد أفدى يروح وتبقى ، يعود حموده وأم حنفي ويخالس الرجال
ويسهر في الزقاق وينهاشم مع عائشة ، فلماذا تقتل حبها ، وتحمل الهمة
وحدها ؟ ...

تلصصت ذات يوم لتسمع همس عائشة مع السيد أفدى فاصطدمت
قدها بكوز منق على الأرض ، فاعترا قبل أن تسمع شيئاً ، وجاءتها عائشة
وق عينها غضب هائل :

« زويه ، آتى بينى وبينك حاجة يابت خالتي ؟ »

كانت تصرخ كالجنونه وكأنها فقدت وعيها ... وفاتت زويه بصوت
هادئ :

« ليه يا عيشة ، هو آتى عملت لك حاجة ياختى ؟ »

« لأما عملتيش ؟ الكوز هو اللى عمل ... تكوينيش فاكدة كل الناس
ربك يا أم عين قارحة ؟ »

« عيشة ! »

« أسم الله عيني ياختى ، مالت ، خوفتيني ! »

« عيشة ؟ »

نشد صبرها ، وانذلمت نار العذاب فحرقته مؤذنها ، وراحت تطر
لعائشة وهي تتأود وتصيح وتصب عليها غصب كالطوفان ، كانت تصرخ
وتسب وتلعن ، فنادا نصمت ، وما الذى يسكتها ؟ ... هلنسها وتلعنها
هى الأخرى ، فمخاف ؟ ... لا بد إذن أن فى الأمر شيئاً ، والا ، فما
الذى أثار غضبها ؟ ... لنهوى بكل عيظها على حديد عائشة ، ولتحمّل
صعقة كلها ، ولتشد شعرها ، ولتحمّل شد شعرها ... بحيفة كالصرصار
لكها فى قوة غول ... صراحتها يعلوا فيملا الرقاق ... وللصراخ لذة ،
وللدموع لذة ، وللعراك نشوة ... انقلب الدنيا ولطقت البيوت سكانها
وامتلأ الفناء بالساء ، عطيات وزغذاته وحسنيه وأم محمود و ... وكلهن
كلهن تجتمع ، والدماء تسيل من أنفها كما تسيل من فم عائشة ، أعذب
أمانيتها أن تقبل الآن ابنة خالتها وتبقى على صدرها وتقول ها ، احب
لبعض يا اختى ! ولكن ... كيف تفعل وصراخات عائشة تدوى ، فلتدوى
صراخاتها هى الأخرى ... يسألونها من السبب ، فهل تقول ؟
لتصرخ فيهم قيا أعظم لقوة وألذها :

« أسألوها أم لسان طويل قليلة الأدب ! »

ويسألون عائشة ، فتسكى فى أستكابة ودلة وهي تقول

« لله يساعلك يا زويه ، كده برضه ؟ »

وارداد اضطرام لبار في قلب زويه ، كادت تجي وهي ترى الشرك الذي
نصبت له عائشة بدكانها ودهانها . . . قالت أحدها :

« ليه كده يارويه ! دى عيشة حتى مكسرة ! »

وصرحت رويه ، صرحت ، صرحت

« أسألوها . . . أسألوها . . . سيوى في حالي ! »

وعادت تصرخ ، وتكفي ، وتمرق شعرها ، وتعلم خديها . . . وتسمع
حالتها وهي تقول بصوتها الثاقب :

« أنتى مجنونة ياب ، ايه اللى جرى لك ؟ »

وتصبح بكل صوتها :

« أنتى يا حائلى ، أنتى مجنونة ؟ »

وأمال ايه حايك دى . . . صوتك طالع لأحر الرقاق ، والله عال ،
الكبير والصغير يتفرح الهادة على سوان البلطية ، أصل الرقاق مايقاش فيه
راجل يحكمه ويحرم سوانه لو كان السبد موجود مكانتش واحدة منكم
قدرت تطلع صوتها ، انت فين ياسيد . . . أنت فين تيجي تشووف . .
هيك ياروين الرجل ، يا حترى ! »

كان الصمت قد ساد عندما تحدثت العجور ، وراح صوتها الريع يتمرح
في جو العساء ، وانهمرت دموعها فجأة فغطت وجنتيها ومصمصت
النسوة ، وجمدت زويه وهي تمحلق في العيون التي راحت تنهمها ، وقالت
عطيات بصوت خفيض :

« مش عيب عليكم يابات ، هو احب ناقصين ، كفاية اللى بيجرى على
السط ، كفايه يا ولاد ما حصل في الأيام السود دى ! »

وقالت زعدانه وصوتها تخنق بالبكاء :

« والنشى أبوي ما يشوف النوم ، كل ما تيجي انخارية أن المركب وصله ،
يقعد وانم راكبه . . . ولا حد حاسس ، حتى لرجالة بقى حانتهم حل ولا
كاهم هنا ! »

ولم تعد زويه تطيق أكثر من ذلك ، جالت بعينيها الدامعتين في الوجوه ،
ثم صرخت فيهن فجأة وكأني تصد عن نفسها شراً داهياً :

« ماكك كده يا بنواتي ، أسألوها مالها ومالى . . . هو أن اللى على
الحق ؟ ! »

ثم سكنت فجأة . . . واندفعت نحو حجرها وأعقتها عليها .

لستطيع النساء على الأرض ، ليُخرق البحر العالم بأمواله ، لتصعد
الحسات والشباب من أعياق المياه ليحرقوا كل حي ، ليحدث ما يحدث فما
عادت تطيق ، أصواتهن تصم اليها وهي تعلم أنهن لن يصمتن حتى تعرب
الشمس ويأتى الرجل ، وساعتها لن تستطيع أحدها أن تمنع فيها
بكلمة

لمن تعيش ؟ . . . ولم تعيش ؟ . . . ومن سيحميها ؟ !

طوال عمرها وهي تشعر أنها كالمبوءة ، أب إذا جاءها فلكنى يأكل ويصم ،
وإذا غادها فلكنى يعمل أو يجلس على المعهى ، وأم ماتت وهي طفلة ،
وقلدها تعلق برجل ، ولا زال الطريق إليه طويلاً . . .

كم حانت وكم تعلمت . . . فهل شعر بها أحد ؟

طريقة عن الباب . . . لماذا لا يتركونها ؟

طريقة أخرى . . . هي تعلم ما سيحدث ، سيدخلن عليها ويغذبنها
لتصالح عائشة . . . وسيتم الصلح ، وستقبل رأسها ، وستقبل عائشة

رأسها ، وستبكيك لدقائق ، ثم تنسيان . وستصغر نفسها لا بحالة
 فيكف يكره القلب الذى داق حلالة الحب ؟ والله ما ترحب في حب .
 شقيقة حمى . . طريقة ثابتة وثناء مدح . . . لنسلم أمرها الى الله
 « من ؟ »

— ١٩ —

كانت طيور النورس البيضاء تملأ سماء الميناء مرفوفة صالحة في صحة
 ومرح ، ورح المعلم محمد انبسط يرقها في انقصاصها لسريع على صحة
 الميناء ، وارتدعها عنه ، وتجمعها حول صيد طاف على السطح الذى أحد
 يتلاعب بعد سكوت ، واغترافها في الهواء وهى تصفق بأجنحتها طربا . .
 وما ليث لعجوز أن ستدبر بوجهه نحو حصى القابع عند مقدمه القارب ،
 وقل وهو يقبض على طرل المجذافين
 « هو محمود سهر امبارح في بوعلة شسوفة ؟ »

صمت حنفى ولم يرد ، وتشاغل بجذب حبال الشبكة ، وكأنه كان في
 صمته لجواب الكافي ، فلم يهتم العجوز . . . ، وعاد يسرح مرة أخرى
 مرقبا طيور النورس وهى تتزايد في صحته وصحته . . . وما ليث أن قال
 « النورس هاجم قوى ، واللوة نازة يا حنفى . . . حانتعد لها بالقلينة
 أسبوعا »

وقتها ؟ ... واذا فرض وكنيت الاشعة حقيقية ، ماذا يحدث اذا اشرق فجر آخر ووجدو رجلا آخر قد اشترى سبينة أخرى ؟ !

قال ذلك للرجل بالأمس فقط ، قاله لهم وتعمل في صمت وحزن ما انزل عليه من صيحات وشتكار صوبه من أفواههم بلا حساب ، وطلبوا منه بعد ذلك أن يوحد الله ويصلي على البس ... وأكدوا له أن الخبر صحيح ، ثم أحسنوا يتفلسفون فيها بينهم تلك العمرات التي كانت تشبه ... ماد ورءها ؟ ... عشا ، عشا حاول أن يعرف !

استدار نحو همه ، و تنزع لسانه من مكانه وهو يسأله

« ايش قولك يا عمى في حكيبة عبد الموجود ؟ »

بوعت المعجور بؤل ابن أخيه ، فغفر في وجهه متفحفا ، كان تمكبره في تلك اللحظة بعيدا كل البعد عما كان يدور في ذهن حمى ، لكنه سرعان ما قانك وقال مبتسما :

« ايش قولك انت يا حنسى ؟ »

قال حنسى في قوة وصرامة

« آنى مانيش مصدق ان الحكاية طلعت نصب ، هو ده معقول

يايا ؟ ... دي الحكاية فيها غمى وشهد وشهر عقارى ا »

« هم الانحليز يعرفوا ربنا يا حنسى ... أهم يقولوا ... »

قاطعه حنسى فاقد الصبر :

« يقولوا ايه ؟ »

« الراد رومه رجوع يقول ان المركب وصل خلاص ، حلف في الصبح انه شاف التلغراف بعينه ، لكنى آنى مش مصدق ... اس المدينة ده يعرف

كان تجمع طائر ابووس هو علامة هبوب الرياح ، ما إن يتكاثر عدده ، ويملا صراحه الغصاء ، حتى يعرف أهل لشاطىء فيه مديرا بمعينه قوية ... وكان حنسى يربس الطيور في صمت ، ولا يجد لديه ما يقه لعنه ... ذلك أن ذهبه كان مشغولا بها فيه من أفكار متلاطمة سوداء ، يشعر بأثمه غمر ثقيلة ، وبالرغم من تثار لاشعاع في الأيام انسقية بها حدث لعبد الموجود حمدان ، ورسم ادياد سريتها بين الرجال الذين تلقفها في شوق وكأنها المعجزة ... لا أنه - ولا يدري السبب - لم يستطع تصديدها بل رفضها في حيرة ، وكنا ظهر الاضمحسان على وجوه الرجال ، وكلها عادت حياتهم الى ما كانت فيه من طمأنينة كلما أحس بالقلق وانتور ... ورده شعوره بالوخشة والوحلة ، وأصيف الى همومه هم جديد ، لماذا ... لماذا يجد نفسه دائما في ناحية ، والرجل في ناحية أخرى ؟

يقولون إن لإيجيرى الذى دفع له عبد الموجود موعده لم يكن سري صاب ، فقد مرت الشهور دون أن يظهر للسبينة أثر ، بل إن عبد الموجود عاد يرسل رجلاه بقواربه العديدة التي لم يجد هـ مشترين ... قالو هـ وصدقوه وطمأنرو اليه ، وراح حنسى يسألهم في قلق : « هل حدث المشك » بهذا ؟ ! » ... كان يرى كل شىء كما هو ، لارلت لاسمك في جوف ... لانصل اليها شباكهم ، ولا زال الرجال - رغم ما جمعهم يوما - متعرقين ... يملك قرشا يضعه بين أسانه في حرص ويخفيه عن الناس ، ومن يملك لاس لا يسأل ولا يبحث بل يستسلم لحياته في وداعة !

لعة حاطر خطر له دات مرة وهو في طريقه الى لبيت ، مادو حاء ... السبينة فجأة ؟ ... ماذا لو أصبح لصيح فوجدوها راسية على الرصد ... شائعة كعمون يهدد حياتهم ويوسم ؟ كيف يصحسون من ...

بعك الخط عيسى له حليفك احببى . ثم ان عبد الموجود نزل قواربه
اليه تانى !

« وروم شاف عبد الموجود فين ؟ »

« آل امبارح قابله عبد أبو العباس ، راح منادى عليه وقال له استعد يا
روم المركب خلاص واصل ! »

« آنى كنت عارف يايا . . . عارف وحياة السى ! »
« انت بتصدق ! »

قاما المعلم عماد في حماس جذب اليه عيسى حنفي ، فصيق هدا ما بين
حاجبيه في غضب ، وقاد متحمسا :

« ليه ما صدقش يايا عماد ليه ؟ . . . مين اللى قال ان المركب مش
حاتوصل ، دول كل يوم يطلعوا بحاجة جديدة لاجل ما يدوخونا في دواة ما
تطلش دوران ! »

ثم اعتدل في جلسته وكأنه عثر على برهان وعاد يقول

« شوف يايا . . . من مده عبد الموجود ساب الرجاله في القهوة وجرى

بعيد ، بهت رجائه يدبلوا على اللى يشتري قواربه ، وهوب لقبينه كأنه نفس
ملح ودايب ، بعد شوية سمعنا أن المركب مش واصل وأن الانجليزى
نصاب ، واللى قالوا كدة رجالة عبد الموجود برضه ، وبمدين القوارب نزلت
اليه . . . وبمدها عبد الموجود بلسانه قال لرومة أن المركب واصل . . . فين
الخط يايا ، حد يعرف في ده كله فين راسه من رجليه ، وحياة النبي ده مغرر
لأجل ما يشحط الرجالة بين وشيا ، يوم كده ويوم كده علشان يتلهاو عه
ويسيوه يذير تدبيره . . . مش كده والا ايه ١٩ . . . هيه ؟ »

« ما هم ياواد يقولوا ، أن الله . . . »

« يقولوا يقولوا ، ما توحده الله ياويا ، هم مين اللى يقولوا ١٩ ! »

« جرى ايه ياواد . . . الرجاله ! »

« والرجاله يش عرفهم ، عرفوا مين ، ماتصلوا على النبي أمال ! »

« أما غريبة ، أنت جرى لمقلك حاجة ياواد ، هي المركب غفوف
كده ١٩ »

قل ، المعلم محمد ذلك وهو يتسم في اشفاق ، كان وجهه حنفي قد اكتسى
بلون الغضب الأحمر ، وراحت يدها تهديان جبال الشبكة في عصبية وتوتر ،
ولكن الانسامة لم تعمل شيك حيال ذلك الغضب الذى استولى على حنفي ،
فعاد يقول

« آنى ياا ببص لقدام ، بعيد يا معلمى ليعيد ، لو حصلت الحكاية
دى ، لوحت المركب ، حانعملوا ايه ؟ ، ايه اللى حانعملوه ١٩ »

« فيه وب ، سمع الكريم ! »

« هي السبا حاتشتى سمك ياويا ؟ »

« انت حاتكبر ياواد ، قول لا إله إلا الله ! »

« لا إله إلا الله محمد رسول الله ، بس كل شي بالعقل ياناس . »

« قصصك ايه ١٩ »

ولم يرد حنفي . . . وساد الصمت بينهما ، وحقت فوق رأسها طيور
النورس الصارخة ، وهبت سمة من الشمال ، فالتفتا دون وعى الى حيث
كان الأفق مليدا بالسحب السوداء ، فاستدارا برأسها ، والتفت عيونهما
للمحطة حاطفة ، نهضا بعهدها للعمل في شاطئ ودون توقف ، قبضت اكتهما
على احبال ، وراحا يتهديان الشبكة في حكمة وديارة ، ودايت حرارة الحديث
في اهتمامهما بالصيد . . . بينا كان الرجال في القوارب الأخرى المشتتة في

ايسء بمعمون نفس الشئ . . . وبدأت الصبيحات تملا البحر
 « يا متري ؟ » . . . « ياو العباس » ، وصباح فلعلم محمد صبيحته ، وصباح
 حتى صبيحته . . . وجلب كل منها أفكاره بعيدا عن الآخر .
 وما إلى ظهرت الشبان عن سطح المياه محملة بالأسياك ، حتى تكاثروا
 سورس ، وملا الخوص حوضه صبيحا وصباحا ، وراحت أفرادهم تقف في
 الأسياك لصعيرة لتي كانت تقفز من ثغوب الشبكة محذرة الغرام
 مصيرها .

كان اوتياح حتى يمازل صبيته لايقصاع الحديث ، ما إن سأله عنه
 يقصده حتى وقع في نفس الحيرة . حقا ، ما الذي يقصده ؟ . . . وما الذي
 يعبه ؟ . . . إلى أين يذهبون ؟ . . . ومبدأ يفعلون ؟ . . .
 يفعلون ؟ . . . هل ينتهي بهم الأمر إلى العمل عند عبد المور
 حمدن ؟ . . . أم ينتهي بهم إلى الزواج من الشاطيء لدى عامر أمه
 أيدهم ؟ . . . كيف ينتهي بهم الخب ؟ . . . أيدهم إلى رشيد ؟ . . .
 يصرون في طريقة نحو الشرق وفي الشاطيء متبع للجميع ؟ . . .
 لكن بقعة نساء وأندما وصباحها . . . والقرى حيفا مسندودة ، عد طر
 واحدا . . . طريقنا يظهره خلال سحابات الظلام المكثفة حول عقد
 لكه الأبري نهته ، أو إلى أين يري ؟ . . . هل تستطيع قوارب ز-
 مجمعة أن تقف في وجه اطمعان الحديد ؟

أصرايب القوارب تعود محملة بوزقها ، لكنها شد لن تجد مسكة ش-
 شياها . . . وأصوات الرجال تدوي بالماء والمرح ، لكنها لن تعرف
 الصمم بعد أيام . . . لماذا مع عبد فوجود ذات ؟ . . . ماذا يفعلون
 دون سائر الصيادين تحت وماء ذلك العون المحيط ؟ . . . يقولون أنه لسه
 تستطيع الخرق البركة بالأسياك ، تستطيع أن تعطى البلاد كلها .

أسوان ، والسفينة تجي « بصعيتين » ، لماذا كما يجلب انقارب قاربين لو توفر
 الرزق وحنت المياه على الشباك .

دواصا لجندخان في الطريق إلى الرصيف ، وسحب العاصفة تتجمع
 وترحف لتعرق الشاطئ بعد دقائق بالامطار ، وتجبيل سطح البحر إلى
 حجوم . . . عنه يهسي في استرخاء ورضاء وهو يدخن ، الرجال كلهم
 مطمئنون لا هو . . . فلماذا ؟ . . . لماذا ؟ . . .

« يش قولك يا حنسي ؟ »
 « حير بدا . »
 « في محمود »
 « ماله باب ؟ »

« يقول يعني الواد مش حايقلح ويصلح حاله إلا لما بجوزوه ! »
 وتوقفت بدا حتى عن التجديف ، وبصر إلى عمه غير مصدق ، الرجل
 يتشم وكان الدنيا خلعت من المموم . . . ما الذي حدث لعقوهم ؟
 « ايش قولك ياس أحيوسا ؟ »
 « اقول قولك يا عاصي ! »

ولو استطاع لصرخ فيه فيه : « انت مجون يا عاصي ؟ . . . احنا في ايه والا
 في ايه ؟ . . . » ، لكنه لا يستطيع ، لا يستطيع أن يقول ذلك لعمه ، ولا
 يستطيع أن يقنع لرجال بوجهه بظرو . ولا يستطيع أن يتزوج !
 ولا يستطيع شيئا . . . محمود لن يوافق على الزواج ، كانت لينة الأمس حرسا
 رف فيه محمود إلى كايدهم ، رفض له الرجال وعرو . . . لم ينقص سوى
 المأذون ليصبح كل شيء في تمام أصوره ، طالما عجب لمحمود ولجبه . . .
 قال له « بن عمه ذات صباء انه لم يقرب كايدهم ، وأنه لن يقربها ، كاد

بصداً، منه وسجها ما حبوب أو اخوته لولا كلامه الحريه . كنهات النصف
تدبسه ولم تصارقه حتى الآن . « يا حبيش عليك يا حبيبي ، الربيه
« يا حبيبي بكر برحمتي وعول ايه احريها ، حياكل في نفس لدعوى الخي
اكل فيه كل . جلد »

« بتقول نجوروه وبحلصو يهكر ينكن في حضن مراته ! »

« هه محمود مانه يابا ، ه هو زين في وسط الرجاله . »

« واو ، خوازي وحسن ياوود ، طيب والله العظيم لولا انا عارف انك هستنى
أحدثك طورتك من مسين ، يا ابيك ياوود ! »

« نكله ياوود الله يايا محمد . بكرة تتعدل ! »

« تتعدل هون . . . اما ايش قدنت ؟ ماتشور على يا حنفي !! »

« والله يا . . . »

وصب . وكان لابد ان يصمت . هيا ، يقول ؟ صرحيات

« من تدري ؟ أدبيه . . . وعفكره بصي » في ذهنه ! تسبح يوردها الوهاج

مسيه دوت ان يعر . أليكون الأمر خاصا بعائشة ؟ . « أيتروح محمود

عائشه ؟ وم لا ؟ . بل لابد أن الأمر كذلك ، والا ، فلم يتسبه

عنه ، وأحدث عن روح عائشه ؟ . فله بعض في مريح وكاهم يرفونه

الليلة الى روية ! لرصيف يفترب ، والعرق يتصبب من جبينه رغم جهد

السير ، يداووه حان ترشش في عروقها في مشقة . . . لماذا فكر عبد الموجود

في ش . . . اسبسية ؟ . . . لماذا لا يكون الأمر كما قال الرجل ؟ ! . نعم ،

لماذا لا ، لا تخبر نفساً عن عدد نوحود وحفظوا منه مفوده . لماذا يجمع اهم

وحده ، ليتربك الصان لأجراش الفرح تدق في قلبه كما تدق في قلوب

الكثيرين .

« يوجي يا حنفي . هي اينك ! »

« على الله يابا . . . »

وصلا الى الرصيف ، قعر من مكانه جميعاً ، ومن الاسماك هرق كتفه

وكان به قوة عشرة رجل . . . سيمود عمه لمحدث وبما في طريقها الى

الحلقة ، الوقت لا يزل مبكراً فلن يذهب الى المشفى . . . محمود جرح

عائشه ، ويتزوج هو زوييه . . . ولكن ، أيراضي محمود أن يتك

كايدهم ؟ وهل يصل هو أن يزوج أخته من رجل تمفق قده . . .

وحشة ؟ أبقى شقيقه الى أحضان رجل جسم سموم وبو در ها .

الرجل هو محمود !

الطريق طويل ، وبشائر المطر راحت تتساقط رداً يعسل وجهه الدب من

حولته . . . وعمه يسير بجواره مطرقاً ، ولو طلب عائشه فلن يستمع .

يرفض ، لن يستطيع أن يقول لا . . . وسترحب أمه ، ويزج أخته ، واما

يذعن محمود . . . ستلقى عيونها فياها يقول وفيها ؟ حتى انسر ذاه

له من بعمه حريه !

« تعرف ياوود يا حبيبي ، هي حايب نموت قبل ما تفرح بيكم وشوف

ولادكم ! »

« ريبا يديك طوية العمر يابا . . . بكرة تتعدل . »

« قنت في عقل بالي نجوروه قبل ما نموت . . . ومن يوم حكاية العرق

دي يا حنفي وأنى قلبى بياكلنى . . . الواد سارح على حل شعره ! »

« ماتوحد الله باب أصاب . . . »

« بتقول لك ياوود عن يوم حكاية العرق وتنى بعفركى الموضوع ، هو لولا

ابن المتعوس عبد الموجود كنت جورته من ايامها ، حكاية جنت ربي لنصا ،

لا كما عازفين يعيش ولا نكلو لقمة براحه . . . ماهو كدرا كده يا حنفي ، يوم

البحر يديك ، وعشرة ياخذ منك . . . انت ياواد شعلاك حكاية المركب
دى لكن افرص ايه جت ، حاسمكوا ايه يعنى ، سموتوه ؟ كلام
فاسى ، نقعدوا على لرصيف ويعطوا ؟ . . . تبقى نسوان ، كل واحد يرفقه
ياحتمى ، ويحدث بيموت من ايسوع !
« ده صحيح باب ، انيا لازم نشوفوا حل قتل ما نطلع على دماغنا ! »

« بشوفوا حل ؟ . . . ربنا موجود ! ، ده هم فرق المصوم ياواد ، ولما تيجى
المركب بقى يحمله حلال اصارح بالنليل قلت فى عقل نالى ، اراى موقعوا
عيشنا على حاجة فى علم العيب ؟ . . . ويعنى لوحت المركب حايحصل
ايه ؟ . . . كل ما فيه اسأ نشدوا حيننا حبتين ، سهر الرق حايترل فى
السوق ، ده صحيح ، بدال ماترمى طرحه ارمى اثنين . . . وبدال اثنين
ارمى ثلاثة ! . . . كله والا لا ؟ »
« لا . . . ما هو ده مش حل ! »

« شفت يابن السيد ، دماغك ناشعة زى ابوك . . . وآهو الكلام سرح
بسا ، وبدال ماتنكلموا فى المقرح ، تجرناات الالبسه سيرة المركب دى لنعم ،
سيهه لوبك بعدنا ، قلت ايه بقى فى جواز محمود ؟ »
« انت شوزته ياسا ؟ »

« هو آنى اعشى يابن السيد ، ما آنى عارف حكاية الولية الى
مراقفها ! »
« ولية ؟ »

« وقعت ليه ؟ مديبا ، هو آنى نايم على عيه ياواد ، آنى عارف كل
حاجة من زمان ، فده آهو شاب رى بقية الشبان ، جدد رى بقية الحداغان ،
وبعد ما كت نسيت حكاية الجواز ، قلت بصبر شوية لما تتعدل وينصلع
حاله ، رجعت تفكر فيها تانى ! »

« برضه لازم تشوره ! »
« هو يقدر يقول لا . . . دآنى . . . »
« وحد الله بابا ، ده حواز مش لعب ! »
« ما هو ده اللى آنى ناعى همه ياختمى ، شبعك ندى له بت لاس يمرمط
بها الأرض . . . ده لى آنى ناعى همه ! . . . »

وساد بينما انصمت من جديد . . . ولاحت لها حنقة الأمسك من
عيد كان الراحات حنايرين أسماها وحوها ، برحون وعجيتون فى شاطئ ،
وأصواتهم تصل ليه صدرحه بالأسعد وهطلت لامطر وأعرب ،
ملايسها ، وأسرع فى سيرهما . . . حتى اذا قتر منها ، برز هوادة من
الداخل يجعل شبكته على كتفه ، وقصص أسماكها الخلال فى بده . . . وما كاد
يصلان ليه ، حتى همس فى آذنه حنقى بيهجة مريضة حاسمة :
« عاوزك بعد ، ما تخلص ياختمى ! »

« هل فين . . . متى ويحين المهور »

فقال حموده عن النور :

« لا والله يدا محمد ، حانروح نشترى دوا من الميدان ! »

فقال المعلم محمد بصوت خفيض ، موجها حديثه لى حنفي :

« عاوز فلوس يا حنفي ؟ »

« لا يدا . . . معيها »

« ما تاحدلك قرشين ياوا . . . »

« معيها كميتي يدا ، لآ نعوز نطلب ! »

« سلام عليكم »

قالها المعلم محمد وهو يستدير ليعبر الطريق ، ومضى الرجلان في طريقهما

بلا كلمة . . . حتى قان حنفي فجأة :

« حيسر يا خذل ؟ »

« خير يا حنفي . . . خير إن شاء الله »

لاح هم الشاطيء المهجور مرید السطح نائر الأمواج مصطحب المياه ، وعند نهايته كانت صخرة رأس تين بلونها لداكن ، تنلقى نيش الأمواح في صلاية وحروث ، وسرعان ما غرق حنفي فيها كان يعرق فيه كلب لاح لغيره هذا الشاطيء ، أحس في قلبه رهبة لم يستطع تفسيره ، حطفت بكرة من وجهه حاله الذي كان يسير بجواره مكس الرأس مستمسكاً لأفكاره ، وقد بانث هل ملاحه علامات اهم . . . لآك حنفي في ذهنه كل احتمال ، وتردى في لخرة كعادته ، لكن عينيه سرعان ما برقتا ، وتوقفت كن أفكاره عند ذلك الخطر . . . ترى ، هل يعني حموده الرحيل ؟

« على فين يا حنفي ؟ »

كان حنفي كعادته يجرد في السير نحو لصخرة الشاحة ، لكنه انبته عن

— ٢٠ —

رفع حنفي السلان المازعة تحت إبطه ، واستدار نحو الباب وقد بدت عن وجهه علامات اهتمام شديد . . . كان حموده لا يزال مكانه منذ تركه حنفي ، وما إن رأى ابن أخته مقبلاً عليه حتى تنفس ملء صدره . . . وسرعان ما لحق سباً المعلم محمد وهو يدرس النقود في جيب صدريته ، وما إن حاداهما حتى انطلق الجميع معادين الحلقة .

ساروا بهداء الشاطيء متجهين إلى الغرب فلاحت لهم مقهى سلوية مر بعيد ، واشتد هبوب الرياح وزعزعتها ، وعاذت السماء بخطر رداد خفيفاً بعد توقف المطر . . . عن يمينهم كان البحر يلد أمواجاً عاتية ، كانت تزحف في جبروت ، ثم ترتجى على الشاطيء الرمل وتذوب فيه . . . وما هي إلا لحظات حتى قاربوا من المقهى ، فتوقف المعلم محمد عن السير ، واستدار نحوهم وهو يقول :

سؤال خاله ، يتسم في ومن وقع حموده الذي كان يعبر الطريق الى حـ
السعداوى ، ومن ثم راحا يسيرك من حارة الى زقاق ، ومن زقاق الى -
دون ان يسطق احدهما بكلمة ، وكأنه يحشى الحديث . . . وروح حنفي
يتسمه وقد استحوذ عليه لفتن ، سيور الرجال في الرفاق ، وتستطو
المناقشات ولا أخذ والده ، وليس هناك سوى رجل واحد ، فالعقل يقو
لحموده ، ارحل ، ولكن لقلب يتشبث به في استئانة غير قادر على فرقه
فأبها يتسم ؟

كانت المفهى التي دلفا اليها مكتظة بالرجال ، اعلقت أنبها وبوافدها ،
فحين لمحو بالبدخان وبحار الشاي واليسون ، وارتفعت طرقات أورؤ
اللعب وهي تصلح ، لمضد في حماس تحتلطة بصيحات استحسان ، أو
صرخات لاعنة ، وضحكات مرحة وكانت مذبة !

انجها الى أحد الأركان ، وألقى حنفي بسلاية المارعة تحت قدميه ، بين
دس حموده سلة الوحيدة تحت المصلة ، ثم أخرج صمدوق سحائره ودرس
احداها بين شفتيه . . . ويادى حنفي الحرسون ، وطلب لشارى ، ثم التفت
الى حاله وقال كأنه يزيح عبثا ثقيلآ نادت به كتهاء :

« خير ان شاء الله ؟ ! »

« أبوه يا حنفي . . . كنت عاوز نقول . . . »

وتوقف حموده عن الحديث ورفر في صيق وهو يحيط ركبته بطن يده ،
وراحت حيا حنفي ترقبانه في حنان ، فقد كان يعلم مقدار ما يعانيه خاله ،
ومقدار ما سيعانيه في المستقبل ، هل أنه أحسن رعا عنه بالراحة تعمر كيانه
أن فكر حموده في الرحيل ، وحتى تلك اللحظة لم يكن موقف من الأمر ، لكنه
شء كالإهم كان يلعب عليه ، صيرحن حموده ولا شك ، صيرحن ويترك
الرفاق إلى مكان جاف الهواء يشع عليه . . . وتشغل حموده سيجارته ويب

عاص حنفي في تفكيره متبائلا ، لماذا يتردد حموده في الإصاح عها
يريد ؟ . . . صيق الجميع في وجهه ، وسيصره هو . . . سيهون صايرحن
لاعين ، ليكن يفترق فرد من عائلة البصى رفاقها ؟ . . . ووجد نفسه
يتسم الى سخرية . . . فما جدوى الحياة والموت يتهدده بين لحظة
وأخرى ؟ !

لماذا لا يفتح الطريق أمام خاله . . . صكرى حموده

« كنت عاوز بقول يا حنفي ، يش قويت في حالي ؟ »

أصبح يا حال في عدد هناك وقت للزدد ، أقدم بحال في عاد في صندرك
مسح لمرجع ، أنسابى عن حالك ؟ ! وجهت أصغر ، وعيناك
عائرتان ، وصداك شاحبان ، ورفقتك نجبة . . . لماذا تسألني وحشرحه
صندرك بسمهم جيران في الرفاق المجاور ؟ !

« أبش قولك يا حنفي ؟ . . . سكت ليه ؟ ! »

« حانقول ايه بحالي ، حانقول ايه بس »

« أبش قولك في حالى ؟ ! »

« حالك ؟ . . . أسأل صندرك يا خالى ، أسأل السيد أهلى ، أسأل

الحكيم وأنت تعرف حالك ! »

تهل وجه حموده وبرقت عيناه ، وأحد يحمل في وجه حنفي كأنه يريد الأول
مرة ، رفع كوب لشارى الى شفتيه ورشم منه في تلدد ، إلى أى مدى يشه
حنفي أباه ؟ . . . إلى أى حد يذهل ؟ . . . نفس أنوجه ، نفس العيسين
لشافتين ، نفس الأنف الكبير ذى لطافتين الوسعيتين ، نفس الشفتين
العليطتين والشارب لكث ، حتى تدق العريضة المستوية في أسع الوجه
وكأب قاعدة بناء شامخ ! . . . ليس حنفي أكبر لرجل عمرا ، ولا أرفعهم

مقاماً ، لكنه أقرب الجميع الى قلوب الجميع . . . انه صامت في حان يتنهد
حديثه ، وسيلقى بين يديه بها في نفسه ، يكاد يوقن ان السيد ترك في وده
سرا لا يعرفه أحد . . . ترى ، هل حدس حنفي ما يحول بهاخاطره ؟

« ما هو عيشان كده يا حنفي كست بقول . . . »

« عاور ترحل يا حان !؟ »

كأنه أزاح عن صدره عبأ ثقيلاً ، ليتنفس في حرية اذن ، وليجذب نفساً
من السيجارة ، وليرشف رشعة من الشاي ، فقد جتاز الخطر .

« أبوه يا حنفي ، العيال يا ابن أختي ، خلاص اتى مانيش قادر ! »

« ولوقائق ؟ ! »

« صحتي ضاعت يا حنفي ، كل يوم والتاني أروح في اينديكم ، ايش
قولك ؟ »

« على بركة الله يا حان ! »

« يعني أنت معاي ؟ . »

« ما باليد حيلة . . . »

« بس ايه يا حنفي ، المعين بصيرة واليد قصيرة ، آخر مرة جاني فيها الدوا
السيد افندى اشترى الدوا من جيبه ، حرام ياناس داني ما ينزلش عليه الا
بالعافية ، الفرشين الي حيتي خلاص ، راحو على الدوا ، هو اسي غرب
على الرقاق يا حنفي ؟ داني جيته واني اس تسع سبر ، ودرجوم أبوك
هو أبوي وأخويا ، وانت عارف ازاي جه الرقاق وازاي عمل العيلة ، عشت
كلنا في حجاج ، ولحم اكناها من خبره ، وسبرته لازم نحفظها ونصونها
نعم ، لكن العمل ايه ؟ . . . هيه ؟ . . . العمل ايه يا حنفي ؟ »

كان حموده يتحدث ويتحدث وهو يرتجف من الاعمال ، راح يصعب على

بدي حنفي كل ما يريد قوله ، واختنق صوته وغص حنقه ولم يكف عن
الحديث :

« العمل ايه دلوقت ؟ . . . أبص للعيال وهم مهرولين قلبي يتفحص ،
مش قادر يا ابن أختي نستني ، ما يوبوش عى نموت ونسيهم ، لازم نرحل ،
لازم يا حنفي ! »

كانت ملامح حنفي تنطق بالألم الدفين ، اغروقت عينا حاله بالدموع
فانقص قلبه بالأسى ، رسم على شفتيه ابتسامة وقار في هدوء :

« ونويت عى فين إن شاء الله ؟ »

« حاننزل مشوار مصر ، ونجس البض هناك ، ندور وريت يعدلها ! »

« حاننستغل ايه في مصر ، هو فيه صيد هناك ؟ »

« في الليل يا حنفي ، لكن اني مش حاننستعمل صياد ! »

تفطمت ملامح حنفي فجأة ، واعتدل في مكانه ، وراح يحلمق في
حاله .

« أمال حاننعمل ايه يا حانسي ؟ ! »

« آني فكرت كثير يا حنفي ، وزسيت لي على بر »

« حير . »

« حانفتح ذكاة سمك ، يشتغل سمك ! »

« سمك ؟ ! »

قاط حنفي وزعته يتفحص بالاعمال . . . وعاد حموده بقول :

« أبوه يا بن أختي ، بقى صر يبس على لسي ! »

ولأول مرة مد زمن طويل كان حنفي يصغي لحدث ما يكن جوارحه ،
كان قلبه يضطرب اضطراباً شديداً ، لاح له الفرح عن بعد وكأنه طريق

الخلاص ، خاله يتحدث ويشرح ويحكى . . . هذا هو الحل . . . كيف لم يفكر فيه ؟ . . . بل كيف لم يعثر عليه ؟ . . . اذا باع حمودة قاربه وشيكه وافتتح علانا لاسياك لى يجوعوا يصيدون صيدهم ، ويحملونه الى الفم بدلا من الحلقة يبيع خاله فى القاهرة رزقهم ليرزقون ويرزقونه . . . ليفعين عبد الموجود ما بداله ، لياثى يسفيتين أو ثلاث فلسوف يفعلون ذلك معى طان المرص ، ولو تجمع الرجال بقواربهم وشباكهم واتفقوا لاستطاع حمودة . . . أسماكهم بأسمار معتدلة . . . خاله يتحدث هن ثلاجة كبيرة معروضة للبيع ، ما أحلى حديثك ياخال ، لولا الملامة لقبيلتك ورقصت وطربت ، سيرداد الرزق ولى تتحكم فىنا سوق اخنقة ولا أسعار تجارها . . . حقدت هذه أم حدم ؟ . . . هذا . . . هذا وحده هو الحل .

« معايا يا حنسى ؟ »

« معاك يا حلى . . . معاك ، قول ، معاك قوى ! »

« دكانه زى ما قلت لك على قد الحال ، فى سحتة لاهى كده ولا هى كده . يعنى بين البيتين ، نخط فيها الثلاجة ، وتنعوا لى السمك أول بأول ، يوم بيوم ، وبدل ما تشتري من الغريب ، أنتوا هلى ، والعيشة تبقى معدن ! »

كيف حملت كل هذا فى صدرك دون أن تبيع به ، انه ياخال ماكنت أبعد عنه طوال الشهور الماضية ، ولكن اسمع فقد تفتحت لعيسى طاقة لطيفة

« عاوز بقول كلمة ياخال ! »

« خير يا حنسى ! »

« عبد الموجود مش حايقدر يأدينا بعد كده ، الرزق يوصل لك فى نفس اليوم ، نشوقفوا مواعيد الفطارات ، ونرتب أمورنا أول بأول ، ولو وافق الرجاله على كده ، قصدى الرجانه كلهم ياخال ، تبقى انحلت ، يبيع عه

الموجود معلج ما هو عايز ، فى مصر مش حايقدر يدفع ، المركب يتعيب بدل اليوم عشرة فى عرض البحر ، والقارب على الله ساعة بساعة ، اليوم بيومه هاهم يا حالى ؟ ! »

« قصدك به يا حنسى ؟ »

« بقى صدى بيا على النسى ! »

« ألف صلا على الحبيب ! ! »

تقلب في مكانه ويثر نفسه بالعطش ، ثم دفن رأسه في الوسادة وهو يتشاءم ، انتظر أن تدلف كأيديهم من الباب ، لكن الحطاطات عرت وهو وحيد ، سمع همسا في الخارج ، لكنه لم يفهمه ، ولم يبال . . . ظل انتظاره فنهض مائلا بجسده نحو الكتب والنقطة صندوق السجائر . . . أشعل سيجارة ونفث دخانها ، وسعل . ثبته وقتها أنه لم يخرج للصيد ، وهز كتفيه في استهانة ، لا بد أن يغضب أبوه . . . تصاعدت من فمه وأنفه سحب الدخان فعاد يبقى برأسه إلى الوسادة ،
ماذا بعد . . . ماذا بعد يا كأيديهم ؟



أدافته بالأمس من موهن الحب ما لم يعلم به ، قنعت له جسدها وروحها وعشت وضحككت ورقصت وبكت وقرغت على صدره وسقته من حمم لم يذق اللذمتها . طلع عليه لهيار حنوناً كحو قلاتها في آخر الليل . . . هل يصنق ؟ . . . هل تمكك المرأة مثل هذه لتكون ؟ . . . ماذا قالت له ، وماذا قال لها ؟ . . . رفوها بالأمس في البيوة وعوا ورقصوا ورقصت هي له وحده ، غنى وغنى وعنى ولم يكف عن لفها حتى دفعوه إلى صدرها . . . كيف بدأ الأمر ، وكيف انتهى ؟ . . . فقد المعلم جمعة بالأمس وقاره ، بكى وهو يعنى ودعمت عيانه وقال والدعوى تترلق على وجنتيه ؛
« نفسى نفرح بيلك يا محمودة ! »

كانه والد يبايحي ولده . سمع ذات يوم أن للمعلم حمه اب قتله الانجوير في هوجة سعد ، أدمله بكاء لرحل كما أذهل الجميع ولم يستطع أحد أن يسأل عن السبب . تركوه يرقص ويصق ويحى ويب من البيوة أكودراً وراء الكور . . . تحول المكان إلى جمرة ملتهبة من الحياة ولسعادة ، امتلأت البيوة بالرجال واختنق جوها بالدخان ، قلبه يمن إلى كأيديهم وهو هارق في

— ٢١ —

فتح محمود عيبيه ، وأجال بصره في الحجرة ، فأرتد إليه وعيه عن العور ، وبهض متأقلاً وهو يتشاءم ويتمطى

كان الظلام يسود الحجرة ، رغم ثسرب بصبص من ضوء النهار من فريجة النافذة المواجهة للفراش ، التمت إلى يسارها قرأى مكان كايده هم شاعرا ، أجال بصره في الحجرة ولمع على الكتب بقايا سهرة الأمس . . . صندوق سجائر ، قطع ملونة من الورق لا بد أب لا تزال تحمل رائحة المجدد ، الخوزة قائمة عند قاعدة لشباك ، المجمة مرتبة وسط الحجرة وقد حذمت نارها ، لاسنه ملقاة في الهمال ، وحذاؤه عند الدولاب . . . وراح ذهبه يسترجع أحداث الليلة الماضية ، فلاحته له من خلال بقايا ضباب أزرق لارال عالقاً بحواسه شاحبة مختلطة ، أحس بدوار ، وسعل . . . ثم ارتكن إلى الوسادة وأغمض عينيه من جديد .

تري . . . أين ينتهى به المطاف ؟

أحسبها ، ماذا تأخرت وماذا تفعل في الخروج ؟ .. ما لئذى قاته من
بالأفص ؟ .. لا يذكر ، وإن كان موقاً أن المعلم سمع سريرة شعرة
لتحيتها .. فجأة صاحو في الطبال والرمال أن يعرف لمن لرفاف ، ضحك
كايداهم حتى كادت تسقط من الضحك ، ثم أطلقت زغرودة ألحبت المشد ،
وأدارت الرءوس

صاح رجل :

« عاوزين هريس ! »

وصرح حر

« ابي نفسي بتجور ! »

رد عليه ثالث :

« تتجور من يانن الفذيمة ؟ »

فقال الرجل وهو يتهايل مترنحاً ،

« أمك ماس أم حلمبو ! ! »

وصبح المكس بالضحك

انتهت السجارة ، فليشعل غيرها .. أخذت الذكريات تتسلل مر
سلام ذهبه في تسليل .. نفسه تصفو وتشف حتى ليكاد يمسك بأصابعه
حبه الكاس في صدره ، الحياة صهوة ، أجل لخطاتها تلك التي ملقى فيه
أنفسه في حضم صحنها وصحنها وبارك لها رصف من مشاعر ، فتقور
لشعر ، عندما زغردت كائدهم مرة أخرى ، جلديه المعلم جمعة من يده
وألقى به على صدرها ، احتضنته وهي تقول بحسب
« اسم الله عليك ! »

كاد يتشبث بها ، ويدفن رأسه بين عذبتها ، ويبيكي . . . لولا أن غنى
لرجال مع اللحن المعروف : « ائحطري يدخلوة يازينة ! » ، ضحكة وصرح

وعاء ، هيب تذلع الستة في العنوس فتجلى الحياة في بظر السعداء إلى جبه
حراء ، لأول مرة يرى لرجال وجه كائدهم وقد كسته طبقة كثيفة من
الحزن ، بظر اليه من خلال أبخرة البوطة التي كانت تغل في جوفه ، رآها
كالدماغة .. . همس في أذنها فعاء صوته وكأنه آت من أعماق محيط :

« مالك ياكيداهم ؟ ! »

قضت بأصابعها على ذراعها ، وأشبث أظفارها في صدريته ، وعضت
على شفتها اليسى ، وتلفس وجهها ، همس في حناك :

« مالك ياكيداهم ؟ ! »

« ولا حاجة يا محمود ، ولا حاجة .. . ووحى ! »

اعتصر الحنان قلبه ، تغلب منه أن يذهب بها إلى ليبت ، ليس غريباً أن
يذهب معها ، لكن الغريب أن يذهب بها وهي لتي تذهب بكسل
الرجال .. . ربح الطريق قوية باردة ، والأصوات تصل إليها من البوطة
صاخبة .. . وهم وحيدان كن منها متشبث بالأحر ، يعبران شارع السبع
بسات ، وتغوص أقدمهما في طين الرقاق الصاعد إلى حيث يرفض حتى
الماء ، السكون يشبه الكون ، تفرقه بين الحين والحين ضحكة فجرة ،
أو صوت فحش .. . رجل يتربع ويلقى بنفسه في طويقها فيربحه بذراعه ،
ويعضضن صامتين في انطلام يسود الحجرة والبرودة جمدت كل شيء فيها ،
ولور المصباح الذي أضاءته كائدهم صاحب كرجهها

« مالك يا كائدهم ؟ ! »

جلست أمامه فوق الكنة ، وبطرت إليه طويلاً ثم ابتسمت قائلة :

« معاك سيجارة ؟ »

مد لها يده بالنسيجارة فأشعلتها ، ثم سهمت بنصرها ، وهددت بنظر اليه
متحصنة ، وكأنها تبحث في وجهه عن شيء

« تحشش يا محمود ؟ »

صمت ولم يرد . . . نهضت وسارت إلى الدولاب ، وراحت وجاءت وهي تعد الجوزة والمحجرة وتنقع في النار وهو ساهم ينتظر عودتها ، لم يكن يعد في شيء بعينه ، ولم يكن يعرف كيف يفكر . . . كان يعلم أن اللبنة ستنتهم ككل لبنة ، سيلقى كل منها بحسده بجوار الآخر ، ستقبل يده ويقتل وجنتها . ستدفن رأسها في صدره ثم يمان ! . . . يعل الرجال أنه ناهي بالوه واحد بعد الآخر ، لا يدري السبب فيما يتدبه من ضيق كليل فكري هذا لموصوع ، لو أرادها لم رفضت ، هو موقن من ذلك ، لكنه حرمها عن نفسه كمعصود مقدس منذ تلك اللبنة . . . نادا وهي عمله متداولة في كل يد ؟ . . . شعرها تهدن على كتفيها ، ودماؤها صعدت لتصبغ وجنتيها ، ولسار منتبهة تحت أقدامها . . . رح يحمق فيها وهو يتساءل في دهشة « أهله هي كائدهم ؟ ! » . . . حرت عباء فوق بشرتها ثم أستقرت فوق أنفها ، فوجدته دقيقا مستويا ذا فتحتين رشيقتين ، العجيب أنه اكتشف جوهله ملاحمها ! . . . شفتاهما مكثرتان مشويتان في امتلاء ، منطقتان في ليونة ، أراحت كل شفة نفسها على صدر الأخرى و تمب . . . حول عيها سواد يعطيها جلالات أحادا ، دلتها مدبه أنيقة صغيرة ، رقبته مستديرة ممتدة ، وشعرها فاحم كسواد الليل ، يحيط بوجهها كاطار يحيط بصورة رائعة الحسن . . . اذن ، اذن فهذه هي كائدهم ؟ . . . حبيسة القلب ، وملاهمته ، وباعة الحياة في حياته !

أصابعها تمد الحوزة في حكة ، أصابع مستطبة مكسوة بظقة من اللحم كأيها الذي في رقبته ، ودراهاها كدبابي السكر في استدارتها وحلاوتها ، وصدرها ممثلي متهدل بعض الشيء ، وبطنها عالية ، يتموج فوقها الصنان اللامع تحت ضوء المصباح ليأخذ بصره ، أصابع قدميها طويلة الأظافر

تحششها الحياء . . . لماذا لا نغس كائدهم يديها . . . لا يدري ، ولا يهيم أن يدري !

اذن . . . فهذه هي كائدهم ؟

هل هو سكران ؟ !

« يتفكر في إبه يا محمود ؟ ! »

أفاق عن تغريدها وهي تمد له يدها باخوزة ، نظر إليها ثم قال :

« كان مالمث اللبنة ياكائدهم ؟ »

قدعت له طرف العاب فندسه بين شفتيه وراح يجذب أساسا شرقة ، ثم بحث سخبات الدخان فغطت وجهها ، دمت طرف العاب بين شفتيه ، فتساءل في مزح : « أليست اخوزة أسعد منه حالا ؟ ! » . . . وانبسم ، ثم صحت

« تنضحك ليه يا محمود ؟ »

امتدت ضحكته من أعناقها كأب جبل طويل اخترته طويلا ، حاول أن يتوقف فلم يستطع ، وأراها تحمق فيه وزداد ضحكته حتى استلقى على ظهره ودمعت عيها ، ما الذي حدث له ، لكنه ثالمث نفسه بصعوبة ، ووسج دموعه وهو يقول :

« مش هاوزة تقولي لي كان مالمث اللبنة ياكائدهم ؟ . . . »

نظرت إليه بكن عيها ، ثم قالت متعثرة ، كأنها عذراء

« ما سأنشيش ليه يا محمود ؟ »

« على ريبه ؟ »

« الرجاله هاترين أنك رقيقى ! »

« عاروف . . . »

قاهما في اقتصاب ومراة ، وأحسن كأنه جرح ، وكان كبرياءه أهميت
قد يؤمن في قريرة أنمسا بقميص مجمل من التصريح به حتى أمام أحب الناس
اليسا ، رضى بتضييع منها ولم يحاول أن يتعذاه ، لكن عذابه كان كبيرا ،
وسطرات الرجال من حوله تلقى به في أنشون ملتبه بالفضيخ والخيرة
ولعذاب ... ترى ماذا يقولون لو عرفوا حقيقة ؟ ... وهل سيصرفونها ذات
يوم ؟ ...

« فاكرو يعمود أول ليلة جنتها هـ ؟ »

سؤال غريب ... هل نسيها هي ؟ ، هل نسيته حرف عما قالاه في تلك
الليلة . أليكون شادا بين الرجال دون أن يدري ، هل لعب المحذر برأسه
كلا ، ولكن ... لكنه يتجمل من الاعتراف أمامها بها صبر عليه طوال تلك
الأيام .

« فاكرو ... عاوزة تقولى ايه ؟ »

« عارف أنتي حرمت نفسى عليك ليه ؟ »

وصعت يدها - بقسوة - فوق موطن الجرح فكاد يصرخ من الألم رغم إيهانه
العميق أن ما تقوله هو الحق . إلا أن الغضب يثور في صدره كالبركان ، لقد
رضى أن تحرم عليه نفسها ، لكنه حرم عليها نفسه هو الآخر ! ... اليس
هذا صحيحا ؟ ... أم هي بلاعة عيب يشمخ برأسه ؟ ... قل بنبرات
صارمة :

« عاوزة تقولى ايه ؟ »

« زعلت يا محمود ؟ »

« انتكسى !! »

« مالك يا صاحبي ؟ »

من هو يحبسها حنقا ؟ ... أم هو وهم يعيش به ؟ ... وهل هي
تحبه ؟ . واذا كان كل هذا صحيحا ، يذهب الحب إلى المحريم ، فكيف
يسمع لعذرة أن تحرم نفسها عنه ؟ لا كان يحب ولا كانت الدارب لو
صر عن ذلك ساعه أخرى

« اسمعى يايت ، انى لو سميت حاجة حاداهدها بمرجى ، وكل ده كان
يكفى ، أنتي الملى عاوزة كده ، هاهمة ؟ ! »
« محمود »

« حافظى على ملاعقتك ، حرمتى نفسك عن راجل باكيدهم ، كل
شئ كان برضاى ، آه ، برضاى ومراسى ! »
منظر الخوف على وجهها يمرق قلبه ، لكن رحولته في البيرن .
فليتمتع

« محمود ، انت سكران والا مسطول ؟ ... وهو أنتي بحوش عندك
حاجة ؟ »

« أوعى تتكسرى كده ! »

انشرت لى المعجم لتخرج في لموقد وقالت بصوت مختق :

« ينحرق عضمى زى الفحمة دى ما كان قصدى ، حتى أنت .
محمود ! »

دموعها تریح أعصابه وترطب قلبه ، كيف قال ما قال ؟ . لماذا يحرقها
وكان قد أتى ليجمع احرق عن نفسها ؟ ... لماذا يهصل الرجل رجولته على
حياته ؟ .

« كماليه عياط بقى ! »

« حتى أنت يا محمود ؟ »

« عيبك دمعت ليه في البولط ؟ »

« صحت على نفسى ! »

« اراى ؟! »

« ماتنى الل عايز كسده ! »

« بتحس زى ماينحك ؟! »

« حاجاه سؤاها ، قاتمض ، وزاعت نظراته .

« ليه بتسألينى السؤال ده يا كيداهم ؟ »

« من نفسى ! »

« وحياة من ملا البحر بالرق بنحك ، انت يابت مش عرفة كنه ؟ »

« عارفه ! »

« طب اصحكى ! »

« وشحكيت ... »

« اصحكى كمان ! »

« وشحكيت أكثر ... ثم أكثر ، ثم قنمت له الجوزة ، وبعدها رقعت ، وأدمعت ، مالت عليه ، وقبلته في شفتيه ، واحتز جسدها وأرتجف كان به الف جتى يعيشون الرعشة في أوصاله ... ثم توقعت فجأة وصويت اليه عينيها في جسارة ، وقالت :

« عارف ليه باه آنى حرمك على نفسى ؟! »

« لم يفض ، ولم يثر ... هل سأها مبسأ عن السبب :

« ليه يا كيداهم ؟! »

« علشان تفضل تخبى ! »

« وصحك وصحك ... ثم صحكاً وصحكاً حتى تقطعت أنفاسها من الضحك ... وعندما هدأ ، قال لها وكأنه يقيق من حلم :

« بقى كنه يا كيداهم ، ده سمع كلام يابت ؟! »

« معلوم اسمه كلام ... الواحدة منا يا محمود عايش العشق ، والحب

لو كان للألم معنى لكان ما ارتسم على وجه كيداهم في تلك اللحظة . حديثه باتر وكلباته مقتنبة وكأنه إله يتحدث عبداً من عبده ، غير لقله المضطرب أن يلقى عن لسانه ذلك الحماق وإن يمد إليها ذراعيه ويصمها أو صدره ، رغبة حارقة تدفعه لأن يحطم ضلوعها فوق ضلوعه ، فحب يندفع من أعماقه فيحرق شفتيه بلوعة ضارية .

« دول كانوا بيرفوس يا محمود ؟! »

« ودى فيها ايه ؟! ... »

« وهى اللي تبنى لها الرقة بابت الناس ؟! »

رغم رعبته الطرقة في اجترار ذكره ، إلا أن الأحداث انتصت في طوفان المساعدة التي أغرقت قلبه ، بكائها بالأمس أن يساه ، وضحكها بعد ذلك س يسلموه ، أبداً ، وسيلط موب كل يوم أن تصبحت كيا صحك ، أن تتحدثت كيا كانت تتحدثت ، أن تبمس في أذنه لتداعب أنفاسها صدغه ... لكنه يعرف كيف بدأ الأمر ، وكيف لأن صوته ، ورطب الحناج حماف كلياته قال لها بنفس هجته الجافة وكأنه يدفع عن شىء عرير

« وانبى مالك يابت ، بكي ايه ؟! ... ألف راسل يمشى ضحك ! »

« يسلم لسانك يا محمود ... لكن ... »

« وصحت ، واشربت بمنقلها نحو النفاذة ، وأخذت تحلق في طلام الطريق خلال فرجة بر دفتيه ، ثم قالت دون أن ترفع اليه وجهها .

« شسايف آنى ساكنه فين يا محمود ؟! ... »

في حياتنا حرام . . . زى الحشيش اللى بتمنعه الحكومة . . . الولية اللى زير
لو عشتقت تبيع اللى وراها واللى قدامها ، وأحتربا حاترجع للسكة تانى
الواحدة مسا لازم تحرم على قلبها ، السومة المرتاحة ، لو دقتها مرة مش حاتسلاط
طول العمر . . . تعمل ايه بعد كده وكل يوم فيه ألف نومه . . . تبيع نفسها
لبس وكل من يشتري حاتقابلها بوش كثر . . . الراجل من دول بتبقى ريمته
مشته ، ولازم ندمن حنتنا فيه ، ونقول له يا حبيبى . . . الجمع من دول ببقى
جوفه زى المزبله ، وأحس ما فينا بنباع بقرش . . . سألت نفسى فى يوم ،
إدا دقتك ، ادا حببتك ، حاسلاك إزاي ، ألساك إزاي ؟

لم يعد يطيع ، كان جسده يرتجف بانفعال لم يستطع مقاومته ، مد إليها
يده وجذبها الى صدره فاستكانت - بلا كلمة - بين ذراعيه ، روح يعبث في
شعرها حيسا ، ثم رجعت اليه عيين ساهمتين ، وشفتين مرتجفتين
وصعدت أنفاسها ملتهبة حارة ، وتلاقت الشعاع في قلبه . وكانت ليلة

ألقى محمود بسيجارته الثالثة الى الأرض ، ونسى أن يرى كبداهم ،
كانت رغبته في تقييلها تفوق كل رغبة أحس بها حنفا ، راح يقرب دخون
السيجارة المتصاعد وقد ثبت بصره على الباب في وجوم وقنف . . . غاد
حرجت ؟ . . . وأين ذهبت ؟ خدر لذيد يسرى في أوصاله . . . وكأنه
عطشان لم يلقى للمياه طعماً منذ سموت ، كان يتحرق لرويتها هم
جالسا في الفراش عندما وصل صوتها الى أذنيه ، كانت تهمس في الخارج ،
لكن همسها كان يعلو لحظة بعد أخرى . . . كانت تتوسل ، وترد على صوت
مزجرجع حاصب ، ثم تحول التوسل الى تنمر . . . وصوت رجل يصيح :

« أنت ياست بتقولى لا »

وسمعها تقول في صوت بانير :

« قمت لك عندى زبون جوه ! »
وانقبض قلب محمود ، لكنه لم يفكر فى الأمر ، قال رجل في صوت حاد :
« يطلع ! »

« د غريب يابو صبع ! »
وهمس محمود في فحيح : « أبو صبع ! » ، عاد الرجل يقول :
« برشه يطعم ، آنى قلت يطعم ! »
« يوه ، وبعدها ويك ، قلت تعالى كمان شوية ! »
« نت بتسحقنى فيه بامره ! »
وعلا صوت اسمواه أخرى :

« تعلى عندى آنى يابو صباع ، معدش تعالى عندى آنى ! »
وصرخ الرجل في صوت متعشر :
« أوعى من بتكنى بامره ، أوعى من السكة لما شوف الطمع اللى جوه ده
يطلع ميس ! »

« ابو صباع ، عيب ، أنت مسكوان ، فتح شوف انت بتكلم مين
يا جدد ! »
« ياست الأبالسة ، أنت بتردى على كمان ، ويتخوفنى . . . طب
تحدى ! »

واطلقت صرخة ثاقبة . . . صرخة نددت في قلب محمود كحجر مرهف
لصن . . . فالتقى بالعداء وقفز الى الأرض ، واندفع لى الباب . . . ودوت
صرخة أخرى ، وثالثة . . . وهجم على الباب ففتحته . . . وجد فى مكانه
كانت كيدهم ملقاة فوق لأرض ، وأمامه رأى أبو صباع هائس الحنة ،
الأسود لون ، لأشعث الشعر ، فى يده سكين يقطر منه الدم !
« الخضى يا محمود ! »

والقى بجسده على الرجل ، كالمجنون . . . فرفع هذا سكينه في الهواء ،
وتلقى محمود ذراعه بكفه ، ثم هوى - في لحظة - برأسه فوق وجهه ، وأبش
الدم من أنف الرجل ، وارتفعت رأس محمود مرة أخرى ، وهبت
كالصخرة ، وأبش الدم من فم الرجل ، وحارت يده ، وسقطت
السكين . . . وأمتلأ المكان بالصراخ . . . ومحمود كالنائم ، يضرب ويضرب
دون توقف ، وسقط الرجل على ركبتيه ، وسقطت رأسه فوق صدره ،
وبدعت ركلة محمود في سرعة لتصلم الفك المتهوى ، وتكوم الرجل فوق
الأرض وهو يتحور كشور ذبيح ، ولدماه تنفجر من أنفه ولمه بفراة . .
والنساء يتجمعن ، نساء كثيرات ، صارحات ، مولولات ، ورجال
مذعورون ، رجالات عرايا ، وآخرون ينصف ملابسهم . . . والرحام
يشند . . . وكايداهم تهتق .

« كايداهم ! »

وكأنه يلطم قلبه ، عبقها مرق ، دماؤها ساخنة عريرة أعرت كفيه وهو
يحاول دفعها إلى صدره .

« احضنى يا . . . مح . . . مو . . . د . . . »

« كايداهم ! »

ارتفع جصاصا من عيين ذهب سوادها ، وتعلقت عيناها بعينه لبره ،
ثم شهقت شهقة أخيرة . وسقط رأسها المذبح !

— ٢٢ —

انتشر خبر وداع ، تجمع الناس حوله وحول البيت ، شعر بالبرودة تمتد
إلى عظامه ، كأن يد قاسية حملته وطوخته في الهواء لم تركته معقاً لا بد
أن يكون حيا ، حيا مزعجاً سيصحو منه ليعود إلى كايداهم من جديد
انهم لا يتحدثون عما وليست هي الراقدة في مكنون بين ذراعيه ، ان امرأة
أخرى طل جالسا وهو يحمل في حيا حتى جروه جرا إلى « الكركون » ،
فانصاع لقبهاتهم الخشنة وأدعى لصراحتهم العليظة وأوامرهم الباترة لم
يحد في الدنيا شيء علياذا يهتم بشيء . . . ذهبت كايداهم دون سابق
انذار ، انقص عليها لقضاء بلا رحمة مرق عبقها وصدرها وأسأل دمها ،
أيمكن أن تكون هي حقا ؟ . قمص الدقيقة كاتها ساعة ، وقمص
الساعات فلا يشعر بمرورها ، أين هو ؟ ولماذا جاءوا به إلى الكركون ؟
جاء حننى مهرولا كمكهر الوجه شاحبه ، يقف من بعيد وينادى عليه ويسأله
أن كان في حاجة إلى شيء . . . لا بد أنه جن ، فماذا يريد ؟ أدار همه
وجهه دون رد لئلا يطلب ؟ . . . يسأله عن حاله بالخاص لئلا يقول ؟

يسألونه عما حدث وكيف حدث ولماذا ذهب وأين قضى ليلته ؟ أجاوبهم
كلما ذهول وكأنه بيعاء برود ما تزحى به نفس ضائعة ، الضابط ينظر اليه
ويسأله إن كان مريضاً ؟ فيهنز رأسه نفياً ، فما هو المرض ؟ ولماذا
يمرض ؟ .. ماتت كائدهم وذبحت من حياته بعد أن عمرتها ليلة ! ...
شهر ؟ طول العمر ؟ .. لكن أى شيء ، فما الفرق بين وجوده الآن
وبين يوم مولده ؟ انفسى كل شيء ولم يعد له وجود ، يسأله الضابط
متى ذهب اليها . ألا تعلم ياسيدى الضابط ذا السجود اللامعه ؟

كانت كائدهم حينئذ كانت عشيقتي ، كانت أمي ، كانت أبي ...
نعم نعم ، قضيت ليلتي معها ، بل في أحضانها ، لماذا تدهش ؟ .. وما
وجه المصعب فيما أقول ؟ .. لا لا ، لم أر شيئاً ، سمعت صراخاً وخرجت
لأجد المسكين في يده ... نعم صهرته ، رفع المسكين في وجهي فهجمت
عليه ، ليتني قتلته ياسيدى ، لا أدري ماذا حدث ، ليته مات ، لو أني قتلته
لشفى غليلي وزغردت دمائي الباردة في عروقي بالفرح !

ظل هناك حتى هبط الظلام ، أحاديث وأقوال وحيد وبصيات وأمسلة
وأجوبة ، وهو غارق ... فهم يفكر ؟ ... يتمنى لو يستطيع أن يمس ولو
لحظة ، أن يدرك حقيقة الأمر ... تهد وخن وحاول الحديث مع حتى ،
لكنه كان كالمخدر بأطمان من البوطة ، غارق غارق يهوى إلى قرار سحق
ليته يصل إلى الفرار ، لو أن هذا حدث لعرف أنه أرضاً يقف عليها ...
ولأنته عذابه ... عذابه الأكبر أنه لا يدري شيئاً ، لا يحس بشيء ،
لا يريد شيئاً . قبض الريح ... عدم !

صرره في النهاية فمضى كأنهم إلى الخارج ، تجمع حوله الرجال وأمسك
حتى بذراعيه كأنه يحمله ، كيف حدث ؟ ، لماذا لا أرى ؟ ..
بنتكم تصمتون لحظة ، جمعه وشلووه والشاطر الطبال وريي الرمار وجمع من

الرجال وكأهم يشيعون جازة ... وبالأخص كانوا يجيئون فرحا . الناس
في الطريق يجتمعون فيه ، واحدة من النساء تقول بصوت مسجوع :
« اسم البني حارسه ، هو له لل مسكه وفضل يضرب فيه خد ما كومه
على الأرض ... ريت يجمعه لشبابه ! »

شباب ؟ ... أى شباب ياسمراء ؟ ، ذهب شبابه رذفت طعلوته
وتبددت حياته وسرد قلبه كحجارة لرصيف قدماء حافيت فأتين
مداسه ؟ .. جسده يرتجف ، حتى لا يزال متعلقاً بدراعه ، يد تمتد اليه
سبحارة أكان يجب كئدهم حقاً حواب يأتيه من أعماقه
نعم ، أدن ، فهاذا لا ييكسى ؟

أهذا هو الحزن ؟ كلا ، قطعاً لا ... لقد جرب الحزن من قبل يوم
أن عرق أبوه في المياه . كان الحزن وقتها كالف سكين تحرس في صدره
وقدميه ، لكنه لأن لا يشعر بشيء ، من هذا ، لا يشعر شيء ، إطلاقاً .
البوطة تظهر من بعيد ، فهو هي البوطة التي عرف فيها كائدهم ؟

أما اليوم كثية ، لكبران تدور عديهم فيخرج الرجال منها في صمت ، لأعداء
ولا صياح ولا طبل ولا زمر ، رفع الكوز إلى شفتيه فوقعت عيابه على مقدمها
لكبير ، كانت تجلس هبا دنياً حولها الشاطر وريي ، لطبنة
والمرمر ! وعما قليل سيمتلئ المكان بالوافدين ، سيبحث الرجال عن
ممشوقة القلوب ، ويسألون عبا ، وسيقولون لهم ماتت !!

ماتت ؟

هل ماتت حقصاً ؟

لاحول ولا قوة إلا بالله ، كيف ؟

ماتت . ماتت . كائدهم ماتت .

حبر له أن يكبت دمعه أمام الرجال ، ليك عندما يتعد بالآله ، كف
يادمع عن العورن . . . لتطفئك البوطة أو تزيد نارك اشتعالا . . . ماتت !؟
حنفى ينظر اليه بحنان ، حتى حنفى ذو القلب الصخرى ياكيداهم تحرك
قلبه من أجلك وفص مثل هذا الحنان ، حتى أنت يا حنفى ؟

« محمود !؟ »

« كايدهم ماتت يا حنفى ماتت بصحيح ! »

« محمود . . »

انطلقى يا صرخة فملك غرقين صدرى وعنفى

« اه . . اه . . ماتت يا رجاله ! »

لماذا يبكى ؟ . . . هل ستعود ، أبدا ، ذهبت ولن تعود ، قسه لا يصدق
ولكن ما العائدة ؟ . . . أمره الى الله ، ما حدث قد حدث . . . مزق المجرم
عنقها !

« دبحها يا حنفى ، دبحها يا رجاله ! »

كيف يتحدث الناس عن الصنيع وهم لم يجربوا برودة القلب ؟ . .
الدموع في عيون الرجال كما هي في عيني ، أين أنت يا كايدهم ؟ . . .
أتموتين يمثل هذه السهولة . . . أتركوه يا رجال لحاله ، لا بد أن يبكى ، دعوه
يصرخ كطفل . . . الدنيا تبكى أمطارا فزيرة في الخارج ، راحت كايدهم
ولن تعود . . . ليت يستطيع أن يلطم خديه كالسياه ، ويرفض بقدميه
كالأطفال ، ويصرخ بلوعة كالتيكلى ، ويصرخ في التراب . . . فقد ذهبت
كايدهم الى المشرقة ليبرقوها اربا اربا . . . تركته حبيبة الروح في فراغ لا
محدود ، في ضياع . . . في . . .

« يا حنفى . . . يا حنفى ! »

أتبكي أنت أيضا يا ابن العم ؟ . . . مرحى ! . . . هطلت الأمطار ، عم
الرخاء ، فاصت القلوب بالحنان ، زغرذت الألسنة بالصوات والوواح
والبكاء .

كايدهم . . . أين أنت يا كايدهم !؟

سحتها هنا المعلم جمعه ، وسمع الرجال فيها سمعوا في ذلك المساء ، مبهات
عمود ونشيجه المكتوم وشهقاته المتتالية .

حتى حنى البلطى ، الرجل ذو الوجه الحجري والملاح الجملة ، الذى
تبعث تقاطيعه الصارمة في النفوس رهة واحتراما عميقين . . . حتى حنى
البلطى فرت من عيبه الدموع .

وذكر اسم الله في تلك الليلة على غير ما تعود الرجال أن يذكره في كل
ليلة ، ترجم الرجال على كأيدهم مرات ومرات ، وعشرات المرات ، وقرأوا
الفاتحة بشعاع تبعث من بينهما رائحة الخمر . . . حتى إذا انتصف الليل ،
صمخ الرجال عمود وهو يتحدث المعلم جمعة قائلاً :

« حانعملوا ايه في الحسرة يامعلمى ! »

فقال جمعة وهو يهز رأسه هزات متتالية :

« جسارة كأيدهم ياعمود ؟ ، عروستك الى انرفت لك أمبارح ؟ ! »

وقال حنى بنبرات حون :

« وحد الله يامعلم جمعه ، وحد الله وشد حيلك ! »

وقال عمود :

« أيوه يامعلمى ، جنازة كأيدهم يامعلمى ! »

وامجد الشاهر في نشيج غبيظ ، ومال إلى الأمام وهو يدهش رأسه من كفيه
وينخرط في تحييب متصل . . . وقال حنين شلوقة :

« يمين بالطلاق بارجاله لو كانت بتى ماكنت نحزن عليها كنه ! »

ومص رجل في طرف المكان في أذن رميله

« ياسلام على بنى آدم ، امبارح كانت كأيدهم مجتة البوظة بالى

— ٢٣ —

أنتاب الذين مروا ببوظة شلوقة في ذلك المساء عجب شديد ، كان زس
والناظر حائسين في غير مكائبيها ، والرجل مطرقين حول الموائد الخشبية و
صمت ووجوم ، لاغناء ، ولا مواويل ، ولا ضحكات ولا أحاديث . .
حتى حين شلوقة ترك مكانه وجلس بجوار عمود ، وأكوأ البوظة تدو
حقا ، ولكن في صمت . الدخان يبعث من الأفواه ويسبح في سماء المكان ،
نكه كان باردا كأنفاس الرجال . . . الرواد هم هم ، والوجه هو هي .
ولكن هناك شيء ينقص الجميع .

وقد مضى الوقت ، مضى بدقائقه الثقيلة المبطونة ، وثوابه لرتبه
المعلمة ، وساعاته التي تشبهت بالدهور فأصحت في مثل طوفان .

شهو المعلم جمعة ، وارتفعت نحوه كل الميرون وتعلقت بوجهه من
السدوب ولأحاديث ، ورأى الرجال فيها زأوا في ذلك المساء ، دموعا غارا .

فيها . . . الت دى كان فيها شىء الله ، معيش رجل في الوطة الا لما هو حزان عليها .

ورد عليه زميله وهو يرفع الكور في شنتيه

« مش يقولوا رانية ، انا يمين الله كانت زى سات الاكابر ! »
وعاد محمود يقول في الحبج .

« اجنارة يا معمم حمة ، لازم تلبسوه دفعة كويسة ، ولازم تعملوها
خرجة ما حصننش قبل كده ! »
وقال حسين شلوفة :

« عهد الله ما حد هيكم دافع سليم ، رقتى سداه ! »

نظر اليه جمعة في توسل ، ثم قال واليكاء يحنن صوته

« يا حسين يا حوي ، حلى تحيب ها لكنن ، وابقى اشترى لى انت كمن
لما حصلها !! »

ومضى الحديث الآخرين يحضون في تناقل فوق الدفاتق . . . حتى اندفع الى
الوطة رجل كان يلهث ، وما كان يهم بالكلام حتى صدمه الجو الغريب ،
فتوقف محملاً في الرجال بذهشة ، ثم سار في بط نحو أحد المقاعد ، وجلس
عليه وهو يحول بصره في الوجوه . . . والتفت الى حازه ، وكان هذا مطرقاً
كالآخرين صامتاً وكأنه في غيبوبة ، فهال عليه وهمس في تساؤل :

« خير يا معلم ، الرجال ما هم . . . هو الخير وصل !؟ »

رفع اليه الرجل - ولم يكن صيدا ، بل حملاً في المياها - وسأله في لا
مسألة

« حبر ايه ؟ »

« المركب ! »

وكان في ضاق الرجل بموضع حديث الواجه الجديد ، فقل في ضيق ليسه
الى حقيقة الموقف

« كبد هم ، البقية في حياتك ! »

« ياليتك سوده ! »

ثم ساد الصمت مرة أخرى ، على أن الرجل كان يشعر وكأن صدره يره
بي يحمل من آساء ، فأخذ يجيل بصره في الوجوه خيرية وليث فترة يغالب
رغبته في لبوح بها جاء يلهث من أجله . وما أن انتفت عيابه بعين
حنفى ، حتى أومأ اليه وهض متجها نحو الخادج يتبعه حتى في صمت !

وعندما عاد الى الدخول مرة أخرى ، كان وجه حنفى المتجهم قد اكتسب
مطقة صخرية من الغم . . . وما أن وصل الى مكانه وهم بالجنوس ، حتى
نظر الى محمود نظرة من يحمل في صدره مالا قبل له به ، ثم قال بصوت
محتشج :

« يا الله يب يا محمود ، سلام عيكم يا رجالة ! »

وكان كما كان محمود بلا حول ولا طول فقد هض مستسلاً ، وانتبت نحو
الرجال ، ثم دار بعينه في أرجاء المكان ، وانابه في هذه اللحظة طوفان
متلاطم من المشاعر ، وقشعر بده ، وجاشت نفسه بأحزنها . . . وعندما
استدار وهو يرفع للرجال يده بالتحية ، تصاعد الى رأسه سؤال :

ترى . . . هل يعود الى الوطة بعد الليلة ١٤

دلف حنفي ومحمود الى الرقاق ، وعاصمت أقدامهما في الوحل الذي صنمته
أمطار الليلة ، وعندما يلعا منتصفه ، استدار حنفي نحو ابن عمه ، ومد اليه
يده وبشده على يده ، ثم قال في همس .

« معيش داعي حد من الزقاق يعرف عليك حاجه يا محمود ، شد حيلك
قدام أبوك ، وبلاش تبقى صغير ! »
هز محمود رأسه موافقا ، وعاد حنفي يقول في اقتضاب :
« المركب وصلت يابن عمسى ! »

ارتفعت رأس محمود في سرعة ، وسدد الى حنفي نظرات حادة ، بينها
كانت عينا هذا تشعان بريقا غريبا في ظلمة الرقاق . . . وما لبث محمود أن
هز رأسه في صمت وهو يعض على شفته كمن يعاني آلاما مبرحة . . . ثم
استدار كل منهما نحو باب بيته ، واختفى فيه .

قالت عطيات ، وهي تمد يدها بكوب اللبن الى زوجها :
« ومستنى به ياسى حمودة ؟ . . . ماتقول لأمويا محمد ونتركلك على الله . »

وأخذ حمودة يفرك قدميه ببعضهما تحت العطاء ، وهو يرفع الكوب الى
شفته ويرشف منه على مهل ، بينما راحت عطيات تؤدى آخر أعمال يومها ،
ودثرت باب الحجيرة بجدياب كي تقي أولادها الممدين على خشية هوق
الأرض هواء الليل البارد ، ثم راحت وجساءت في الحجيرة باقلة شيك
مكانه ، مرتبة وصح شيء آخر . . . لكنها ما لبثت أن تعجبت دور
الليلة ، فتجهت نحو الفراش وتسلفته كي تزحف الى مكانه مع حمود
الحائط ، ودست جسدها تحت العطاء ، والتصقت بزوجها فائلة :

« هيه . . . ايش قولك ياسى حمودة ؟ ياخويا أنت مستى به ؟ »

أعتمد حمودة في جلسته ، وظهرت عن وجهه مهاراة لتعكير وهو يمد
حساس :

« أتى بعد ما كلمت حنفي ، ربك والحق ، حسيت أن حمل الزواج من عن قلبي ، قلت ياوادة أتوكل على الله وقول لأبويها محمد بالمرّة ، كده كويس ؟ »

« كويس ... وابه الى أخوك »

قالت عطيات ذلك وهي تدس كفها في فتحة جلديده ، استشعرت دفء الفسراش فحست الى الانصواء تحت جسد زوجها ، وفازت في نفسها أحساسيس جد عميقة ، كانت تستمع إليه بأذن ، وتستمع الى دقات قلبه بالأذن الأخرى ... طالما فنت في أعماقها أن ترحل به بعيدا عن الشاطئ بالرغم من ذلك الخوف الذي كان ينتابها عندما تتصاعد الى أذنيها كلمة الغربة أو الوحدة ، وبالرغم من حبيتها الشديد للرفاق وحبا العميق لأهلها وأهلها ، إلا أن الدنيا بها فيها من غرائب كانت تسحرها ... ظلت تجتر أحاسيسها هذه في خوف حيناً ، وفي أقبال حيناً آخر ، حتى حدثها حمودة بها في مساء من رعبات ، في تلك الليلة فقط ، ورغم الدعر الذي انتاب ، لم تستطع مقاومة تلك الفرحة الطفولية التي راحت ترغرد في صدرها ، وانراخ القناع عن مشاعر كثيرة ما حيرتها وأتعبت ذهنها ... ولم تعد تتساءل فيما بينها وبين نفسها ذلك السؤال الذي كان يجعلها أشد ما يكون الحجل ... لماذا كان زوجها دون باقي رجال البطل مريب ؟ ... في أحيان كثيرة كان ينتاب اليأس والقهر فنيكي في صمت ، وتطلب في حرارة وصدق من الله أن يمن عليه بالشفاء ... لكنها سرعان ما كانت تهر نفسها - وكأنها إنسانة أخرى - وتطرد أحاسيسها لتتموص في أعماق وعيها ، وتدس في ظلام كئيف ... وما أن لاحظت لها بوادر الشفاء في الرحيل ، حتى غاضت نفسها بحيوية لم تدركها سباً ، فكانت تنساق اليها في شوة ، غير عاتية بها كان يحطر بهاها من أسئلة تدفع حمرة الحجل الى وجعته !

ناولها حمودة الكوب لمارغ ، ومسح شفثيه وشاربيه بطهر كفه ، ثم نجشاً فمالأ يدها بالكوب حوقاعدة الشباك المجاور لمعراش ووضعته عليها ، ثم عادت تدفن رأسها في صدر زوجها ... وامتدت ذراع حمودة لتلتصق حول كتفها ، وأشراب بمقه الى حيث كان أولاده يعطون في اليوم ، ثم امتدت أصابع يدها الى المصباح العاري المعدن بجوار الفرش ، وحفص ضوءه حتى امتلأت الحجرة لعلال تكسوها ضياء شاحبة محبة الى نفسه . وعاد الى الحديث .

« وصلت قهوة سلامة لقيت لرجالها عزالين يتكلموا في حكاية عبد الموجود . »

« أهى ربنا يروق بهمميه نجيب قصه !! »

« يا شيخه حرام عليكى ... المهم ، قعدت جنب أبويها محمد وطلعت كدية الشاي ، وقلت سسى حبتين لما الجوز يروق ... وشوية وداحل عبد الموجود حمدان ! »

ورفعت عطيات رأسها الى وجهه ، بيها روح هو يذاعب شعرات شاربه في صحت ... وفار صدر عطيات بها فيه من شوق ، قدست قدمها بين قدميه ، وعادت تضع رأسها فوق صدره ، فأغرقها أنفاسه الدافئة ... ثم قالت بصوت نائم :
« وبمسدين ؟ »

« وبمسدين دخل الراجل ... سلام عليكم ، عليكم السلام ، سلامات ، الله يسلمك ... كلمة من هه وكلمة من هنا ، والرجل يقول به عاوز مشتري لصلايك بتاعته ! »
« انتفضت عطيات ، ورفعت رأسها اليه ، ثم تساءلت في قلق :
« تانى ... العلايك تانى ياسى حمودة ؟ »

« أبوه ياستى ... معدوش مانع بيع العنوة بأربعين ، ولشبكة اه
تلاتين بعشرين ... »

« وبمدها ؟ »

« ربك والحق ، آنى قلبى انقبض ، لما العنوة تنباع بأربعين والشبكة
بعشرين ، وأحسا عدد شبكتين وهنوة ، يعنى خمسة كلها تقى خمسين ،
التلاحة الى فى شارع ، لجيدان حات آخر ما جت أربعين ، يفصل معاد
أربعين ، حايتمسوا نقلان مصر ، وايجاز بيت ، ودكاه ، وتوصيب على
والدى صه ١٩ »

« وبعدين ياسى حمودة ، والعمل ايه فى لراحد ده ، معيش
واقاطعها حمودة مستمرا فى حديثه :

« طولى بالك على يابت التامس ... أبويا محمد سمع انكلام ده وطب
ساكت ، الرجالة قعدو، يبصوا له أنه يتكلم ، يقول حتى لا اله إلا الله ، م
انكلمش ... أنه يقول كلعة ، ماقالش ... راح عبد الموجود موصل على
وقال ايش قولت بامعلمى ، أبويا بعض له بص عين ورايح منور وشه السابحة
الثانية ، راح عبد الموجود مسطور من مطرحة ، هم وقف وهو بيرعق يعمر
حسه ... المرة اللي فاتت شتمنى محمود الى زى ابى ، المرة دى مش عاوز
ترد عن بامعلمى ، هو آنى كمرت ؟ ... »
« وأبويا محمد فصل ساكت ؟ »

« ابتدا ... رفع له عيه وقال له ، يا عبد الموجود انت حمت العيش
والملح ، حكاية المركب دى عمتها خونه فى الرجالة ، لوحك ، من غير
نشور أحواتك الى عرفوك حربن وقلوك فى وسطهم وقالوا لك يوم م كنت
عريب ، يا صرعب ... اذا جت المركب دى يا عبد الموجود الرجالة حايصمر

ايه ، رزقهم بيعمونه فون ؟ ... ثوبت ولادهم من الجوع ؟ ... راح عبد
الموجود صاوح فى وسط القهوة ، شاهدين بارجاله ، س حراند ، المعلم
محمد البطل يقول على جربان ، معلش يذهر برصه معلمى ولحم كتافى
من غيرك ، لكن آنى مش نذل نقطع عيش حد ، واللى عاوز يأكل عيش
رقتى سدة ، خدام للصغير قبل لكبر ... راح أبويا محمد هابب من
مطرحة ، وهجم عن عبد الموجود ومسكه من طوقه ، الرجالة حاجت ،
والديا وقفت على رجل ... بصيتا لقينا أبويا يقول ، يمين بالطلاق الى
يحط ايده فى ايد عبد الموجود حمد ن فى بيع قارب ولا شرورة شبكة ، محرم
عليه اللطية كبيرهم وصغيرهم ! »

وساد الصمت ، وترددت الانعاس فى جو الحجرة ، وسب ظلال الأثاث
طويلة فى ستلقاتها على الحائط والسقف ، وحاولت عطيات أن تكبت رعبتها
احتراما لانفعال زوجها بما كان يحكيها لها ، حاولت أن تقتلها ... فلم
تفلح ، كان لدنبة الذى تسرب الى جسدها أقوى من كل عنة ، والرحيل
عن الرقاق وشعاء حموده أقوى من كل عبة ، وكانت سعيدة ... فمدت
جسدها وهي تتمطى فى أحضان حمودة وقد اتقدت مشاعرها ، وما لشت أن
قالت بصوتها الماعم وهي تمد ذراعها متلصصة لتحيط به جسد حموده ونصمه
الى صدرها :

« وبمدها ياسى حمودة ١٩ »

« وبمدها خرج عبد الموجود ، لرجاله حاجت ، كلمة من ده وكلمة من
ده ، وحلفا اليمين ما حد فينا يمد يده فى جسي معامله معاه ، شرا او
بيع ! »
تسللت عطيات الى معيتها فى حذر وهي تقول :

« وقلت لأبوي بمحمد ١٩ »

كانت تعلم رده عن يقين ، لكنها أرادت انتهاء الحديث ، وقال حمودة
 « يا أولية أعقل ، إذا كان القارب مرمى عن الرصيف بأربعين والشيك
 بعشرين ، نقول للناس انه ... أنى قلت نسكت جبين ، يومين ثلاثه ،
 'يسوع' . ومسيرها تحل ، وقتها بيع القارب زى الأصول ، وأقول
 لأبويها محمد ! »

« وحضى عمل إيه ! »

« حنى كان عطشان ما اعرضش فين ، زى مايكون فص ملح وداب .
 الصباح رباح ! »

دمت عطيات اصابعها في شعر زوجها وأخذت تعش فيه ، وأدار حمودة
 وجهه ناحيتها ، ونظر إليها خلسة ، وما أن رأى وجهها المستكين ، وعينيها
 المغمضتين ، حتى ابتسم في سعادة ... وقالت عطيات في دلال :
 « قدأمتنا كثير ياسى حمودة على كسده ! »

ضغط جسدها الى جسده ، وقال وهو يستدير نحوها ويفرق شفتيه بين
 شفتيها .

« لا أبدا ... أبدا ! »

وما لبث أن ساد الحجرة سكون هميم ، كانت تتخلله أنفاس لاهثة
 حارة !

— ٢٦ —

منذ خمسة وعشرين عاماً ، غادر عبد الموجود بلدته في لصعيد متجه نحو
 الشمال ، ليحبل في صدره قلبا يعتصره الألم ، وفي عييه دموع أبى عليه
 كبرائه أن يذرفها . . . كان يوما أسود ذلك اليوم من أيام عام ١٩٠٧ ، دخل
 القرية في صباحه مرابطون من كل ملة ودين ، يحملهم جرد يحملون سياطا
 يدهسون بها ظهر كل من يقاوم أو يرفع رأسه . . . ونحس أهل القرية كل
 شيء ، وارتفع في مسانها صرح النسوة وبشيع الرجال وبكاء لأطمان ، حتى
 دورهم الطيبة الشداغية ، طردوا منها بقسوة ودون رحمة . . . وكان عبد
 الموجود واحد من الذين أفقدتهم أزمة القطن في ذلك العام كل شيء
 مضمسى في جوف الليل وحيداً إلا من أحلام كانت تحمص من قوة
 الصدمة . . . وراح يقتل من بلدة الى بلدة ، من مدينة الى أخرى ، وكلما
 حط رحاله في مكان ، رأى الجوع والفقر يلاحقان الناس رأى في المدينة
 التي اعتاد أن يقصدها كل موسم ، محلات أغلقت أبوابها ، ودكاكين لا تجد
 من يقرها ليشترى شيئاً بقرش . . . وعندما وص إلى القاهرة ، وجد فيها

حالا أسوأ... الناس لا يبيعون ولا يشترون ، السوق هائلة لا حركة فيها ولا حياة ، بحث عن مأوى دمجد سوى الأرضة والحوامع ، ولم يكن هناك بد من الرحيل ، فتمجه نحو الشمال مرة أخرى .

عندما وصل الاسكندرية ، مرت به أيام سود تضرور فيها جوعا ، ويات ليائها بحور الحدران . . . حتى استطاع ذات يوم أن يعمل حالا في المياه ، فأقلع عن العمل بكل قوته ، وراح يلفت إليه الأنظار عن عمد ، ففكر به انعلم إليه ، لكنه كان يعمل يوماً ويتعطل بضعة أيام ، فلم يصبح الفرصة ، أحد في أيام بطائه يتكسب على الأرضة ، ويغترق من الرجال ، وسرعان ما خرج في أحد فوارب الصيد دون أن يعرف عن الصيد شيئاً ، لكنه استطاع بعد أيام أن يتقنه كأحد ابتائه . . . وتفضل عن عمل إلى عمل دون تضرر أو صيق ، واستطاع بذلكه ولماقته أن يكسب قلوب الرجال في كل مكانه ، فوثقو به وبدرأعيه القويين . . . ومرت الأيام ، وعرف كل رجل في المياه ، واستطلع ما يدخل كل شئ فيها . . . وبعد سنوات قليلة ، كان قد وضع اصبعه على حقائق الحياة في تلك المدينة الواسعة .

كانت الدنيا جديدة عليه فعاملها بحذر ، وأخذ يلتقط من هذا سر صناعته ومن ذلك سر عمله ، حتى أتقن في سنوات قليلة كل صناعة وكل عمل . . . وقامت الحرب العالمية الأولى ، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً جنونيا ، ووصل ثمث أردب القمح إلى ستة جنيهات بعد أن كان ثمة سنتين قرشا ، ففرع عبد الموجود من لون الكسب ما خفى على الكثيرين . . . وسرهان ما اشترى قواربه ليصل بها العيون الباحثة عن الأسرار ، وأفلح . . . تاجر في الصوف والملايس والطعام ، وكسب ألوف الجنيهات . . . وانتهت الحرب بخيرها الذي جلبته له ، وشرا الذي استغله لمصلحته ، واضطربت البلاد فكان له من ذلك نصيب ، وهذات ، لبحث بعين الخير عن صيد جديد ! . . .

وعرضت عليه صعدة كاد عقده أن يطير بها ، وحسب حسبتها في رأسه . لم يكن يعرف لفراة أو الكتابة . فوصلت نتيجتها إلى أرقام مذهلة لم يعرف كيف يحدها ، وإن استطاع أن يتحلى مقدرها . . . ومكث أياما وهو متعب من الاقدام والاحجام ، ثم غامر بياله في لحظة جنون . . . فقد كل شيء !

وهزته الصدمة بعنف ، ولاح له شبح الماضي كئيب ، وكاد يستسلم لليأس ، وبدأ يصعد السلم من حديد . . . وأخذ يشق طريقه في ذكاء وجهده حتى استطاع أن يقف على قدمه مرة أخرى ، وتكونت لديه بضعة ألوف ردت إليه الثقة بصره . ومضت به الأيام دون أن تعبر من طساعه شيئاً . يرسل القوارب بالرحال في الصباح ، ويقف على لشاطيء في انتظار عودتها بعد انغروب ، يذهب إلى الخلفة ، ويسبق في مهارة ، ويتنص المال في جنز ، ويعطى نكل ذي حقه . . . يصاحب لرجال ، ويشاركهم سهراتهم ، مظهر العمة البديعة عليه لم تبدل من أخلاقه شيئاً ، ولم تورع لآلوف في نفسه المتعالي أو العرور . . . حتى كان ما كان من أمر الانجليز « هوب »

حاورا إليه منذ عام كامل ، وهمسوا في أذنه بحبر غريب . . . رجل انجليزى يبحث عن شريك لإنشاء شركة هائلة . . . احتاروه من دون لرجال لثقتهم فيه وفي سمعته لتس تقوى الذهب اصانه . هكذا قالوا له . . . وأحدوه إلى عربة أبيقة ودعوا به إلى فندق فخم ، واجتمع لأول مرة لرجال قانو له أن اسمه مستر « تشارلس هوب » . . . تلك الليلة عرضوا عليه المشروع بالتفصيل ، فشرى كما لم يشرب في حياته ، وابتسأ كما لم يتش في حياته ، وضحك كما لم يعرف الضحك من قبل . . . أمواله جميعا بحرق حبه قرشا قرشا ، وكان يضع القرش فوق لقرش ، ويكسب بالقرش قروش

آخرى ، ورجل انجليزي يحدّثه حديث الهند لند ، ويقول له « مسة
حمدان » ، وراسه يدور ، وحديث المال يسيل لعابه . . . فهل يقامر بكل
ماله مرة أخرى ؟

ومثلاً حدث في الماضي تردد وأحجم ، أخذ يقلب الأمر في ذهنه ،
والرجل لا ينجح عليه ، والوسطاء لا يطارده ، اعطع عيهم أيما علم يعود ،
الى الاتصال به « أراد أن يجس نبضهم فذهب ليجدهم قد نشوا منه
كان يعرف ما للانجليز من سلطة وسطان . . . أن يشاركه أحد الأثرياء
شرف لم يطمع فيه ، ولكن أن يشاركه أحد الانجليز ولم ماعهم في البلاد من
قوة ونفوذ ، أمر لا يستهان به . . . ومنذ ما يقرب من عشرة أعوام حدث له
ما كان يحدث في تلك الأيام . . . حسب في ذهنه حسنة ، فانتجت أرقاما
أطارت اليوم من عيبيه ليل عدة ، طلب أرواقا قدموا له الأوراق ومعها كأس
من الويسكي ، ويحدث عن حمام - ولم يكن يصرف الطريق اليهم - فذله
أصدقائه على أحدهم ، صعد سلم إحدى الممرات الشاهقة ، ودخل مكتب
مهولا ، ورأى رجلا أشيب الشعر حدثه بكل أمره ، واستمع اليه الرجل في
وقار شديد ، قدم له الأوراق فطرق فيها ملي ، ثم أعادها اليه وتسال :

« الأوراق كلها صحيحة يا معلم عبد الموجود ، والإجراءات التي قالوا لك
عليها ، والشروط الموجودة في العقد سليمة وكويسة ، اننا . . . »

وصمت المحامي وراح يعبث ببعض الأوراق ، وانقبض صدر عبد
الموجود ، وهم يسأل الرجل عما في الأمر ، لولا أن استطرد هذا بصوته
الحادي :

« انت متأكد من الجدوع الانجليزي ده ؟ »

لمب المار في حبه ، وللملح في جلسته وهو يقول :

« تقصد ايه يا مساعدة اليه ؟ »

« انت شفت الباسور بتاعه ، وحت القصية وسألت عليه ؟ »

« أمال أتى جساى لك به ؟ »

« هو لازل فين ؟ »

« في نو كسدة سبيل »

رفع الرجل صاعقة التبعون ، وطلب من مكرتيره أن يتصل بالمستر
تشارلس هوب . . . وساد الحجرة بعد ذلك صمت عميق ، وفقر عدد
الموجود في التفكير وقد استبد به القلق ، واتبع رين حرس النبعون وتنصص
قلبه
وتم كل شيء بعد ذلك بسرعة مذهلة .

انصل لرجل بالقصية ، وعاد يطر في الأوراق من جديد ، وجاه
الانجليزي نفسه ، وقدم للمحامي كل ما طلب من أوراق ، وصمت ثلاثة
ساعات وهم يتناقشون ، ومضى هم الوقت . . . وقبل أن يتنصف الليل
كان كل شيء قد انتهى .

بعث حديث المبال أحلام عبد الموجود بكل عنفها ، فقرر أن يقامر
وليحدث بعد ذلك ما يحدث ، وقع يحمته ، وبصم بأصبعه ، وتسلم
عقدا ، وشرب كأسا ، ودفع المال ا

وطلب منه شريكه أن يكتم الخبر ، فكتمه ، ثم لم يستطيع ، فباح
به . . . كان طموحه قد اشتعل فغرق لأذنيه في أحلام كانت تزوده ليل
نهار . . . وقرر ذات يوم أن يتخلص من قواربه . . . أحس فجأة أنه يريد
أن يطرح هن كفيه أحلام ماضيه بأكمده ، ويصعد سبلي عاليًا ، ويجلس في
شرفة مرتفعة ، ويطل على الناس من فوق . . . وعامت نفسه بجالس الرجال
وسهرتهم ، فأخذ يبحث عن صحاب آخرين ، ورتاد أماكن هجرته وصليته

كبيه ، وعرف نساء لم يحفظن بيانه ، وأتفق ، ويلذر ، ويعثر . . . ومرة
لشهور دون ، تصل اسميه أو يصل خبر ، فأدق على فلو عيب أسود
على مشاعره ، ذهب إلى المحامي فطمأنه ، ذهب إلى الوسيطه الدين نازحه
من ماله الكثير ، فصحبكوا من محافله وأهملوه أن كلمه الانحليه
وحدة . . . وكانوا صادقين !

بعد أيام وصده خطابات من « هوب » بدون عمامه ، يشه فيه بأن وصول
السعيه سيتأخر عدة أشهر . . . وعذب « هوب » من عيب الموجود أن يكتب
له عن أحواله ، وعن أسواق الأسماك ، وعدد من الرجال الذين يمكن
استئجارهم ، وما كاد عيب الموجود يعلم بطلب شريكه ، حتى راح يقص عن
المحامي كل ما حدث منذ أن علم الرجال بحبر السعيه . . . وكتب المحامي
بمناصير كل شيء إلى هوب ، وسرعان ما أرسل هذا خطابا جافا يلج فيه عن
عيب الموجود أن يكف عن الحديث عن السعيه ، وأن يشيع بين الرجال أنه
لن تصل ، بل طلبه من أن يرسل قواربه لتصيد كل صباح كالعادة ، وألا
يتصرف أي تصرف دون الرجوع اليه ولا تفاق معه !

وبعد عيب الموجود وأمر شريكه ، ومرة لآيام وهو شعر رذنه معلو من
لسانه والأرض ، يتنبهه المعلق حيا ، وتضمن نفسه حينئذ آخر . . . جاء
الاصعب وولى ، وساء أخريف واصرم . ثم فوجئ به ذات ليلة بعد أن أدبت
العشاء - بحبر وصول السعيه إلى أحياء !

وكاد يظفر من الفرح ، وهرب إلى الميه غير مصدق ، وصعد إلى السعيه
وكف حنيه من حسده لترغب بالأفعل حتي أنه لم يتبه إلى يد شريكه التي
امتدت لتصافحه . . . أخذ يتحسر السعيه ويريت على صراخه ويدب
بدميه فوق سطحه ويدلف إلى قمراته ، ويهبط إلى محاربه ، ويصعد إلى
حجرة المودة فيها ، ويرجح ويحي كالدهوب .

ثم أفاد أخيرا ليعلن على الرصيف - بعد أن اتفق مع هوب - أنه في حاجة
إلى رجال ، وأنه في حاجة - أيضاً - إلى مشترين لقواربه .

ورأى فيها رأى من بات الدهول رجلا يحيط رأسه في الخائط وهو يصيح
في صوت كظيم « ياغراب بيتنا ! » . . . ورأى فيها رأى من علامات
المبط عيوباً تقع بارز تريد أن تحرقه ، فحمد لظروف أن حدثت بالنسيه في
ذلك الوقت المأخوذ وقد أوى الرجال إلى المقاهي والبيوت . . . وانتظر الصباح
بقلب واجف ، وإن كان يعلم أنه سينصر ، لم يهتز أمام لساب الذي نهال
من الأنفوس ، ولم يراجع أمام التهديد والوعيد ، ولم يلب أمام دموع ذرفها
لبعض في رأس . . . كان كمن وضع قدمه داخل قصر عاش عمره لبيبه ،
وكان السيد ، ولن يخرج منه إلا جثة هامدة . . . تحقق الحسم ، وشترى
للدجاجة التي تبص ذهب ، فأين هو من عيب الموجود حمدان محمد
الجميعطي ، الذي نزح من قريته جائعا ، منذ خمسة وعشرين عاماً ؟ !

بدا شارع وكالة الليمون في تلك الليلة فقرا ، كانت لرياح تهب من ناحية
المنشاء لتكنس تراب الطريق وتحمل بقايا الأوراق التي رحلت تنطير هـ
وهناك ، وساءت قطرة أفلتت من رفاق جنبي ، وسدعت تعبر الطريق
مسرعة . . . وتسلل غار من شق في باب دكان ، وأطلق صراخا ثاقبا وهو
يعنو على الرصيف محتنيا بالعلام ، ثم احتنى في شق آخر . كان الليل
قد انتصف منذ ساعتين أو أكثر ، وظلت أصواء شارع لميدان ، بهرباته
الكثيرة تكدهه بالصانع من حين وريون وفاكهة وحدوى ، تتلألأ لتصبح
كتلة متوهجة من النور . . . ومن وسط تلك الكتلة ، برز شع رجل طويل
القامه مثلصع بشال صوقي ثمين ، وكان يقفز في مشيته قمرات غير متره ، تذل
لنظر اليه على طروب وسعادة يكادان أن يذهب بالقوار البادي على هبته .

وكان الرجل هو عبد الموجود حمدن . وكانت رأسه تحمل - فوق مذهب
من أبخرة الويسكى ، ودخان الخشيش ، وفيها رائحته امرأة أجبية لأرات
تملأ نحياسه . كانت تحمل أفكاراً كثيرة ، ولجوى في داخلها سميات
حسائية ، أهددها تحوى ألوف أكثر . . . وكانت الليلة بلا شك هي أسعد ،
لبلى حياته

وما إن أقرب عبد الموجود من منتصف شارع وكالة لبمون ، حتى انش
الى اليمن ، ودلف الى حارة جانية ، وغزت أنفه على العور رائحة الحارة
النعافة ، فتوقف مترددا . . . ثم قرر على لمور أمرا خطيرا ، قرر أن يحث
نفسه منه العد عن مسكن ملائم ، وليكن قصرا يليق بمقامه الجديد ، وبينما
يستطيع أن يدعو اليه أصدقائه الجدد .

- ٢٧ -

بدا زقاق السيد البلطى في صباح اليوم التالى كئيبا على غير العادة ،
وتغيرت فيه الأحوال والمواقف لأول مرة منذ زمن طويل . فصل أن تصحوام
حنى ، وقبل أن يصلها نداء المؤذن من فوق مثبدة المرسى أبو لحاس ،
مرلت السكون دقت صارمة فوق باب بيت المعلم محمد ، وسعت في
جنيات الرقاق أصوات خشنة ، وأوامر ، ووقع أحذية غليظة . وفحت
الخصون ، وارتجعت لقلوب ، وهب الرجال من نومهم في دهشة مبروكة
بخوف وقلق ، بسيا جدل صوت خشن في فناء بيت المعلم محمد ينادى
على : « محمود محمد البلطى . . . وفي نفس الوقت صباح صوت أمر :

« أين بيت حننى البلطى يا شاوش ؟ »
« لسه معروفش يا أستاذ ! »

« فتح عينك أنت وهو كويس ، افق يا حسكرى عبد باب لرفاق ، وانت
حنى بالك من الأبواب ، محدش يخرج من الرقاق الا لما يموت عى خد ما
تلاقى لأشيين ! »

لكنه ما كاد يحطو في الحارة خطوات ، حتى أحس - فجأة - بمحمل رهيب
يسقط فوق صدره ، وداعى قويتين تحيطان بجسده ، وقبضة حديدية ترتطم
وجهه . . . حاول الصراخ ، فكتمت صرخته كف صحيرية ، وإمال
الصرع عليه بالأيدي والأقدام . غرقت ملاسبه ، وتعرى صدره ، وسقطت
لاسته فوق الأرض وداستها أقدام ثائرة . . . وتلقى ضربة على أم رأسه ،
فمازت به الأرض ، حاول أن يرى وجهها من الوجوه العديدة التى أحاطت
به ، فعاقه الظلام الدامس ، حاول أن يسترهمهم ، أن يفوه بكلمة ، فلم
تسمح له الكف الصخرية بغير النفس ، ضاق صدره ، وأصابعه غشيان
شديد ، وتلذذت ركنته ، وثقل رأسه ، وكان آخر ما شعر به ، زعجرة
غاصبة ، وبصقة اندفعت في غل وصعقت وجهه . . . ثم غاب عن الوعى

ومصت لحظات قلقة ، اتبعت بعدها صوت حنفي :
« آسى حنفي البلطى ، ايه احكاية ١٩ »

وفى لحظة ، كان حنفي محاطا بالثلاث من الخنود ، وشهقت زوبه وهى تنفس
فزعيا فوق صدرها ، وأراحها المعلم صادق عن طريقة وهو يدمع ان
الطراح سائلا عن الطبر .

ومضت دقائق قصيرة ، امتلأت بهرج ومرج ، وبكاء وعويل ، وشهقات
ملشاعة ، وسؤال بلا جواب ، وزجر رجل امرأته أن تكف ، وسؤال يعقبه
جواب مقتضب ، والحاج يعقبه تفسير عامض ، لكنه كان يدور على أى
حال ، حول عبد الموحود حمدان .

ثم عاد الرقاق بعد أن صحبوا حنفي وعمود ، وبقي الجميع فى
دهول يضربون أحاساس فى أسداس ، تكى أم حنى وتولول ، وتصرح أم
محمود من أعماق صدرها ، فينتشر صوتهما فى الرقاق نائحا .
« ياسى يا صديا »

وسرعان ما ارتدى الرجال ثيابهم ، واندفعوا من أبواب بيوتهم مهولين ،
ثم تجمعوا عند ناصية الرقاق فى انتظار من يقى مهم أو أتاحر فى عبور
الجميع دهشة عمروجة خاطرة ماذا حدث ؟ لأحد يدرى !
أعصاب ثائرة وقلوب مضطربة ... دموع النساء تنهمر بغزارة ، وصرح
الأطغان ملا البيوت ، رجال الشاطئ انشق عنهم الطلام فجاءوا مهولين
على غير موعد ، وكان رائحة الخطر قد أبغظتهم فى تلك الساعة المبكرة ...

عاد المعلم محمد البلطى دارة وقد دثر كتفيه بشال سميت وراح يهرق
عصب ، وكان وجهه جامدا لا يلمح عيا فى صدره من تساؤل وجوف وقلق
وحيرة ، وحاولت زوجته أن تعادر الرقاق وراء ولدها ، فأوقعتها بحجرة دهيبة
انبعثت من خلفه ... عاد للرجال الرقاق وصوت أم حنى يلاحقهم وهى

تسأل الكبير والصغير سؤالا أعادته عشرات المرات دون أن تجد به جواب
شاف :

« هو حنى عمل يه ، ايش هم حاجة ؟ ... مال احساكر وماله ؟ »
تحرك المركب ونشئ الى اليمين ، تدب الأقدام المتكاثرة فوق أرض
بمطريق ، فينبعث عنها صوت مدو وكأنه صرخات رجال داهيين الى الحرب !
لعلح صوت مزود ، فحمله اهواء والقى به إلى رفاق صاح ، أبواه
مفتوحة ، وعيون أهله فيها دموع ... والتفت أدنا أم حنى صوت مزود
فانقض فنها ، وصاحت بصوت محنى :
« يارب »

ثم هدأت الأصوات بعد صبح ، وتجمعت لسوة فى منزل المعلم محمد
لايعارقه ، انتهى حول أم محمود وأم حنى ، ورحن يتحدثن ويثرثن
ويتساءلن ويتظنن الأحار ... ثم تفرق حديثهن ، وتقطع ، وتباعد
فراا السكون وعرفت كل منهن فى صمت كثيب

فى ركن خجيرة جلست عائشة وقد دفت رأسها فى كفيها ، وعاشت فى
لحظة عارسة من التفكير ... ورغم حربها الصادق ، ورغم بكائها الحار ،
إلا أنها مشلت فى لمربى كانت تعيش فيه فى تلك الأيام تحت
تساءل فى خوف عما سيمعلوه بحنى ؟ ... رفاقهم بطيف لم تعده قدم
جسدى طوال تاريخه لسطوب ، وسادا صنع حنى حتى تقبض عليه
الشرطة ١٩ ... ولذا أتوا فى جوف الليل ولم ينتظرو حتى الصباح ١٠ وهى
سياتى السيد افندى ليسأل هن خبير ؟ ... ومتى يأتى ؟ هن سيرة وجه
أم ترى الامر سيقصر عن المغارات ؟ ... أتصده أم تقبل عديه ؟ ... هناك

قربت أن تصده بحفاء ، وترفض حنينه المعسول وغرله الملتهب ، طمأ
حاولت وجاهدت ، وبكت وتأتأت ... لكنها كانت تمسح ، داكيا
تمسح ... ما إن تراه حتى تنسحب في نظرات عينيه الجسورين ، وتنسحب
كلهاته كل شيء هذا وحده وجهه ... قال لها ذات يوم وهو يقفد البيت
« ما بقشش قادر يا عيشه ! »

ردت عليه بصوت مرغف ، لماذا يرغف صوتها وهي تحدته ؟

« وبين حاشيت ياسى السيد ؟ »

« يعنى نتوكل على الله ! »

« جمعى تلاقية فى القهوة دلوقت ! »

« بنقول يعنى ... الصبر طيب ! »

« كل صبر وله اجر ! »

« حبيبى لكى مالوش آخر وحياة النبى محمد ! »

« مش باين ياسى السيد ، هو الحب كلام ؟ »

« وأنت بتحبينى يا عيشه ؟ »

ارتجفت ، صوب إليها نظراته فغذت إلى قلبها وسكنت فيه ، وجعلته
يرقص رقصاً مجنوناً ، تلاحقت أنفاسها ، وبردت أطرافها ... حاولت أن
تتمسك ، أن تهر من أنفاسه التى كانت تقترب ، كيف تفر وهذه الأنفاس
تشدها إليه وكأنها غير الحياة ؟ ... صدره العالى يحجب عن عينيها كل شيء
فلا ترى سواه ، صاعد هابط ، ضخم هائل ، يمتلئ بالهواء فى شهييق يكاد
يجرفها إلى الدمار ، كم تتمنى أن تعيش داخل صدره ، عيناها تغلقان
بقسوة هائلة ، يدها تطبقان على كتفيها ، وصرخة تنمرد فى صدرها ، تمتد
وتتصاعد ثم تنهارى لتصبح أماساً نازدة متقطعة ، عندما لاسمت شمتة
جببها أصعبت بدوار ، وتسلل خدر كخمر الحمة إلى جسدها ... لثمت
زوبسه ، وليذهب حفى إلى الجحيم ، لكن صوت أمها انبعث فى تلك

ال لحظة كمرقعة سوط أيقظها من أعماق موته ! ... ارتجف جسده وتثبت
بها ، لكنها صحت وأماقت وانصوت يلاحقها : « عيشه ... عيشه ! » ناد
لا ثبوت هذه العجوز وتركها لحدها ! ؟

« فتك بعافيه يا عيشه ! »

قال لها ذلك وهو يقفد البيت مهرولاً ... وانخفض عن بصرها فقالت فى
صوت حاد :

« رنا يعافيت ويرضيت ياسى لسيد ! »

لماذا مضى ، لماذا ذهب ؟ ... أسس ماقى لديها هو الرجل ، أجمل من
لام ، وأروع من الأح ، وأقوى من الأب ... الصوت يلاحقها ، تستدير
مسرعة فى عل وغيط ، عاد لانكف العجوز عن لبداء إلى الأبد ، لماذا
لا يجملها حبيب لقلب إلى آخر لديها حتى لا ترى سوء ؟ ... ليأخذها من
هذه البيت ، إلى أقدم بيت ، وأحط مجتمع ، قبا عاد فى صدره متسع
لنصر



النسوة حول عدن إلى لثثرة من جديد ، وخرة ضمير يقشعر ف يدينه ،
كيف تحلم بلحبق وشقيقها فى السجر ؟ ... أحذوه عمو ، واستمعوه عن
غير انتظار ، كان شحيرة يمسلاً الحجرة ثم انقطع ، هل تستمع مرة
أخرى ! ؟ ... كيف تفكر فى السيد أمدى ؟ ... من أى معدن
حلفت ؟ .

« يا حبيبى يا حويا ، يزين الرجال يا حفى ! »

لماذا يثرن ويصرخن فى وجهها ، لماذا يقرن لها : « بعيد الشر ! » ، كم هي

لمديدة دموع الحسرة عندما تملأ أهداف جفوننا الملتهبة ببقية الحمران ! ..
 زوبه مكشمة على نفسها تبكي في حرفة ، مشاعر غريبة تتلاحم في صدره ،
 لا تدرى ان كانت تحبها أم تكرهها ... ماذا تبكي هذه الماجرة ، أعل
 حنفي حقا أم على قبالته وضائته ... ضوء النهار يتسرب الى الرقاق ،
 والشمس تصعد الآن من وراء الأرض لتعمر كل شيء ، ولوقت يمضي
 وحبيب القلب لم يصبر ليصال من الخير ... لكنه حتما سيأتي ... وسيتفهم
 مع الرجال كالف رجل ..

« أحم أحم ... ياساتر ... يا جماعة ! »

كف ياقلبي عن الحقدان ، يجذبك صوته بحبوط صحيرية فتترافص وكأنت
 في رار أقيم لقلوب المتاعة ، مجنون أنت ؟ ... أثبت حتى لا ترى لسة
 لعنتك لفتاته ! ..

« قومي يعيشه ودي على السيد أمدي ، قومي يابت ! »

عينا زوبه مسطنان على وجهي ، دموعها جفت هذه النعنية ، السخرية تطل
 منها وكأنها تعرف كل شيء ... وصوت العجوز يلح في رثانة
 « انحركي يابت الراجل واقف ! »
 « حاضري يأمه ، حاضري ... دهندي ! »

— ٢٨ —

ان السيد أمدي موقة في قرارة نفسه ، ان حنفي السلطي لن يوافق —
 بشكل أوبآخر — عن زواجه من عائشة ... كان يشعر ان عائلته السلطي —
 رغم مايربطه برجدها من ود وصداقة — حصن من المستحيل عليه اقتحامه
 بحال من الاحول ... وحتى عندما استجابت عائشة لعمره ، فسر تلك
 الاستجابة باقداها عليه دون النظر الى اصدنه وفصله ، فسر ذلك بأن الحب
 أعمى ، وأن القلب له واحد ... وللحظ ، الخط وحده ، كان هو هذا
 الوحيد !

ورغم ما كانوا يظهره له من حب حقيقي وتقدير عميق ، إلا أن حبه
 وحوله كان يتغلبان عليه دلياً ، لها أن يقرر لتقديم لطلب عائشة ... حتى بقمه
 قوة قاهرة لا يستطيع حبالها غير التراجع والاكشاش والنصمت

وكان يعجب أشد العجب لذلك الارتياح الذي كان يشعر به ...
 الرجال عن سفينة عبد الموجود حمدان ، ولم يستعد ...
 ارتياحه هذا ، وقد بدا له أنه جرم عظيم ، على ...

سره دت بيله عندما رح بفكر في دت اباى الذى تات لرحا
احيرا ، وفلت الصقف الذى كان يعرفونهم وأفكارهم يوما بعد يوم
آخر . . . احس في تلك الليلة انه اقرب منهم ، أو على الأقل أصبح
يساوهم وأرعه هذا الاحساس ابر رجاج ، لكنه - خالعه -
استطاع أن يتغلب على شعوره هذا بفيل من جهه ، من أصبح من اوصح
أنه يتمكن أن تأتى لسفينة ، وأن يرم البلطية بأمانها وقوتها !

وقد جاءت السفينة ، وعدم بحير الفيل على حصى ومحمود . . . كان
دث في المفهى الذى عتاد أن يشرب فيه كوب الشاى كل صباح قبل ذهابه
إلى المستشفى . . . سمع لرجال يتحدثون في وقع في ليلة سابقة ، فرده
شعور بالفرح والعبطة للوصول لسفينة اللحظة ، لكنها كانت مجرد حصة
خاطفة ، احتفى بعدها من نفسه كل شعور أو احساس عدا احساسه
بالمسئولية ، وأن حصى ومحمود في السجن ، وأن عائشة ربما كانت في حاجة
اليه . . . وأحس لأول مرة في حياته ، أن عليه واجبا !!

نهض من مقعده كئيلود ، وعاد القهوة وقد سيطرت عليه الهممة ، ولم
يعكر - وسو برهة - في المستشفى ، وفيما يمكن أن يحدث لو تأخر عن
موعد - لم يعكر في رفض حنفي أوتويله ، ولم يفكر فيها يمكن أن يصير
به أمامها لو صغ مايمكن أن يصعه في مثل هذه الظروف كل ما فكر
فيه وأحسه ، وشعر به ، هي هفتة على الوصول إليهم ، فربما كان في حاجة
ليه .

وإلى منتصف الطريق إلى الرقاق ، تذكر فجأة أن عليه أن يتوجه إلى نفسه
حيث يوجد لرجال ، فالراقق لابد يدخل منهم . . . لكنه لم يجبه ودهشته .
لم يشرح لهذا الخاطر ، ولم يستطيع أن يحول قدميه عن خط سيرهما ، كان
متدفقا في طريقه بسرعة لم يعتدها في سيره . . . ربما كانت النسوة في الرقاق

في حاجة إلى شيء . . . ليقيم بوسجيه أولا حيث تشتد الحاجة اليه ، ثم
ليقيم بعد ذلك لرجال

وما ان أقرب من الرقاق حتى داهمه حساس ساغ بالضياح ، وجد نفسه
بأس في حد عريب « الماد لايتقدم للرواح من عائشة ؟ » . . . تعبر مجال
تفكيره حين ملأت خياليته والحة الرقاق التي كانت تثير عوطه وعرائره
إثارة لأفيل له بمقامتها ، وبدت به عذوبة في تلك اللحظة نائمة حاضرة .

وبدت به أكثر ناعمة وحذرة عندما طابعت عائشة بوجهها المحتقن وعينيه
المحتجيت وشفتيه ودموعها وجسدها المرتجف . . . بدت له كعقلة صائفة
لاحول لها ولا حول ، فانهصر في احبائه احساس فياض بالحنان . . . تبادل
معه كلمة أو كلمتين ، وسأها أن كان أحد في حاجة إلى شيء ، فشفت
من خلال دموعها شععه بعدت إلى قلبه مباشرة
« ربا مايجريش مثل ياسى السيد »

أراد أن يتركها ، فحسه شعوره حيال الواجب تحسا دمه إلى تودع عائشة
بكنمه حننهم حنفا وهو يستدير معادرا مكانه . على أن صوتها مايت
أن استوقفه مرة أخرى ، فوقف وبينه وبين بعية الرقاق حطونان أو
ثلاث . . . حيث تجمع بعض الرجال عند الاسطى عبد حول اخلاق ،
وأخذوا يرقبون معه في شيء من لهشه كل مايجرى في داخله ، وعلى الرغم
من هذه العيون المسلطة عليها ، إلا أن عائشة أهدت تقدم منه عذوبة
حتى كادت تتنصق به ، وأعدت يدها وأمسكت بذراعها ورفعت يدها
في توسل وهي تهمس ،

« مايتأخرش على ولى ياسى السيد » وسأفاد : « . . . »

في من كل عين !

بعد ذلك فقد الرجل سيطرته حتى على تمكيره ، فاص به لحنان فامتدت
 يده وربت على كتفه وهو يقول لها بحدثة الرجل الذي يحاطب امرأته :
 « ارجعي انتي البيت ، آتي حاشوف للزلم ! »
 حضضت رأسها في استسلام وهي ترد عليه بصوت خفيض :
 « حاصر ! »

كانت نشوته في تلك اللحظة قد وصلت الى قمة القمم ، فاستدار معادراً
 الرقائقي وهو يطر أمامه في حدة من يعلم طريقه جيداً ، وعدوا ألقى بالسلام
 على الرجال المجتمعين عند ناهية الزقاق ، واندبن كانت المصبات تتممحل
 في حلوقهم وعلى السنتهم في انتظار ابتعاده ، كان قد اتخذ قراراً . . . وكان
 قراره هذه المرة حاسماً لأرجعه فيه . . . سيطلب عائشة فور الانتهاء من
 الأزمة !

ولأول مرة في حياة السيد ألسدي عبد الرحمن ، الممرض بمستشفى
 الاسكندرية الأميرى ، تعزو نفسه راحة من نوع غريب لم يعهده ، كانت
 الطمأنينة قد هبطت على قلبه ، فأحس برغبة طاغية في اللجوء الى جامع
 ليتروا ويصل . . . بل ويكفى في سعادة . . . كان يرتجف بانفعال أحاذ ،
 ويعكر في عائشة وكأنها زوجته ثاماً . . . ولم يفكر إطلاقاً في التردد ، لم يعد
 يخاف خنفي أو المعلم محمد ، بل أحس أنه يحبه للشيء ، يتسم في
 سحرية عندما تذكر مايقوله الناس عن النسر الذي يتوزنونه بينهم أما عن
 جد . . . وقال هامساً لنفسه :

« دول سرهم أنهم ناس جدعان وحياة النبى ! »

لم تعد هناك سوى حقيقة واحدة لاتقبل أى اعتراض . . . هذه الحقيقة
 هي عائشة !

وما أن وصل إلى القسم ، وألقى بنفسه وسط عشرات الرجال الذى

تجمعوا حول أمر الدعائلة ، حتى انصم في غير تردد أو وجل أن يعلم محمد
 ووقف بجواره في ثبات . . . ولشد ماكانت دهشته عندما تبه - لأول مرة في
 حياته - أن الرجلان يصاملونه كوجود منهم حقاً . . . أمسحوا به مكان
 محاورهم ، وقصصوا عليه لقصة بعد فريه ، تماماً كما يفعلون مع رجال
 العائلة . . . وأحس السيد ألسدي بنفرت رجال الشاهي المتجمعين وقد
 بصت عليه من كل جانب في تساؤل ، وسمع المعلم محمد وهو يقول ،
 وكأنه يفسر لهم حقيقة غابت عنهم .

« سيد ألسدي الباشتمرجى . . . واحد ما وعلي ! »

ومضت التدقيق

وجاء شهود كثيرون . . . وتسربت الأخبار من الدخول أن خنفي وعمود
 كانا في القسم بالأمس حتى وقت متأخر ، وأنه قضيا ساعات بعد ذلك في
 بوظة حسين شلوفة . . . وبدأت الطمأنينة تعرف قلوب الجميع عندما جاء
 حسين شلوفة ، وأدفع نحو حجره التحقيق متحمساً ، وخرج منها
 متحمساً . . . وجاء زين البطال ، والشاطر الزمار ، والمعلم جمعة .
 ورجل وراء رجل ، ثم طلبوا من يضمن خنفي وعمود !

وتقدم على الفور المعلم محمد ومحمدة والمعلم صادق . . . وقال المعلم محمد
 وهو يتحرك نحو الدخول :

« بالله بينا ياسى لسيد ألسدي ! »

فاندفع السيد ألسدي في حماس وفرح . . . وعندما بعنى ليوقع على
 الأوراق ، قال في اخلاص وفي صوت ثابت :

« برقتى ! »

وانتهى كل شيء . . . وخرج محمود وخنفي ، وتمجرت في بعض لسيد

أفندى يدايـع سعادة لم يبق مثيلاً لها من قبل . . . وتحرك الـركب الهائل محترقاً
شارع باب الكرامـة ، ثم شارع البحـرة في طريقه إلى الميـاء و حـرح
السيد أفندى ساعته ، فوجدـه قد جدوزت لثانية عشرة . فاقـرب من
المعلم محمد وقل له بصوت ثابت قـوى :

« آمى حانـروح الزقاق نبـشـر الجـماعة بابا محمد ، وبعدهـا نتوكل على
المستشفى ، نطلب إـجارة ونرجع طـولى !! »

وهـز المعلم رأسه موافقاً ، بينـا ربت لـسيد أفندى على كتفـه حتى في حـدا
وهو يقول ياسـى :

« ألب هار أبـيـص يارجاله . . . ألب هار أبـيـص . »

وقال حنـفى دون أن تتحرك تقاطيع وجهه الصـدرة ، والتي بدت في ذلك
الصباح وكأنـه قدت من الصـحر :

« مع السلامة ياسيد أفندى ماتت أخـرش عـليا بالليل ! »

— ٢٩ —

كانت الشمس قد توسـطت طريقها مـدين لشرق والغـرب حبـياً طـهر لـسيد
أفندى على باب الرقيق مـهـولاً ، وجهه لأحـمر غطـته قطرات العرق رغم بروده
الجـو ، يطل من عينيـه بريق فرح طاغ ، شفتاه مصـمومتان وكأنـه اعـتـزم أمر
هائلاً

كانت عطيات أول من رآه ، فأحـلـزت تتقدم منه في حـطى متعـشـرة
متـمـجـلة ، أحـمـشها مـظـره القـريب المـلتـهب ، فـحـقق قـدـه حـمـام شـديـد ،
وما إن اقـربت منه حتى قال وهو يـطـلق الـكـلمات في سـرعة فتلاحق مقاطعـه
أنفسه للـاهـنة :

« مـروك يـاست عطيات ، خـرحـوا دلـوقت من الكـركـون ، ظـلم والله
العـطيم . . . ظـلم إلى عـصـوه معاهم ! »

جلـسـت في لزقاق زغرودة عطيات ، وأطلت على انـمـور وجـوه ترسـمت
عـبـها الذهـشة لمزوجة بالفرح ، وانـطـلقت رـعـودة أخرى ، وهـرولت السـوء

وعادرو ليوت مستطعمات مايجس الرجل من أحبار ، وسرعان مادوت
الرعاريد صلاحقة متشابكة ، وجرح الأسطى عبد المولى من محله وأطل عن
ما يجرى داخل الرقاق وهو يقول لى حوله : « همود وحنى خرجوا ! »
ووقف طملى ، وتوقف آخر كان يجرى ، وتجمع رجال وبساء واضطقت
الرعاريد من لأهوا ، واسيد أمدى ينف وسط حلقة النسوة متوشاً بطل من
عبيه فوج كان يرتفع له ، يحمل على الأهوا المرعدة أمامه ، والألسنة تتحرك
فى هرقة عالية كأنها لميب ناور محبوسة ، ودارت عيابه ثم توقفتا عند هم ...
شفتا الرقيقتان انفرجتا عن ابتسامة ، يعبوب أمد كبير غير أنه متاسق ،
وعين بدنا فى تلك اللحظة وكأنها ترعدان بالنظرات ، وصو الشمس المفل
من أعلا لرقاقى يستلقى عن تقاطيع الوجه ليصيتها بنور هادى ، والتقت
عيابه بعينى عائشة ، وابتسم فى جرل وكأنه طفل ، وابتسمت فى سعادة ،
فهمس ومن حوله كل النساء وكأنه نسي نفسه غاماً :
« اللينة يا عيشه ... ليلة بذن الله ! »

وارتفعت كف عائشة الى أعلا قمها ، وانفجرت شفتاها ، وتلاعب نسباها
فى رعدودة ارتفعت تغطى بجلجتها عن كل ما عداها ، وتوقفت البساء
ورحن يظفون ليها ، وطست هى ترعدو وترعدو ، وتطلق حنجرتها ربسا هيب
نعد الى كل قلب ... و ... وعندما توقفت وهبط يدها الى جوارها ،
بانث عيابهما وكنتا دامعتين باسميتين جيلتين كأجل ماتكون العينون
وراحت نلتهم وجهه بنظراتها ، ثم انتهت لعساها فولت الأدار ، وحنفت
وراء باب بيتها وهى تمسح دموعاً غزيرة كانت تهمر بلا حساب .

وما كادت تصل الى العشاء ، وتستدير الى اليمين ، حتى توقفت . كانت
روية قابعة بحور باب حجرتها وهى تبكى فى صمت ، متمشدة فى راحة
« الحمد لله ، الحمد لله ، ألف حمد وشكر يارب ... نحمدوه ! »

توقفت عائشة قليلاً ، ورمعت روية اليها عيين سيلتين بالدموع ، وما
أن التقت هيونها ، حتى ارتفعت عائشة ، ثم اندفعت - بلا وعى - تدقى
بنفسها الى جوار زوية ، وتحننها فى حنان . ورداد بكاء زوية ، وانهمرت
دموع عائشة بغزارة وهى همس فى صوت هادى :

« زوية ... »

« الحمد لله عن صلاته يا عيشه ! »

وتساءلت بينها وبين نفسها : كيف كرهت زوية وهى التى أحببت
أحباها ؟ ...

« زوية ... كغذية عياط يابت حالتى ! »

« ربنا يطول عمره ويحليه لكى يابت خالتي ! »

وابتسمت عائشة بكل وجهه ، ثم همست فى عتاب وهى تنصق بزوية :

« ولكى أنت كيان ياروية ... ياندامة يا ختى ! »

ولاح عن وجه زوية شبح ابتسامة ... ثم بطرت كل منها نحو
الأخرى ، وألقت بنفسها فى أحضان أختها ... وغابتا فى بكاء سعيد !

في معاودة مكانه أنه لخروج بغيره . وسأدعوا بحدس في . . .
 لعدم الموجد ، فلم تصلف اليه منهم أن لما في هو حذر دور .
 وحياتهم . لأنه ب محمد وحفي قد قصص عليها ، كشح ربح منه .
 في صوت تحت

« أتى وري عيال . . . »
 وقد أحس
 « هي ذى آخرها »
 وعمهم نيت .

« يدعم ذا عبد الموجد مشرك بجليز . . هو حد قد هم »
 وهب رابع يصيح في ثورة :

« لكن حنفي ما سايث وراء عيال يرجال ، هي ذى تبعي ؟ . . . كل
 واحد ما بكلمة وسبو الرجل في انكركون . . . ألقها بعملو حاجة ، أي
 حاروج انكركون وورقي على الله ! »

ولم تطل المساقشة ، أحس البعض أنه كان يكذب على نفسه ،
 البعض - رغم الإحساس باليأس - يحفظ يدعوه إلى الوقوف بجوار حفي
 والمدفع لينقون بلا تفكير وراء الداهيين إلى قسم الشرطه

وعلى غير ما ظن الجميع ، ما أن أدن الطهر وانصرفت النهار ، حتى فرح
 عن حفي وعمود . فعاد الجميع إلى التوقف بحرقته شارح الحديث ؟
 مظهرة صالحة ، وما أن تجمعوا في النقش ، حتى أمدهم تبعهم .
 يهدونها في أنفسهم مند زمن طويل ، وما أب مصت لدفانو . . .
 صبحهم وجدلهم وصباحهم
 ارتفع صوت رجل من وسط جمع صائحا

— ٣٠ —

تشهد الصحيح في معنى سلومة ، واحتبطت الأصوات ، و
 لعش ، وتشبكت الكلمات والأعاطف ، المعصية في عراك نافر مصعرب
 : المعلم محمد اللطفي - كعادته - يتصدر المجلس ، وقد اكتحل ذلك
 واعتلا بالرجال الذين تركوا قواهم حيث كانت من الليلة الماضية ، فبد
 لهم في ذلك الصباح كأنها هياكل عظيمة لأطراف متسوية تتأرجح
 على صرح حنة مزلزل التناقض ، تغطيها شباك رقيقة كالحروى ،
 لا تسير معها عود ، سها سدى من حواجب صعبة عند الموجد شباك -
 سبائك كأنها كسه على منبر

عند زواها في الصباح وقعدوا أمامها مبهوتين ، قد اعترض فصل .
 في صدرهم فاههم ، وخرجت كلماتهم حيث كالأين ، وتكروم .
 توفى الصبي يتقلب المطر إلى الجحش الخائم أمامهم فوق سطح ليل
 فوق وربع وجهه ، وراح البعض الآخر يبدى بكلمات لا معنى لها
 وضعتهم الشمس من وراء الأفق ، وفتحت الدنيا عينها ، فما فكر أحد

« كلنا يعرفوا كنه كويس يا معلمى ، محدش من عيلة البلطى يضرب فى الضلعة ... محدش منهم يعملها أبدا ! »

وصاح آخر بحاجس شديد :

« ما هو احب لو سبنا عبد الموجود على حل شعره ، حايترعن أكثر وأكثر ... لازم يشرفوا لنا حل ، وإلا آيه پاسى حنى ، مالك ساكت كده !؟ »

رفع إليه حنفى عينين جامدتين ، ليس فيها ما يوحى بها يفحص به صدره من ضيق وحزن ... ثم عاد ونكس رأسه من جديد ، وراحت عييه تتقلان بين الوجوه ، حتى سنترت فوق وجه محمود ، فهمس حنفى فى صوت حامت :

« مالك يا محمود ، بتعكر فى آيه !؟ »

ووقف محمود ولم يرد ... وارتفع صوت المعلم محمد وهو يردد على رجل كان يحدته

« ميش حد يعمل حاجة ... تو ميززل عبد الموجود الشط ، ويقرب ناحية التلموسة دى ، آنى حانعرف ناديه ازاي ! »

جز محمود على أسنانه ، وقال موجها الحديث لأبيه :

« حانعلم يه بابا !؟ »

« حانعرف شغل كويس ! »

وعاد محمود الى الحديث ، فصمت الجميع وقد تعلقت عيونهم بدرجة وولده

« اىل ثيان آنى وحنفى بابا ، والى يربيه آنى وحنفى برضه ! »

لأح الشر فجأة فى حبنى المعلم محمد ، وصرخ بصوت مجلجل :

« آنى قتت محدش يقرب له ، يعنى محدش يقرب له ، هاهم ياواد !؟ »

« احنا ياوويا رجالة ، ما احداش عيال ! »

وعلى غير انتظار ، رفع المعلم محمد يده وهوى يكمه على صدغ ولده ، ودوى صوت الصنعة فى آذان الرجال ، وسقطت علالة اهدره وانحسرت عن منس المعلم محمد المصطربة لثائرة ، واشتد السكون عمقا ، وتوترت الأعصاب ، وانحدثت كل لعيون نحو لرحلين وقد واجه كل منهما الآخر ... وعاد المعلم محمد الى الصراخ :

« انت بتبص لى ياواد ، أرحى عيبك الا نفلعها حياة مقدم المرسى ! »

رفر محمود وهو يرخى عييه ، بينما قال حنفى فى هدوء :

« بابا محمد ، فى نفسى نقول كلمة وأجرى عن الله ! »

كان صوت حنفى حادث مجتثا ، وكأنه حانظ هائل اصطدمت به ثورة المعلم محمد لتتفتت ، غير أنه عاد الى الصراخ من جديد وهو يجمع شمل عصة فى عاد :

« قنت اسكت ياو ! »

« احنا ولأذك صحیح بابا ، لكن انت مترضااش الشب ابلى فى وشى ده »

يقبى على فمه ! »

وصاح المعلم محمد كمن فقد أعصابه :

« عيلة البلطى مايبهاش تسون يابن الكلب ! »

« ما أنت عاوز تخفيت سوان بابا محمد ، كلامك على العين والراس ، انما احنا درعناك ورجالتك برضه ... آنى مقصدش نقول ابلى »

قاله محمود ، آنى نقصد حاجة تانية ! »

ووجد محمود ثغرة من لصمت ، فقال بسرعة هو يرمق المعلم محمد :

« برضه حنفى وباه حق ياوويا ! »

الله يعلمن ويقول يائى ! ... لم يملك العجوز نفسه من الانسجام ،
فسرت في الجو نسمة ارياح ، وتهد حموده وهو يقول :

« أبوه يا حننى ، كمل كلامك وقول كل اللى فى نفسك ! »

فقال حننى وهو يوجه الحديث الى عمه :

« بقى صلب بنا على المصطفى بابا . »

وتصاعدت الاصوات من كل جانب :

« ألف صلا على الحبيب . »

وعاد حننى الى الحديث :

« بابا محمد ربنا عرفوه بالمقل ، وعبد الموجود نصرب امارح بالليل
الكلام ده زين ! »

قال المعلم محمد فى لامبالاة :

« هيه ! »

« المركب وصلت امارح بعد العشا ... »

« تصدك ايه ... ماتكلم دوشرى ! »

« تصدى يقول ان اللى ضرب عبد الموجود ناس منا ، رجاله من اللى
قديدين معانا دلوقت ! »

وجم المعلم محمد ، وانتفضت الالسة باهمهيات والاستكثار ، وارتفع
صوت حننى مواصلا حديثه غير هائى بالدهشة التى ارتسمت على
الوجه

« آنى بدى بقول كلمة ... احنا رجالة الشط ده ، وكل من فينا لارم
يدرى عن آخوه ، وابل صربوا عبد الموجود امارح كادو رى ورى محمود
وزيك بابا محمد ، دهم فاير ... آنى منقصدش انى نغير الموضوع او
نقله ، لكن نقصد انى نسال الى عملوا العملة دى سؤال ، هو الضرب

حاول المعلم محمد ان يسيطر على مشاعره ، وان يكبح حجاج عصبه
لكنه فشل فغما ، احس كان شيك يجثم على صدره ليكتفم انعاسه . كان
موقفاً ان حننى لا يثرثر ، فلايد ان وراء كلياته شيئا يريد قوله ، وكان واثقاً من
ذلك الشيء الخائف على صدره ، ذلك الهم الذى ابتل به منذ ان علم به فى
الصباح .

ربنا يصهره نحو ولده ، وكان محمود صامت مكس الرأس ، صارح الطرقات
كانه ميت ... فتساءل فى مرارة : « كيف احبه ولده تلك العاهرة ، وكيف
زج بنفسه فى جريمة كالتى حدثت بالأمس ؟ ... بل لاسكى من هذ
وذلك ، كيف يذكر اسم البلطى مقرون باسم موسى و ... وهتوة قاتل ! »

منذ ان عدم بالامر وهو يبحث عن جواب ، عن حل يشفى عليه ، لكنه
كان يزداد تحبط كلما أمعن فى التفكير ... حمد للطروف ان صاحب ولده رجالا
وتقصوا الى حوار وسانسه ويحمسو لشهادة معه دون تردد أو خوف .
لكن ، من هم أصنفاء ولده ؟ ... مهى أعصابهم ؟ ... طبل ورمار
وصاحب بوظة ؟ ورجل اسمه جمعة ، لأعمل له !

ثم . وكأنه يهرب من نفسه ، وكأنه ضاق بكل شيء ، رفع رأسه فى
حدة ، وصاح بصوت عظيم طائبا جورة ... كانت هذه هى عادته كلما
صاقت به الحال ، كف عن تدخين الجورة منذ سنوات واكتفى بالسجائر .
لكن الخنين كان يراوده بين حين والآخر او كنى شغل ذهنه أمر ، ولقتها كان
يضح على طرفها بشفتيه ، ويملا صدره بدخانها وكأنه يذهب فيه مرمومه .

وقد جاءت لجورة ، وأطبق بشفتيه على طرفها وروح يمتص من الدخان
بشرهة كأنه طفل يرضع من ثدى أمه بعد حرمان ممت ... وعندما صاح
أحد الرجال فى مرج : « ومع التعيرة كباية شاي من عندى نى » بس وس

حاجيب نتيجة ؟ حاجيل عبد الموجود يرجع المركب بلدها ؟ ! »

صاح أحد الرجال وهو يواجه حتى في تحد :

« قصديك ايه يا حتى ؟ » هو ده اسمه كلام برضه ؟ ! »

« أيوه كلام ، وكلام مضبوط قوى ، انى يصح انما يفكر فيه هو راي صرب عبد الموجود في رزقه ياخلف ، مش في دماغه ... لو كان جرى لمرجل ده حاجة ، كان فيه ناس منا دخلوا اللوبن ، وكانت المركب حاتمفضل برضه ... بس حاتمفضل وعن قلبه واحد غريب ، لكن احنا لو فكرنا باهداوة ، كلمة منى وكلمة منك ، حوصلوا لحن ، كده والا لا ؟ »

« لا ! ! »

قالها محمود في ثورة نفضت بها نقاطين وجهه المتقنصة ، وانتمت إليه حتى دهنا ، وعاد محمود يقول من جديد :

« أيوه لا ... احنا لو سبنا المركب نطلع مش حائلنا لقمه نأكلوها ... معيش حل غير كده ، انى نقولها بعلو صوتى ، المركب دى مش ... »

ويقاطع حتى بصوت ثابت :

« اسمعى يا محمود خد ماخلص كلام ! »

« ما هو ده ما اسموش كلام يا حتى ! »

وصاح رجل متدحلا في الحديث :

« هي هزيت ، هي الخينة حاتبقى عيسى عيبك ؟ ! »

وزججر آخر :

« حتى جرى له ايه ، ده رى انى يقول لمرجله روجو اشتغلوا مع عبد الموجود ، صلاة لى يا جدها ! »

وانفض حمدة وهو يصبح في الرجال بصوت محقق :

« استروا شوية لما الراجل يخلص كلامه ، هو ده تدهم ؟ ... احب

حاجيتاقوا مع بعضيا ، طولوا بالكتم لحد مايقول سلامو عليكم ، اما عجيب ! »

وعاد حتى يتحدث في الحديث صائحا :

« افرصوا اننا غرقنا المركب ، حانكسوا ايه ، ناس منا حايحلوا اللومان ، ومركب ثانية حاتيجى ، أو يعمرو المركب تانى ... هولعب ، دى هلووس ياخلف ، نفوس ... آلافت ! »

وعاد اللمط من جديد ، واحتضت الأصوات في نقاش حاد مضطرب ، وانقسم الرجال إلى قسمين ورجوا يتصايحون ، ويبدون ويتحيطون .

والمعلم محمد قد دس طرف الجسورة بين شفتيه وراح يجذب منها أصابع متلاحقة ، وحتى روح يفل البصر بين الوجوه في حيرة وكان واضح انه يتعذب ... ويسى محمود شحاره وتحمسه وامعانه في لحظات ، وتراجع الى

نفسه وعرق في لتعكير ، راح يتساءل في صيغ : « لما تدعى حمدة ويحدث ويثور ويصيح ويحيط رأسه في الحائط ، ثم يبدأ دفعة واحدة وكأنه لم يكن التأثير الصالح المحدث ؟ ! » ... فركمى يركى وهو يذكر كيدهم ... وأخذت

أصوات الرجال تتبدع عن مجال وعيه تلويحيا ، ثم تلاشت ، بحث في ذهنه عن فكرة تعيد إليه الحياة ، فلم يجد سوى ركود أسن بلا حياة ... انهمج في صدره العيظ من جديد ، ثم أدبته سحابة المראה ليد كسة عندما اكتتمته ... شعر كأنه يترلق في مترلق بلا قرار ... إلى أين ؟ ! حتى

من أعياه أن يودع الحياة ، ثم بدت له حملة في العودة إلى البحر ، وسى من يترك الرجال في جدهم وصراخهم واحتدادهم ويقفز إلى المارت ، يصيح

الشبكة ويجذب الصيد ويقول لشعر في سلام ! ... لاحت النوبة ! من تفكيره ، فاضطرب قلبه لحظة ياخيس ، ثم هذا ... جوامعهم اصبح دنا وكان ألفاس الرجال من نار حامية ، رأى الخيرة في وجوههم وفي صراخهم ، وشعر انها تحرقهم ، فحزن حزنا شديدا ... حيرة اصبح فرداء غيظ لروحه

الآلهات هو ولا تجليري بشاعه الله . . . ويكره تطلع عروص بحر وتغرق السوق بالسماك ، فاجمين يعنى ايه الكلام ده ؟ . . . حاسموا ايه ساعتها ، ايه اللي حاسموا . . . لازم نكفروا فى طريقة ، ونعترف لينا على حق !
« عندك انت حل يا معلم حنى ؟ »

قال رجل ذلك وهو يضحك ساخرًا ، فقد تذكر فجأة ما قبله الرجال ذات يوم من أن حنى قد خاوى جيه ، كان يومها موقنا ان حنى سيفعل شيئًا ، كان واثقًا أنه سيصحو ذات صباح ليجد معصرة قد هطت من السماء لتحل المشكلة ، لكن المشكلة لم تحل ، جاءت السفينة ووقع ما كان الرجال يرتعدون لمجرد ذكره ، وانضم حنى الى جيش العاجرين الحيارى . . . فصححت من نفسه ، ضحك في سخرية وكأنه يكتفى ، ثم سأل حنى ذلك السؤال على الرغم منه ، وتعمل بطرأت الرجال وزعرة حنى في استسلام ، وعاد يقول معتدرا :

« بلا مؤاحدة . . بلا مؤاحدة ، غصب عنى وحياة النسي ! »
وكاد صبر حنى أن يفقد ، هز رأسه كمن يطرد منها أفكارا شيطانية ، وعاد الى الصمت من جديد ، كان يعلم أن الطريق طويل ، وقد أوحشته الشاطئ المهجور ، أوحشته وجه أبيه ، فتمنى لو ترك الرجال ومضى الى صحرة رأس التين ، وتمنى أن يلتقى بنفسه فى المياه ويصبح بكل ما يملك من صوت : « بابا . . بابايد يا بلطى ، تعمل ايه ابايا ، تعمل ايه ؟ »
على أنه - لدهشته الشديدة - أحس بالثبور يتسرب الى نفسه ، ورفض فى لحظة بدت له رهبة كل هذا ، وسخر غير عاين ، بكل ما آمن به ، وراح يتسدد : « ماذا فعل السيد البلطى ؟ . . . وماذا ترك وراءه ؟ . . . أهى تلك الأساطير التى تحكى عن كعاب رجل شق طريقه فى اخباء بدارع جبار ؟ . . . وماذا بعد هذا الطريق ؟ ! . . . لماذا لم يسلمهم مفتاح النجاح قبل ذهابه ؟ . . . لماذا لم يورثه سره وسر قوته ؟ . . . وماذا كان يفعل لو كان

هيئات أن تلقى عنها ! . . . ماذا يريد الرجال ؟ . . . وماذا يريد هو ؟ .
وبدأ فعل عبد الموجود معننه تلك ؟ . . . تمنى أن يلتقى برأسه فوق صدر أبيه ويكفى فى حرقه ! . . . أبوه يتحدث لكن الصوت لم يكن صوته ، فتساقط فى لجة ، من أين جاء المعلم محمد لبلطى بصوت كهذا . . . كان صوتا مرهقا متعب ، كليته تلهث فوق شفتيه وكأن خروجها الى الاسراع رحلة شاقة ! . . . حتى أبوه . . . من بقى بعد ذلك ؟ . . .

« ننى شافيت يا جده ان حنى معاد حق ، طولوا بالكم عليه لما يجلس كلامه ، وكل لى نفسه فى كلمة يقولها ! »

ماهذا ؟ . . . لماذا لا يصرخ ويأسر ويسب ويدس كعادته ؟ . . . لماذا يصمت أمام رجل يتحدث ويطرق كمن فقد القدرة على مواجهة الناس ؟

« كلامك مضبوط يا معلمى . . . »

هز العجوز رأسه وأطبق يشمتيه على الجورة وراح يجذب منها الانفاس فى شراهة ، وارتفعت يمساه بكرب الشاى ورشف منه على مهل . . . وعاد الرجال الى جدهم عبر عائدتين يتحدث المعلم محمد . . . كيف يقبل من كان صاحب الكلمة أن يردد وسط الصخب :

« هنى مهلكم يا اولاد . . . ماهو رينا عرفوه بالقل ! »

« عتل مين يا معلمى . . . دى لكمة هيت ! »

كيف ينظر ليه فى حيرة ، ثم يعطرق عصب يدا حنى الحديث وكأنه بلا حول ولا طول ؟ . . . أين ثورته ؟ . . . أين صفاته وزئيره ؟ . . . كان جبلا واثما . . . لكنه الآن مسكين مهذل التقاطيع والكنايات . . . وحنى يعود الى الحديث من جديد :

« دلوقت المركب حاشتهخل يعنى حاشتهخل ، وعبد الموجود مادفعلش فيها

حي ١٩... آكان يقتل عبد الموحود ، أم يضربه ، أم يقسم البحر بينه وبين
الرجل ١٩... شىء قاهر يتمدد فى أعياق حنفى ، احساس رهيب
يكس لتخبط قلبه ، وذكرى لسيد لارلت عزيزة ، ومجد هزيل لايرال أفراد
العائلة يرفلون فيه كملحددين ، زقاق مهدم ، وبيوت متداعية ، وقوارب
تندو كالسمكات الوليدة أمام حوت صمغ يكاد يتلغ كل شىء !
وأفاق حنفى من غيبوته عن صوت رجل يقول :
« مالك يا حنفى ، سكنت ليه ١٩... ماتتكم بين الناس ! »

لكنه لم يكن يريد الحديث ، تطعم الى لوحه المحببة به وكده يراها لأول
مرة ، وكاد يعود فى اطرافه من جديد عندما قال عنه :
« ما تنكلم يا حنفى ، مالك يا واد ١٩ »

رفع رأسه الى أعلا ، وكأنه يبحث فى السقف عن حل ... فوج مجمع
أشنيات عقبه ، وب كاد يتعش شعبيه بالحديث حتى توقفت الكنيات فى
حلقه ، فقد علا فى ذلك الوقت صوت قوى واضح ، نهد الى كل أدن ،
وارتعب له أكثر من قلب :
« السلام عليكم يا رجاله ! »

استدارت كل الرموس فى دشة نحو الباب ، وأحاطت النظرات بجسد
عبد الموجود حمد ن العارح ، ووجهه الذى علته انشامة وسعة ، ورائ
السكرور عن الجميع ... ثم قال عبد الموجود وهو يوجه حديثه لمعلم
محمد

« آنى حذى نبرس عل راسك يا معلمى ! »

وصمت قليلا ، ثم استطرد وهو يحطو داخل نفهى :

« وسوس راس حنفى ومحمود كمدن ! »

— ٣١ —

تقدم الرئيس عبد الموحود مختارفا صفوف الرجال فى جسارة ، وقد عطى
كتفيه بشال من الحرير ، واستدارت حول رأسه لاسة ثعينة لم تحب رباط
انشاش الأبيض لدى يضمده حبهته ... وتحت عيه ليسى ظهرت آثار
لضرب زرقاء صاوحة ، بينى جاهدت ابتسامته فى احده ديك القلق الذى
كدن يطل من عيه .

أخذ الرجل يوسعوى له لطريق حتى وقف أمام المعلم محمد البلطى ،
وسرعان ما فرد دراعيه وانقص عليه بالقبلات ، ولم يتحرك المعلم محمد ،
كانت المفجأة قد أجمته ، فاستسم لكل ما يحدث دون مقاومة ... ورفع
عبد الموجود شفتيه من فوق رأسه ، ثم استدار نحو حنفى ومحمود ، وصاح
بصوت مسو :

« آسى غلطان ، الحنفى على فوق دخت ، ورجل بشط كنهم شاهدين ،

نكم عدى حق عرب ولو ن ملتش دب ، ولان آة معسى ماشى

وادی راسك يا حنفى !! »

أتى حنفى بحركة سريعة بعبء العزاز ، غير أن عبد الموجود كان قد وضع في حسابه مثل هذا الأمر ، فانقص عليه في اللحظة المناسبة ، وأحاطه بدراعيه ، وهوى فوق رأسه بالقبلات وهو يذمهم :

« أتى زى أخوك الكبير برضه » أتى في سن أبوك برضه !
وظل محمود ساكنا ، يظفر إلى عبد الموجود في عل ويحيط أدنتهما تلك الحيرة التي لم يستطع الفكاهة منها ، والتي راحت تدفعه نحو استسلام كانت نفسه تنمو إليه . وما أن رأى عبد الموجود حتى تعلق بذلك الخيط من المقاومة ، وقرر أن يقويه بعدد . لذلك ، أكاد عبد الموجود أن يستدير نحوه حتى صرخ :

« إياك تلمسنى ، أتى مصالحشى غير رجاله عندهم شرف ! »

استسم عبد الموجود ابتسامة واسعة ، وهو يقول بصوت عدل ليسمعه كل الرجال :

« برضه حقت على وابت زى أبى ! »

استص محمود وهو يدفع عبد الموجود من أمامه متشبثا بالبقية الباقية من عضه

« انت حاتبعه هن والا لا ! »

والرجال صامتون يتابعون ما يحدث أمامهم وكأنه لا يمت إلى الواقع بصلة ، كان حضور عبد الموجود المفاجىء أمرا لم يتوقعه أشدهم تفدولا .
وبدا لهم ما يحدث أمامهم غريبا أشد العزلة على أن الأعرب منه هو ذلك الشعور العميق بالارتياح لحفى عبد الموجود ، كانوا يتناقشون ويحتدون ويتحمسون وعقولهم غائرة وراء العد الاتى عليهم كهمول لا يرحم ولقمة العيش التي كانوا يشمرون وكان يدا قاسية تنتزعها من أفواههم وأفواه عيالهم . . . استسلموا لشعورهم العامض بالارتياح ، وصيقهم - الذى يد

أشد عموصا - لموقف محمود كان تطرفه أكبر مما تطيقه قلوبهم الخافقة إلى حل يبط عليهم من الساء ، وما قد فتحت لهم طاقة أمل ، وبدأ لهم أن الحل أصبح يبدأ أيديهم . . . والا ، فلماذا جاء عبد الموجود حمدان ، وهو المنتصر ! ؟

كان أكثرهم احساسا بتلك الانفعالات هو المعلم محمد البلطى . . .
أطرق إلى الأرض ، وراح يبعث بأصابعه في شعيرات شاربته . . . بحث عن عتاده فوجده قد ذاب قاعا ، استنجد بيأصبعه وعراقته ، فاحس بها باهتين لا قيمة لها أمام القوة الجديدة . . . وقع في برائن الاحساس بالعجز ، وبأن له شبح المهرجة قريبا ، فرفع رأسه إلى ولده الثائر ، وقال بصوت خفيض :

« اقعد يا محمود ، اقعد يا ننى وقول لا إله الا الله ! »

« ما هو لا إله الا الله ياأ ، اننا ده نهنى أتى وحنفى وحب يرمينى في اللومان . . . يرضى مين ده ! ؟ »
وصاح عبد الموجود :

« عل الحرام من بيتى ماحصل ، وعهد الله اللى ناربعين يمين ماحصل ، مظلوم ياخنى ، مظلوم والله العظيم ! »

وصرخ محمود في صوت راعد :

« كذاب . . . كذاب ! »

استدار عبد الموجود نحو الرجال موليا محمود ظهره ، وراح يحاط بهم ١
بوسل أنكره في البداية ، ثم استعذبه . . . وقوا هو ما ارتسم ١٤ ١٠٠٠ هـ
من علامات التصديق ، فاندفع يهاجم ضمعهم في غم ١٤ ١٠٠٠ هـ

« أتى ماقلتش كلمة واحدة في حق محمود ولا . . . لا اله الا هو . . .
انى قلت متعرفش مين اللى صربنى سواء ١٤ ١٠٠٠ هـ ١٤ ١٠٠٠ هـ

في الشارع ، وده يصح يارجاله ، هو بي مشي معكم برضه ؟ ... المهم ،
لراجل راج مرعق ومصبر وم الدنيا على واحد دوس لحششي ، وجاني واحد
طابط قال لي مين عمل فيك كده يا عبد الموحود ؟ قلت منعرفش ، قال لي
فيه ناز بايت بيك وبين حد ، قلت كل الرجاله حياييني نبي ليه مين
عبرهم 1؟

وتوقف عبد الموحود وهو يدهش ، وأحد يدير بصره في لراجل ليري أثر
حديشه فيهم ، وسرعان ما سرى الخياس في نفسه من جديد ، كان يلوح
بوضوح هتياهم لشديد ، وسمع احدهم يصيح بصوت يشغته فرقص قلبه
طربا ، واستطرد في صوت متوسل :

« جه انامور نفسه وقال لي يا عبد الموحود القنصل الاجليري تكلم في
التليمون ويقول ان شريكك قاعد جيبه ... »

وقاطعه محمود في حمسة :

« وايه الي عرف شريكك 1؟ »

« آني يا محمود آني ... ده مال برضه يا محمود ، دي آفات ياخويا ... »

والراجل قعد يقول لي انه لازم يعرف لل عمل كده ولا حاييل مصر وتبقى
حكايه لا لها اول ولا آخر ، قلت برضه منعرفش ... سألوني فلوسك ضاع
منها حاجة ؟ ، قلت الكذب حرام ، آني راجل شريف واسمي بصير
مضاعش مني ولا مليم ، سألوني حد هنذك مرة كده والا كده ؟ ... قلت
برضه ماحصلش ... قالوا لي ولخافه الي حصلت بيك وبين محمود
البطني ، قلت حد الله ماحصل بيني وبينه حاجة ، عيلة البطني خيرها على
الكثير قبل الصعير في لسط من أونه لأخره ، واني يقول عليهم كلمة ، أو -
من يقطع بسبه آني ... فيه عيب في الكلام ده يارجاله 1؟

صاح وجي من آخر المكان :

« فانت العيب يا معلمى ، الحمد لله جت سيمه ! »

وصرخ محمود وهو يشعر بالخجل يلتفت حول عقبه :

« لا والله مظلوط ، فانت العيب يا عبد الموحود يا همدان ! »

وقد رجل وهو يحتلس لسطر لي حفي :

« وكان فين الكلام ده ليلة امس ؟ ... كان فين ! »

وستدار عبد الموحود نحو المعلم محمد ، وفرد ذراعيه في حركة مسرحية وهو
يقول :

« حاجبك كده يا معلمى ، حاجبك لكلام ده يا يا محمد ... آني بوبست

رسك ، وحلفت بالخرام من بيتي ، ومستعد بحلف على حتمه ياناس

آني فلوسى فلوسكم وماني مالكم ، والمركب كيان مركبكم ، والرجاله الي

حاييتموها معكم ، والي حاييتموها شباكها انم ... هو آني كهرت لى

جت رزق للعلايه الل مظلوعين عن الرصيف ... يعنى آني غلطان 1؟ »

صمت عبد الموحود ، ثم استدار فجأة نحو أحد الرجال ، وأشار ليه

صراحا :

« انت يا حسن مرائك ولدت اول امبارح ... بدمتلك جت لها

العرخه 1؟ ... انت يوميتك كام 1؟ »

فهر الرجل قهقهه ، وشحب وجهه شحوبا شديدا ، فنهال عليه عبد الموحود

بخطم ما بقى من مقومته :

« هايته عشر قروش يا حسين ، ويوم فيه ويوم معيش ، مش كده ياس

لساس ولا آني غلطان ؟ ... وقدم السرجاله دول كدهم ، يوميتك من

البارده ، من دلوقت ربع جنيه ، حمسة وعشرين قرش ، ومعيش يوم بطل ،

يوم ورا يوم ... فيه عبط في الكلام ده يارجاله 1؟ »

كان الصمت الذي رآه عن المكان بعد ذلك أنفاس مما تطيقه لصدور ،
وكان عبد الموجود لا يزال واقف في مكانه عندما مهن رجل وقدم له مقعده ،
فجلس وسط الرجل مكنس رأس متروح الأدين للهمسات التي كانت تملو
في دوى كدوى نحل أحد ينشط لحظة بعد أخرى . . . كان سعيدا كل
السعادة ، قلته يحق بالخميل للمستتر هوب فؤاده لا تزل في كد مزلق فيه
ولخر المعركة ولا ريب .

جاء مسر هوب في الصباح بعد أن صدر المستشفى الى بيته ، وكان في
صحبه أحد لكثيرين الذين عرف عبد الموجود الطريق الى مهراتهم
الصباح . . . وسأله هوب عما حدث فقصه عليه ، وكانت دهشته عظيمة
عندما قال شريكه في هدوء وهو يشعل غليون ويصطحق في مقعده

« لقد أخطأت يا عبد الموجود ، فليس هذا هو الطريق لاكتساب
الرجال . . . يجب أن تنازل فوراً عن حقك ، يجب أن يكف البوليس عن
البحث عن الذين عتدوا عليك ، والا حزننا كل شيء ! »

صباح عبد الموجود في الجبلية ركيكة

« كانوا يريدون قتل يا مسر هوب ، كانوا يريدون قتل ! »

ابنهم هوب وهو يرفع الى شمتيه كأس الويسكي الذي قدمه عبد
الموجود ، وبدأ يتحدث في هدوء ، ويرسم لعريق الذي كان على عبد الموجود
أن يسير فيه دون اعتراض . . . وظل يتحدث ساعتين دون انقطاع ، ومهم
عبد الموجود نصف حديثه ، وترجم له صاحبه النصف الآخر . . . ورغم أنه
لم يمارس التمثيل من قبل ، إلا أن أحلامه كانت من الحلة حتى أنه لم يشعر
بأية صعوبة وهو يؤدي دوره أمام لرجال . . . كان خائفا في البداية من

لعش ، كان حائفا أن تكشف مويده للعيون . وألا يستطيع كبح جماح
غضبه . . . لكن حديث هوب كان محمورا في ذهنه فكيف ينسأه ؟ !

« انى يا عزيزى عبد الموجود أستطيع أن ألقى بهم جميعا في السجن ،
أستطيع ذلك بمكالمة تليفونية واحدة . وأستطيع أن أفعل بهم مالا يتصورونه
من أفاعيل . . . الا أننا لن نجد بعد ذلك رجلا واحدا يصعد الى السفينة ،
لن نجد رجلا يجهزون الشباك ، وهي عملة بالاسك الضخمة ، ولن نجد
رجالا يلقون بهذه الشباك ، كما أننا لن نجد رجلا يعملون أسبكتا . . .
ويختصروا يا صديق العزيز ، لن نعمل لسفينة ، وسنعالى الكثير اذا نحن
استعنا بصيادين من الخارج ، ولن نكتب مليا فاجورهم مرتفعة . . . أما
هذا ، فنستطيع أن نبقى الى الفرد منهم بحسنة وعشرين قرشا في ليوم ! »

وصاح عبد الموجود كالدهول :

« حسنة وعشرون قرشا ، انها مبلغ سحرى صحم ! »

وعاد هوب الى الحديث نفس الهدوء :

« أعلم ذلك جيدا ، أعلم ان عشرة عشرة قروش أو اثنى عشر قرشا فيها
الكمأة ، ولكن . . . علينا أن نرى ظروفنا ، انك - بسوء تصرفك وجهلك
- أثرت الرجال خبدا ، فليس أمامنا إذن إلا أن نفرهم بالذل ، وأنت نفسك
قلت في أن رجالك انضم أعينهم الى باقى لصيادين ورفضوا أن يتسلموا
أجورهم . . . نحن في مأزق ، وعلينا أن نتصرف بحكمة حتى نموض ما
جره علينا طيشك ، وبعد مرور الوقت ، سنعرف كيف يؤدبهم ، ونتحكم في
أجورهم ، نزيدها أو نخفضها دون أن يستطيع أحدهم أن يعترض ! »

وكان هوب عن حق ! . . . وكان على حق عندما قال أيضا :

« علينا أن نفعل مثلي يفعل لسانة ، ان زعماءكم يتهاوون الواحد بعد

الأخر ، وستسمع ذات يوم أنهم قد اتفقوا على حق ، وأمرمو معاهدة لصالح ولصالحكم . . . عينا أن يبقى للرجال بالطعم ، حتى إذا التهموه ، وهم لا يد فاعلون ، نجذب المسارة ولن نستطيعوا الخلاص منها ، ويصبح لشايطي ، منكبا ، ملكي ومنكث . . . »

وصمت هوب وراح يرقب عبد الموجود خلال سحابات دخان غيبويه ، ثم عاد يقول كمن تذكر شيئا .

« آه . . . أم بالنسبة لقواريتك ، فيمكنك أن تلقى بها إلى البحر ، أو تحرقها ، ومن الأفضل لك أن نستعمل أحشائها ونفود في لسعية ، فأنها جميعا لن تساوى شيئا عندما تنحر سميت « ماريش » للصيد ! »

كان شريكه على حق ، ان الأصوات تأتيه وصحة لاعموص فيها ولا تحب ولا تردد .

« كلام مظلوط وحياة السي ! »

« رجع جيبه يا جندع ، قول يابسي !! »

« انت رجع يا حسين ؟! »

« آمال يعني أرفض . لعمري يا جندعان ؟! »

وانتشي عبد الموجود ، وامتدت يده إلى جيبه ليخرج صندوق سحائره ، فخطر له أن يلعب لعبة ، وأن يتفنن دوره ، فقال على جداره وقال بصوت عدل كى يصل إلى أسباع الجميع :

« معاك سيجارة يا معلم ؟! »

ولم يكن جداره معلما ، بل كان أجيرا فقيرا من هؤلاء الذين سأل لعابهم لمرضه السخي ، فيان على وجه الرجل ارتباك شديد معموس في سعادة لم تحف على عبد الموجود ، وسرعان ما امتدت اليه عشرات الأيدي بعشرات

السجائر ، ولم يستطع أن يكتم فرحته ، فتهلل وجهه بابتسامة وسعة ، وحقق قلبه وهو يميل على يد قدمت له عود ثقاب في حماس واحترام ، وقال في صوت خافت :

« أهلى بطلت الحوزة من يوم لدكتور مقال لي صدرك تصبان يا عبد الموجود ! »

وعلت أصوات متحمسة

« سلامتك يا معلم . . . ألف سلامة ! »

« شوف يا عبد الموجود ، بقى ربنا عرفوه بالمعنى ، كلام طيب ؟ »

« يا حندسى »

« اسمى للأخ ، آتى مش عيل ، ابنى شىء نفس وشىء ، والرجاله
دول كلهم لازم يفهمو بت عاود ايه . . . ابنى حانقول بك كل حاجة ! »

صاح رجل فى صبحر

« حترى ايه يا حندسى ، الطيب أحسن ! »

فراحده حنى بالقوس

« معش يا حبيب ، سى مقتشش نعموا رضى ، اصبر على حندسى

اسمعوا يا رجاله ، عبد الموجود قال لمقاطط امبرج ، سى صرسى حنى
وعمود البطل ، وأكثر من كده ، لطباط قاتلى سى ومحمد ابن عبد الموجود
قال انه شاف وعرف . . . واتنى عارف انه قال كده تمام ! »

صرخ عبد الموجود فى حدة كمن فقد السيطرة على نفسه :

« آتى حنفت باخرام من بيتى يا حندسى ، ده مش كلام ده ! »

وصاح فيه حندسى وهو يصوب نحوه تعذرات معيطة :

« اسمع يا عبد الموجود لما بحندس كلامى ، ابنى ماصالحكش بحق عرب
ولا حق نجليز . . . آتى بس بدى يقول ابنى فاهم ، ولولا ستر ربنا كده . . .

فهب آتى وابن عمى ، الحكايه مكشوفه رى عين الشمس ، است عاود
رجاله ، ورجاله ، ما شتعدوش لبارده بكرة حايشتعمو . لحين

كافرو ، ولقمة العيش تعصب بن الاصول بتدل لابن احرام ! »

هب عبد الموجود صائح

« قصدك ايه يا حندسى ! »

— ٣٢ —

قال حنى ساعرا وهو يرمق عبد الموجود

« بقى يعنى است جاي تاحد الرجاله يشتعلوا على المركب ! »

فوجى « عبد الموجود بأوراقه تنكشف فجأة امام الجميع فتندم لمرة ، ثم
واجه حنى قائلا فى دهاء :

« يعنى نجيب اعراب يا حندسى ، مايوتش العيش والملح ! »

وقال حنى باصرار شريب ، وصوته يجلل فى المكان :

« تفكر لعبتك دى غنيل هل حد يا عبد الموجود ؟ . . . مين علمك شعل

المكر ده ؟ . . . لازم الجلدع الانجليزى اياه . . . والا آتى علطان ! »

ولم يجد عبد الموجود سوى الانتباه للمعلم محمد الذى كان مطرقا :

« يعنى ده اسمه كلام بابا محمد ؟ . . . ده اسمه كلام ؟ »

فهب حنى مقاطعا اياه فى حدة

« مقصديش ، قصدى نقول بعمو حسى لرجالہ .. الى عاوز يشتغل مع عبد الموجود مهندس حاشيه ، ده اكل عيش ! »

صرخ محمود وهو يجذب حنفى من كتفه ، وكأنه يلعب آخر أنفاسه :
« بلا كلام فارح يا حنى ، وادى بيون برأس السيد النطش ، ن جدد من الرجالہ .. »

وقد اعلم المعلم محمد فى حدة وهو ينفض من مكانه :
« بس ياود ، انتو حاتتلقوا مع بعضيكم ، أقعد ياود يا محمود لما اخبرك بجدص كلامه .. أقعد بأقول لك ! »

« حسى الرجال كان عقولهم تشزق ، وكان أكثرهم احساسا بذلك هو المعلم محمد البطل ، كان حائزا لثعبان مرفقا ، أحس فجأة وكان سنوات عمره قد تقلت حتى نابت بها كتفاه ، وكان محتفيا بالعيط والعجز .. عشا حاول أن يجد مخرجا ، أن يجد سبيلا الى العلمانية .. عر عليه أن يعيش آخر أيامه وهو يرى كل ما يراه السيد البطل يسهل ويتدعى ويصبح أثرا بعد عين ، يصبح أنفاسا يحوار بياض شامع جاء من بعيد من أقصى الأرض .. كانت حيرته وأصحة فى صوته ، وعذابه يلود بمراته .. على أنه وحده بعض النعراء فى حديث حنفى ، كان هذا يندو لوب ، ثائرا ، كان يتحدث فى ثقة من عشر على الخلل ، كمن لم يعد يحفيه شئ ، أو يعصبه أمر .. وسواء أكان اخل على ما يشتهى ، المعلم محمد أو لا يشتهى ، فقد كان حلالا .. على أية حال .. أخرجه عما كان واقفا فيه من حيرة .. استعذب فى لحظة أن يلقى فى حصى بكن ، الخمل وبسكن ما يكون ، بعد يقرب بولده فى برات عربنة شدت اليه كل العيون ، وانجتمت ها القلوب ، حتى قلب عبد الموجود نفسه :

« أقعد يا محمود ، أقعد يسى .. سبب أخوك يتصرف ! »
ولم يكن يقصد أن يقول : « يتصرف ! » ، بل الكلمة خرجت من

أحياقه وفرضت عليه وجوده .. فتركها معلقة أمامه فى الهواء وعاد إلى مقعده

وعندما استدار حنفى نحو عمه ، وقعت عيانه على وجهه المجدد ، أيقن كل شئ ، فاندفعت الدموع الى عينيه فى تأثير لم يستطع صفاء ، وحاول السيطرة على عطفه ، فأخرج سيجارة بيد مرتعشة ، وأشعلها بسرعة . لكنه نسه الى انه فى حضرة عمه ، فارتك ونجس وأنفى بالسيجارة الى الأرض .. وصاح المعلم محمد :

« اوعى نظفيها .. خذ سيجارتك وكمليها يا حنفى ! »

تردد حنفى .. وعادت عيانه لتلتقيان بعيني عمه ، فأحس بشئ غريب يعمو قلبه ، هم تقين كان عليه أن يحمده بمد تلك اللحظة ، وعندما سخن وانقط السيجارة ، أوما له عمه أن يبدأ حديثه من جديد .. وكان فى هذه الأليمة أمرا له بأن يتقدم لصوف !

« أكل العيش مش عاوز كبر نفس ، فيه رجاله على الشط بيدورو على رغيث لولادهم ، يوم فيه ويوم معيش .. ليه تغطلهم وورقهم قدامهم ؟ .. يبقى صبر عقل وكلام غاضى .. اتوكل على الله يا عبد الموجود ، الرجل قد امك مهندس حاشيك ! »

صاح رجل من وسط الرجال ، وكان صوته محتفيا :

« واحنا يا حنفى ، وانت ، وابوك محمد ، ومودة ، ولريس صابر ، والمعلم جابر .. وكل من له قارب يعمل فى قاربه إيه .. يعرفه ؟ .. بحرقه ؟ .. »

« وحده الله يا معلم حنى وحده الله ، خالى مودة حابتوكل على الله بعد يومين .. حابزوح مصر ! »

بحاربون لها بس ، لا . . . وفي مصر كيان ، وفي السكة الحديد وكلها
بحليز . . . لكن لا يام أقوى منهم ، والحيايات أكثر من الرايات ، كده والا
١٩! ٥

وقال المعلم محمد بلا وعي :

« كلام مضبوط تمام ، كلام زين يدين أخويا ، ايش قولكم ؟ »

وترفع أكثر من صوت :

« كلام زين . . . مفيش كده ! »

وقال رجل في حماس :

« مقرو ، الفاشية يا جماعة ! »

فقال حمى في حيلة

« لا ، نكنو ورقة ! »

« ورقة ؟ ! »

كانت الكلمة وكأنها غريب يقتحم عليهم حياتهم ، فاستكروها ، وقاد
المعلم محمد :

« والفاعة صاها ياود . . . احنا حانكروا على آخر الزمن ؟ »

« ده مش كثر يدا . . . الروس غدار وعمدش ضامن بكره . . . الى غاوز
يقف معنا يكتب الورقة ، وأكثر من كده كيان ، لروحوا بيها لمحامى يعمل
لنا حسب الاصران ! »
صاح أحدهم في استيائة :

« هى حصلت ، محامى بين الرجاله يا جدهان ، هو احنا غرب
يا حنفى ! »

وقال محمود كلمسجور وعيابه معتقدن بوجه ابن عمه :

« مستنى يامعلم شويه . . . قول يا حنفى قوب ! »

كان محمود مذهولا . . . يشعر بحديث حنفى وهو يتساقط من بين شمله
كأن الله هو الذى يوحى له به . . . غمرته الراحة فجأة ، راحة عميقة
عميقة . . . فأخذ يستمع لآل عمه وكأنه يفتنى مولا لم يسمع أجمل منه .

« أبوه حصلت . . . محامى ورقة نكتب ، ده أكل عيش مش لعب ،
والكلام لى نقوله ده كلام صعب ، وحننا اتعودناش فى الشط حل كده ،
ب كل زمن وبه كلامه . . . أيام ابويا السيد مكاش يحصل حاجه من دى
بنا دلوقت حصل . . . حصل ان عبد الموحود ، وأهو كان واحد منا وعليها
شازك رجل غريب من آخر الدنيا ، وصبي يقطع عيشا ويبيع ولادنا ! »

وقال الرجل متمسك برأيه :

« برصه عيب نكتبوا ورقة يا جدهان . . . عيب ! »

وعاد حمى يقول في صرار :

« ما عيب الا لعب . . . ما نفرض يالحنى تى حاسرقت أو يسرقت حالى
حموده ، تاخذ حقت منه ازاى ؟ . . . هيه ، تاخده ازاى ! »

وانفتحت حنفى نحو خاله ، كان حموده شاحب الوجه مطرق وكأنه سيقارق
الحياة بعد يومين ، قد تشابكت أصابعه في عصبية ، وما ان لتقت عيناه حنفى
بعينه حتى خفق قلبه بالحجب . . . على أن حنفى سرعان ما حول عينيه الى
وجه عمه . . . كان المعجوز صامتا هادى الوجه . . . وكان محمود ذ هلا ،
والرجال قد غرقوا في الحديث . . . وشيئا فشيئا سرى الارتياح الى نفوسهم ،
وعرفت النساء طريقها الى وجوههم . . . لتستقل في صورة جديدة ،
وأخذوا يسفرون الى النفسه أسرانية بلا سبق كأنهم يعلمون أنهم
سيستصرون . . . ومضت لحظات ، وأصبحت الملاحظات دقائق ، والدقائق
ساعة . . . وأخذ النهار يمضى بهم دون أن يلاحظوا ، وقرص الشمس يترلق

في حمة مسترقا خطاه نحو العرب ، وكأنه يجذب من الشرق غلالة سوداء
 يغشى بها الذهب الى حـ . وصحك رجل ، ورد عليه جاره بضحكة ،
 وسرت العدوى الى الرجال فراحوا يصيحون في موح ، وعرقون في ضحكهم
 غابت ، وفرض الشمس الدامي يلامس سمع امياه من بعيد ، ويهوى السماء
 والماء بدون أحمر قان . . . وتسرب الانبساط الى السموس ، واختفى الثور
 ووال . . . حتى محمود والمعلم محمد ابتسا ، وضحكوا وتحدثا . . . وأخذ
 محمود يريث على صدره في سعادة وكأنه يديه بالسماء ، ويتلقى التهامي
 مشبها ، ويتناقش مع الرجال ويعرض رأيه .

وجه واحد وسط كل هذه الوجوه ظل جامدا . . . تبدو في عييه نظرة تنم
 عن غرم غريب ، كان وجهه حتى ينطق به يعتمل في ذهنه من أذكاز ،
 احساس ثقیل بالمشولية يحتم فوق صدره ويعزى دماؤه بحرارة دافئة .
 على أن الذكرى وجدت نفسها مسفعا عبر أكرام الأفكار والمشاعر الى كتاب
 تسيطر عليه . . . فاستلوا برأسه ناحية القصر ، وراه جاشيا فوق حافة
 البحر . شامخا فوق الصخرة لعبية . فجدته الشوق من مكانه جدا ،
 فبصر على موعد مع الرجال . وب أن عائد الوصف ، واستعمل الطريق
 بوجهه ، حتى كان قرص الشمس قد اختفى ، وسحب وراءه رده الليل
 الأسود وغشى بها الدنيا لثام .

— ٣٣ —

وصل حتى الى الشاطئ المهجور . . . وترى أمامه حمر الزمائل الصديق
 ملتصيا بالنياء في صمت كتيب . . . وقف حائزا لا يدري ماذا يفعل ، انناه
 حساس عميق بالصيق والسخرية معا ، فاشاح بوجهه بعيدا عن المياه في
 حجل ، غير أن الاحساس كان قويا متعلكا من نفسه ، وتصاعد الى ذهنه
 سؤال بدا له سعيها بحرا : « هل رضى أبوه عما قاله للرجال . ! » . . . لكنه
 سرعان ما تساءل في عهيب ومعاد صبر : « وما الذي كان يفعله أبوه لو كان
 حيا ؟ »

ظل متصبيا عند الشاطئ بهجسه الفارع ورأسه الكبير ، وقد عقد ذراعيه
 فوق صدره ، واكتسى وجهه بطيقة صخرية ، ثم روت في ذهنه حبيته
 عربية ارتاحت لها نفسه وطمازت ، حقيقة حائه عن غير نفسه . وأجاب وحى
 هبط عليه من السماء . . . « ان الرص غير الرمن ، والرجال غير الرجال ! »
 فحاة . . . أصبح الشاطئ لذي اكتسى في ذهنه بوجهه .

الأساطير والحكايات عارياً قهراً ، وآه مهجوراً يحيط به لصمت والحمد
ويعشش الغصاء من حوله . . . والسيد البطل في غير موجود ؟
وهوى قلبه الى قدميه

ذكرى أبيه هي ، نثى القوت في حياته . . . قوته استمدتها من ثلث
لأساطير التي يحكيها عنه . . . ورغم أنه لا يذكر وجه به ، إلا أنه كان
محس احسباً حقيقياً ، السيد البطل كان يعيش معه طول عمره ، في ليله
وباره ، في حبه وفرحه ، في ساعات نأسه وساعات أمه . . . كان كالصغير
لا يدرقه . . . وكان حب لم يمت ، ما أن يشعر بالصبي أو يفقد الأمان ،
حتى يذهب الى الشاطئ . . . هناك يتشمم رائحته ، ويرى في وضوح جلى
وجهه الذي شكله خياله وصنعه في آهى صورة عرفها لاسد . . . شىء
كالوحي كان يبعث عليه كلما حرص في المياه وغاص في لجها ، ورحمة قدسية
كانه تسابه كل ما دى في الغصاء : « يايا . . . يسيد يبتلى ! » .

ومحس رجح العصى وكأنه ردعى بذاته . . . بل كثيراً ما توهم . . . وأن كان ينكر
ذلك - في لحظات وحده كانت تتباه ، أن أناه يعبد ليه من جوف المياه
صائحات فيه مليا بداه . . . كان السيد البطل حيا في خياله وقده ، حقيقة
حافظ عليها وسعد بها طوال عمره . . . لكن الأيام جاءت بها لم يفكر فيه
لسيد البطل . . . وكان عليه وحده أن يجابه أحداها !

ومحس حمى إلى تلك للحظة - فقط - أن اباه قد مات !
فرتحب !

وعصى حشفه . . . ولم يبق أمامه بعد ذلك سوى صحور دائنة وعيه
مبسطة ، وصخرة رأس الترس الهائلة ، تنقى في صمت نطح لأمواج ،
وترقب في حلال بحسار البحر عنها !

فأص قلبه بالحين ، وقال : لأول مرة في حياته - وهو يستدير مبتعداً عن
الشاطئ ، في خطورت ثقبة :
« الله يرحمك يايا ! »

الزقاق - لئن تقى بنفسها على صدره ، وحفظ عفتها يد عنها زهر سم
 ببيكاه . . . بين روح صوت أم حنن يسر في حد الكائن ما به . . .
 تنحس طريقها مبدية

« يا حنى ، يا صديق ، انخرت عن أمك موى حنى
 ان حرب عليه حنى »

واحتس صرت لعجوز بالكاه وهي تنحس بفتى من عود واحد . . .
 لدى انحنى غابها ليعمر وجهها ويدبها بالصلوات . . . وتحدثت اسوء
 ورحى يرعدون ويسلمون ويهتفون . . . رفع حنى وجهه لئن تقى غباها يعزى
 زوبه وقد كسبها دموع مرعرة ، وامسكت يده دون تردد لتلقط يدها وتضعه
 عليها في قوة وثقه ، وأطل من عييه حديث له معنى ، حديث تصدق عم
 انه ثرؤا . . . وأزاحت زوبه عيها في خجل كمن فهم كل شيء . . . ورحم
 فسها حقيقا شديدا ، وشحن وجهها عندما اقرب منها حنى حنى ؟
 جملده أن يلاص جلسها ، وهي بصوت لم تسمعه سوى عائشة

« أبوي صادق رجع يازوبه ! »
 دلت وهي تولى عنه وقد تصرح وجهها بعد شحوب
 « لألكه . . . زمانه جدى ! »

وعمرت ابتسامة سعيدة وجه عائشة وهي تغدب روبة من يدها ، وتـ
 بها بعيدا عن الصلحة . . . ثم دلت معها الى هناك ليبت ، وممست في حزن
 وسعادة وهي تفر في مكاتب مصففة

« ألف مبروك يازوبه . . . ألف مبروك يا حنى ! »
 « بوه ، احص عليكى يا عيشة ، عن ايه ؟ ! »
 ضحككت عائشة وهي تقول :

— ٣٤ —

صاح طلع صوت فتح نافذ

صلى حنى . . . حنى حنى حنى !

« . . . ناسه عجب انى شبح حبيب هاللا عذلا بكاذ أن يسبح مدخل
 الرقاق بطوله وعرضه . . . فاستفت في سعاده ، ورفرت من أعقابى ثم
 اندفعت مدنى ولا عنى وهي تصيح في جدل كصفل عاب عنه أبوه ، ثم عات
 الية . . . »

« . . . مدنى حنى من علامات السعادة المرسمة على وجه شقيقته ،
 . . . يا دلك . . . ريق الذى زاح بطل من عيها ، يربق أحاذ مضم . . .
 رحة . . . كده . . . كاهيا وصمت تعاليم وجهها من جديد .

فرهم البصود استطاعت الذى تسرب الى الرقاق من نوافذ بيوتها المفتوحة ، الا
 . . . استطاع أن يلمح في النوحه الذى طلقا هالعه كتيها حريبا حسة سعادة لا
 تحسنيها العين . . . كانت عائشة قد اندفعت . . . على غير ما تعودت أو تعود أهل

« يا لهوى عن الكهن يا حواتى ، بت ... حطى عيسك فى عيني
كده ... آمال كان يسأل عن أبيه صادق ليه ١٩ »

بتسبت زويه وهى تستمع نحو عائشة ، وتبقى بنفسها فوق صدره ، ثم
قلت بصوت حالم
« ان شاء الله يبت حالى ، ان شاء الله يارب ! »

وقادت عائشة وهى تدفعها لى بعيد ، وتحقق لى وجهها :
« حارقه يازويه ، وسحابة اللى آتت قلبى حاسس ان ليلية حاتكون افراح
من أروها لأحرها ! »
وعمرت رويه بعينها وهى تقول مداعبة :

« أبو السيد ١٩ ... السيد هدى ١٩ »
أحست كل منهن فجأة وكشأن تعرت بغير خجل أمام صاحبها ...
ووصلتها من الخارج أصوات النسوة وهى تقترب وتندو ، ودلف حنفى لى
لها ياساً ، وقال وهو يتجه نحو حجرته فى خطوات سريعة
« عاوز نشرب كايه شاي يا عيشة ! »
« حاصر يا حويصا »

جذبت زويه عائشة نحو حجرتها وهى تقول فى همس :
« والنبي ماحد يعمل له الشاي غيرة من الليلة ! »

وسرعان ما انحنت على الحوقد ، وأشعلت الثقاب ، وراحت تعد
النشاي ... وخرجت عائشة الى الفناء تاتى بالمياه ، عندما صك سمعها
صوت قفز له قلبها وركض وأخذ يضرب بحمقاته جدران صدرها فى
عنف ... كان السيد الهدى الشاحمر حى يحدث أمي لتى اتخذت مكان
عند عتبة الباب من جديد !

« مساء خير يا حاتى ... »
« يمشيت بالسر والدعابة ياسى السيد الهدى ... »
« هو حنى لسه مارحش ؟ »
« رجع يا حويا من غير شر ... اتفضل أهو جوه ! »
وسرعان ما ارتفع صوت حنفى من الداخل :
« اتفضل ياسيد الهدى ... أهلاً وسهلاً ! »

تحس السيد الهدى وهو يحطو الى الداخل حافض البصر ورغم به
مر بعائشة وهى تقف وسط الفناء ، لا به لم يحاول أن يسترق السمع أو
يحتس النظر كاد ثابت يعرف طريقه هذه مرة ، وما أن دفع الى
خجرة ، وأحس وراءه ماب حتى دنت عائشة من اساب فى حقه ،
وراحت تستمع ودقات قلبها تصمم أذنيها ... وجاءها صوته بعد خطوات
حبل اليها انها سوات طول :

« بقى صلي بى على الحبيب البنى يا حنفى ! »
فوجيء حنفى بلهجة الرجل ، فقال فى دهشة محاولاً أن يستشع ما وراء
كلماته :

« ألف صلا على الحبيب ياسيد الهدى ... خير منك ١٩ »
« بقى شوف ياسيدى ... »

تردد السيد الهدى للحظات ... كان جالساً أمام حنفى منكس الرأس ،
يستلقى من ورائه نور المصباح الموصوع فوق حافة الدوالي ليهمر به
ويكسر وجهه بطريقة من الظلال ... ونشط ذهن حنفى وهو يرقب الرجل
الصامت اجالس أمامه ... وأحس بالصيق يعزو مشاعره ... كان قد قرر
أمراً ، وكان فى حاجة لأن يخلو لنفسه ولو لدقائق معدودة ... فى لحظة ،

عزيم ن يطلّب رويه عدد نساء! .. ولو لم يتألك نفسه وهو في الرقاص
وسط السوء ، لأحبرها به عزيم عليه على مسمع من الجميع . . . وأحسن
بالبل وهو يرقب وجه السيد الفندي مكتسب بالطلال ، وتصبح وهو يرسم
على وجهه ابتسامة . . . ثم قال

« خير ياسيد اهدي . . . فيه حاجة شاعلاك ؟ »

وقال السيد الفندي بصوت مرتجف :

« قولى يا حنى . . . ريتك وأخفى مش عارف بقوه ازاى ! »

« انكسم ياسيد الفدى » « احدا احوات ! »

« ماهوده لى مطعمى ! »

« خلاص . . . ويستنى ايه ماتتكم ! »

« اسمع ، اسمع يا حنى . . . اتى طائب القرب ! »

ارتجف حنى من قمة رأسه الى أخمص قدميه حتى أنّ السرير وارتجعت
معاصله لأرتجفه . . . وتصب العرق البارد من جسده فعمر صدره وظهره
وتساقط من تحت ابطنه . . . فأطرق لا يدرى ماذا يقول . . . كأن حائرًا غير
مصدق . . . لو فهم قالوا له ان سعية عبد الموجود حداد قد غرقت لما هنرت
في جسده شعرة ، ولو فهم قالو له انه كل مامضى من مشاكل كان حلبي
لصدق . . . أما أن يطلب رجل يد عائشة ، عهد فاقد طمست الايام وانقلب
والانتظار معدّل الأمل فيه . . . فاحنى !

« يعنى صاكت يا حنى ؟ »

رفع حنى عينيه الى السيد الفدى ، وسأل في صوت هادى :

« عاوز عيشه ياسيد افندي ؟ »

« أبوه يا حنى . . . أبوه عاوزها على سنة الله ورسوله . . . وإلا آوى مش

قد المقدم يعنى ؟ »

كان صمت حنى قد ألقط السيد الفندي انزاهه وبعث الخوف في نفسه ،
مسلط بالجملة بلا وعى . . . على انه عندما نظر الى عيني حنى المشرقتين ،
عاد يحس الامان من جديد . . . فقال :

« ايش قولك يا حنى ؟ »

« كدنت أبويا محمد ؟ »

« قلت ناهد رايتك الأول . . . »

وفر حنى ، وقدم للسيد الفندي سيجارة ، وأشعل نفسه واحدة ، ثم قال
وهو ينعث دخانها في راحة كمن ازيح من فوق صدره حمل أثقل حمرة
بالأسى :

« عيشة أختك ياسيد افندي زى ماهى أختى . . . ومها اتقدم لها مش
حانطول واحد زيك ، انت صا وعليها . . . وخيرك على الكبير فينا قل
الصغير ! »

كاد السيد الفدى أن يرقص طربا لخديث حنى ، فقال في مرج

« عيب يا حنى هاتنا أهل . . . يعنى انت موافق ؟ »

« من ناحيتى ، ألف هزار ابيض لما تناسب واحد زيك . . . اما برصه
الأصول انما نشور أبويا محمد . . . والا انت ايه رايتك ؟ »

« تمام تمام . . . يعنى انت موافق ؟ »

« الله . . . جرى ايه ياراجل ؟ . . . ماتهنى على الخبيب أمال يا »

« ألف صلا على سيدنا محمد . . . »

فألفا السيد الفدى . . . ودلفت عائشة من الباب تحمل أكوام الشاي
بيدين مرتجفتين ووجه شاحب سميد ، فحسب الرجل بصره ، ورنع اليها
حنى حين حانتين . . . فقام رغبة عارمة في مداعتها ، وفي إضارها بالآمر

كله . . . بل قاوم رغبة في أن يقبلها ويضمها إلى صدره وأد يقول هـ : ألف
مبروك يا عيشة ، ربما يسعدك يا أختي ! . . . وما كاد السيد أمدي يمد يده
إلى كوب الشاي حتى انسحبت عائشة وهي تفر إلى الخارج وهي تقول في
اضطراب من لم يتحمل صمت الحجرة وما فيها من أسرار :

« صي محمود ابن عمي بجه . . . »

صباح حنفي فيها وهي تعانق الحجرة ، وقد أيقظتها سمعت وعلمت

« وكناية انشأ بتاعتي يايت ؟ ! »

ثم انطلق ضاحكا ملء صدره . . . وقال وهو يرت على كتف السيد
أمدي :

« لف ليلة بيضة ياسيد أمدي . . . داحت اشرفنا وحياء النسي ! »

— ٣٥ —

نهض حنفي والسيد أمدي بعد أن شربا الشاي ليطلقا بالرجال الذين
تجمعوا في بيت المعلم محمد . . . كان محمود جالسا محوار أبيه ، وعن يساره
جلس المعلم صادق ومودة . . . بينما تناثر الباقون في أرجاء الحجرة لرحله .

وما أن انتهى المعلم محمد من مصافحه السيد أمدي ، حتى صباح في
حنفي ضاحكا :

« ازاي ياود يا حنفي غفبي على المدة دي كله ان خالك مسافر ؟ ! »

اندفع السيد أمدي يقول في مزح :

« هو مودة نوي على السفر ؟ ! »

وقال مودة ضاحكا :

« ان شاء الله ياسيد أمدي . . . هلشان منزهكش بس ! »

نهض السيد أمدي في حماس وصافح مودة في حرارة وقد اكتسى وجهه
بالسعادة وهو يردد :

« ألف تبار أبيض » ألف ليلة بيضة . . حاثو حشاً صحيح أياً يبقى لنا بيت جنب أم هاشم . . . بإسلام ، كل شيء وله أوان يارجاله ! »

ابتسم حنفي ابتسامة مشرقة ، وراح يتجمل الحديث ، ويقاوم رغبته في أن يعلن للجميع رغبة السيد العمدي ، ويطلب ربه ، ويسمع بأدبه رعايريد فرحه فقال بسرعة والكلمات تترافض على شفتيه

« صلي يا علي انسي يا عمي . . . فيه كلمتين لازم ينقلوا قبل أيها حاجة ثانية أني كل اللي حيلش قرشين حانديهم خالي والى عنده قرشين زيادة يبقى خير وبركة . . . الشحن من هلمصر يوماتي أني سألت قالوا لي كله . . . والا ايه ياحالي حمودة ؟ »
وقال حمودة :

« هو يوم الجمعة بس اللي مافيهوش شحن . . . والمعلم جابر السهاك قال لي إن الرزق في مصر واسع ، البلد كبيرة ، والسعر فيها عال ! »
فقال المعلم محمد وكأنه ينفذ عن كاهله كل شيء :
« شوغوا يا ولاد ، انتم دبروا أموركم ، وربنا معاكم ! »
فقال حنفي :

« ما هي الشورة برصه شورتك ، والكلمة كلمتك يا بابا ! »
« الشورة شورتك أنت يا حنفي . . . وأهو محمود أحوك ، وأني ماعدتش حاسطع بعد النهارده بالملوكة . . . يا الله يا حسن الختام ، والا ايه يا عمود ؟ ! »

قال محمود بترت حزيمة يشرب الحواس والاحلاص :

« كلامك ماشي يا بابا ! »

وقال حنفي :

« وأني حاسطع بفارب خالي حمودة »

فقال المعلم محمد :

« كلام زين . . . يش فونك يا حمودة »

فرد حمودة بحماس :

« القول ماقاله حنفي بابا . . . وأني بعث له الفارب والشكيتين بالقرشين الى عنده ، سوى كثير سوى شوية ! »

كنسى وجه حنفي بفرح غامر ، وتهللت ملامحه وهو يقول :
« وباوي تنوكن امتي ياحالي ؟ »

فقال حمودة

« أني تفقت مع أبوي محمد خلاص . . . من بكره حانروح مصر وفي حبي قرشين ، نجس البص ونشوف الجوماشي زاي ، وبركة السيدة والحسين ، وماذن الله ، نأجرو دكانه على قد الحاس . . . ونشوف لنا أوصه سام فيها ويا العيال ، ويعدين نرحلوا وبتندي كسا على بركة الله ! »

وقال الرئيس صادق :

« وساتعملوا إيه مع الرجال يا حنفي ؟ ! »

« أول ماخدي حمودة يرجع من مصر طوالي ، نشوقوا لنا واحد عامي يعمل لب الورقة دي . . . ونوكل على الله بعدها . . . وبكره حانروح السكة الحديد نسال من أسعار الشحن والذي منه . . . وعلى مايرجع خالي كل حاجة حاتكون جاهزة بأذن الله تعالى ! »

اصططع المعلم محمد في مكانه ، وربع قدميه وهو يشعل سيجارة ويرفق محمود ببطء حانية . . . ثم قال :

« فضونا بقى من السيرة دي ، الصباح رباح . . . إليه كلمتن بدي مقولهم مادتم كلكم مع حودين ! »

ابتسم حنفي وهو يصمم كفيه ويقول متعجلاً الحديث ناقلاً بصره ما بين عمه والمعلم صادق . . . كان قلبه يحرق ، وتلجأ « تلاذق » :

« واني عدى كلمتين مهمين قوى بابا محمد ! »

« خير يا حنى ! »

« أولاً والمصلاة على النبي ... السيد الهدي طالب عونه ... ايش قولك يا بوبا ؟ ! »

اعتدل المعلم محمد في جلسته ، وتبهل وجهه بفرح غامر وهو يقول :

« ألف ليلة بيصه يا ولاد راحل ولا كل الرجال ! » . مبروك ياسيد الهدي ، على حيرة الله ! »

قال السيد الهدي في سمادة وقد تصرح وجهه بالحيرة :

« مادام كده نفروا الفاتحة ذلوقت ! »

فقال المعلم محمد :

« وعشاش الفاتحة تبقى فتحين ... آني اتفتت مع محمود على حاجة ! »

ثم التفت الى المعلم صادق وریت على كتمة وهو يستطرد :

« ايش قولك يا صادق في روبه لمحمود ؟ ! »

ابتسم المعلم صادق وهو يردد النظر بين الرجال ... ثم فرد كده لينتقى بكف المعلم محمد قائلا :

« خدامته يا معلمى ، زويه بنتك زى ما محمود ابني ... الفاتحة ! »

وصاح المعلم محمد في نشوة :

« حظ ايدك في ايد نسيبك يا ولاد يا حنى ! »

وسرعان ما انتفض السيد الهدي كف حفى ، وضغط عليها في قوة

ورن الصمت على الحجرة ، والرجال يقرأون الفاتحة في همهمات خافتة !

أحس حنى يدوار كاد يفقده توازنه . فتح همه لكى يتكلم ، فوقعته الكلمات في حلقه ، ونفى همه معترجا . تلاحقت الكلمات والاحداث في

تركت له فرصة ... نهض الرجل فصافحوه وصافحو السيد الهندي ، ويد درى ... انطلقت لغزيريد فندوت في أرحمه الرقاق ، وهو في مكانه مذهول لا يعي ... دارت أكواب الشرابات على لرحال وشربوا ، وماذاق لشرابات طعم ... أحس كأن يدا قاسية حذبت من مكانه عن عبر انتظار وألفت به في فضاء لا أول له ولا آخر ... فهذا يصعق ؟ ! ... حلم ، حلم يغيب نقيب ... كاسوس رهيب يكتم أنفاسه ، وأصابه غثبان شديد صحنكات أهله هذه يكتم أنفاسه ، وأصابه غثبان شديد ... صحنكات أهله هذه التي تصل الى أدبيه أم قهقهات شياطين ليس في قلبها رحمة !! أفاق على صوت عمه وهو يصيح به

« جرى ايه يا ولاد يا حنى ... أنت عرقان في ايه ؟ ! »

وصاح حموده شوان :

« عاوز يتجوز بابا ... عاوز يتجوز ، والله لنجوزوه ميت الحسن ! »

كلمات كالسم ، أو كاطراف سيوف مرهقة ، أو كسكاكين حامية تقطع من قلبه وتلقى منه الى الذئاب ... محمود مطرق صامت ، لكنه مبسم ، طوفان من الكراهية يعمر مشاعره ... خطفت زويه في لحظة ... مجرد حظة قاسية رعناه ... لماذا لم يطلبها قبل همه ؟ ... ماذا يستطيع أن يفعل ؟ ! ... أبصرخ باكيا ويقول أنها لي ؟ ! ... ماذا يقول همه وقتها ؟ ... وماذا يقول بن همه ؟ ... وماذا يقول الرجال ... حكم قاس ، وقلب يتهاوى في دله وانكسار ليسقط مضرجا بلا حول ولا طول ! « يا ولاد يا حنى ... بالليلت بيصه ... يا ولاد ما فتش لابن صحت مبروك ! »

رفع رأسه الى محمود مرة أخرى ... وكان هذا يا حنى ... كأنه لم ... أو كأنه طوى في أمثاقه قصة حبه واستسلم ... حياه !

رسم انشامة على شفتيه ونهص ، ونهص محمود ، فمد له يده . وفرد محمود ذراعيه ، فألقى بجمسه فوق صدر ابن عمه وصبر على أسانه حتى يسمع الدمع الطافر في قوة كالطوفان . أحاط محمود بذراعيه ، وثقى لوييكى ، لو يصرح ، لو ينوسل لابن عمه قائلا له . احبى وقف بجوارى كما حيثك ووقفت بجوارك كما فعلت معك بالأمس ، بالأمس فقط ، عندما حملت جسمك المتهاوى وأوصلته الى البيت !

همس محمود في حب خالصة :

« عقبال مانصرح بيك يا حنفي ! »

وابتسم حنفي وهو يقول في أمسى هامس :

« آنى ... آنى اتجاوزت خلاص يا محمود ... اتجاوزت العيلة ! »

لا يدري كيف قال ذلك ... على انه أحس بشيء من الراحة يغزو صدره ... فرحب به بلا تردد ، وعاد الى مقعده وأشعل سيجارة !

— ٣٦ —

في الفجر ...

ترامى صوت المؤذن من بعيد ... فتأوهت أم حنفي وهي تنهص ، وما كادت تعنح ففهما وهي تنحس بينهما جسدا ولدها حتى شهقت في دهشة ... كان حنفي متربعا في مكانه وهو يتنأب ... ولاحقت كلماته كلماتها ، قال في صوت خفيض :

« يا عيشه ... عيشه قوسى اعمل الشماي يا حنفي ! »

ونبهت هائشة مسرعة ... وتدل فت أم حنفي وهي تقلب النظر بين ولدها وابنتها ... ثم ثألكت نفسها وهي تقول :

« حنفي ... »

قال حنفي في هدوء وصبر :

« بلاش سيرة الجوز يا أمه ... بلاش خالصة ! »

ما كادت تعنح ففهما بالاحتجاج ... حتى كان حنفي قد نهض من مكانه ، وغادر الحجرة ، وعبر العناء مسرعا الى حيث كانت أخته واقفة .

وسرعان ما انحني أمامها وهي تصب المياه على يديها . . . سبب جده صوت
أمه وهي تنحتم في يأس بالغ

نسي حناون ، وحنة سبي حناوي . . حناطه مني الحبيه زى
حبيب نوح يارب

ومرت لدقائق مسرعة الدقائق على الأبواب ، وأصوات الطواقف ،
ومساحات لرحلات ، واشتداعات . . . وخرج من الرقاق رجل ، وثان ،
وبالشفاء . . . وهي جسي بشكته فوق كتفه . . . وعادوا الخخرة دون أن يخطر
بالذهن ، ثم خطا في الدقاق ، وعبره مسرعا . . . وانثنى إلى الميادين ، ثم إلى
الأسوار . . . وأدرك من باب الرصيف ، ووقف وهو يعبره إلى الداخل ،
وأخذه ممدد . . . قرب حمود وقفز إليه . . . أمسك بالمجدافين ، وراح مجدف
في قوه . . . وابتدأ القارب على سطح المياه ، ثم أخذ يسبح مسرعا
سريعا . . . حتى إذا استقلت مقدمة مياه الميناء الممتدة المنسقة . .
مسح . . . حتى إلى الخلف ، ولوح بحمود وهو مجدف في القارب الذي عاش فوقه
سرب طويل . . . وكان ابن عمه يعنى في صوة العجز الشاحب .

دعيني دمعك صدى من البك والوجع
ما أنت إلى كنت السبب ليه نظرتك متروح
على عشقته . . . وحل القلب بات مجروح

صدر للمؤلف

- ١ - الخوف - مجموعة قصص ١٩٦٠
- ٢ - زقاق السيد البلطى - رواية (طبعة أولى) ١٩٦٣
- ٣ - الكذاب - رواية (طبعة أولى) ١٩٦٥
- ٤ - خطاب إلى رجل ميت - مجموعة قصص ١٩٦٧
- ٥ - البحر - من أدب الرحلات ١٩٧٣
- ٦ - السجين - رواية ١٩٧٦
- ٧ - الصعود إلى الهاوية - مجموعة قصص عن التجسس ١٩٧٦
- ٨ - الخفسار - رواية من أعمال المخابرات ١٩٨٥
- ٩ - المهاجرون - قصة طويلة ١٩٨٦
- ١٠ - رأفت الهجان - (الجزء الأول) ١٩٨٦

تحت الطبع

- ١١ - قصص من البحر - مجموعة قصص قصيرة نظرية تجري أحداثها في البحر
- ١٢ - دموع في عيون وفحة - رواية من أعمال المحادثات
- ١٣ - حب للبيع - مجموعة قصص
- ١٤ - صور من مصر - مجموعة صور أدسية
- ١٥ - قصة زواج عصري - رواية

صدرت الطبعة الأولى

من الرواية الخالدة

كنت جاسوساً في اسرائيل

« رأفت الهجان »

تأليف : صالح موسى

قصة اغرب شاب مصرى عاش في اسرائيل
على أنه يهودي . . . ويعمل لمصلحة وطنه ولم
يعرف سره حتى وافته المنية

قريباً

الجزء الثانى من الرواية الخالدة

كنت جاسوساً في اسرائيل

(رأفت الهجان)

تقرأ فيها حقائق أغرب من الخيال
تصدرها ابولو . . للنشر والتوزيع

١٦ شارع البورصة . . التوفيقية
القاهرة : ت - ٧٥٢٢٢٤

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٣ / ٨٧
الترقيم الدولي ٦ - ٠٢ - ١٥٦٠ - ١٩٧٧ ISBN

الناشر خارج جمهورية مصر



العمارة المعمورة للعصر ٢٠

5559 Nicosia - Cyprus

498068 - Tlx 5341

الطبعة الأولى ١٩٧٣

١٩٧٣ - ١٩٧٣

الناشر

للنشر والتوزيع



١٦ شارع النهضة - الدقيبة -
م. ب. ١٥١٥ القاهرة ت. ٧٧٧٧٧
عناوين أو الفروع - شارع ٣٩
شقة ١ رقم ٨٥٩٥٥٦ ت.

- الصف والتجهيزات الفنية -

دار القيد العربي
للصحافة والنشر والإعلان
منارة ثقافية جديدة في مصر



طبع بمطابع

النهار العربي للطباعة والنشر

١ - شارع العامل الأول - امبابة - الجيزة

ج ٢٠ ع

رفاق السيد البطلاني

• • • وصاح مرسى تلك قردة فزاعه لاشك فيها ، وهو يعرف كيف يتصحب المؤلف تدراسي وكيف يتصل التفرج والانتفاع بدرجة ولهم في إثارة الفطن والفرح والاشتياق في تدوينها !

• 3 • محمد فتور

• • • إن رفاق السيد البطلاني حديثه موعظاتها ، حديدية بأسلوبها ، وعلى أوراها فيها أنها تخرجنا عن الطريقة الشارحة إلى تسجيل الواقع إلى نوع من الكتابة لا ينتمي إلى مدرسة معينة ، بل يكسبها كافة التعاريف الروائية المعهودة ويضيف إليها

• • • نعيان عاشور

• • • الحياة وفقا لصاح مرسى حياة فاسية أشبه بالبحر الشاخ الامود ، ومع ذلك فلا بد لنا أن نخرج من غمارها ، ونحن نشعر بالمرارة والؤنس إن لم نفعل ! إن لم نصبح مع كل الناس حرة لا ينجوا منها !

• 3 • تطبيقه الزيات

• • • في رفاق السيد البطلاني شعر أننا أمام عمل يتسم فيه التباين مع الكثير من الزلف والشعر ، ويظهر فيه الحدث ويتم ككتفل لا تصادفه عليه ، وتتصايف الحيرة وتطرح وتساعدت نتمو لكنها تعود لتعطي بعد بؤرة تخرج من نطاق الفطن شائتا بأكملها ، شائتا عارضا فيها في حكاية حدة عجوز ، ثم جاء صاح مرسى وأعاد إليه اللون والطعم والرائحة ودفء الحياة .

• • • أحمد بيجت

• • • إن رفاق السيد البطلاني تحفة تستحق مجداؤه أن تخرج كمناج عبرات الآلاف من الصبايين والبطلاني كان منبث بمرافقة حبه من عرجى البحر ، والبحر واسع وعميق كبير ، والقصة تفيض في عذوبة الموج حين تلقى بنفسك على ظهورك في الماء وتترك الأمواج تحركك

• 3 • يوسف إدريس

• • • وكما تغلب ليردب على وحش الحرافقة في الأسطورة اليونانية القديمة ، يتغلب كثير من أبطال صاح مرسى على قوى الطبيعة والقدر ، ويرمونه وحوشا عديدة بمقابله ، ولقد إزداهم ، وسحرارة التناقضهم بأخواتهم البشر !

• • • فؤاد دواره

مستقر